

دراسات أدبية

# دُور كِشَوْرَت

بين الوهم والحقيقة

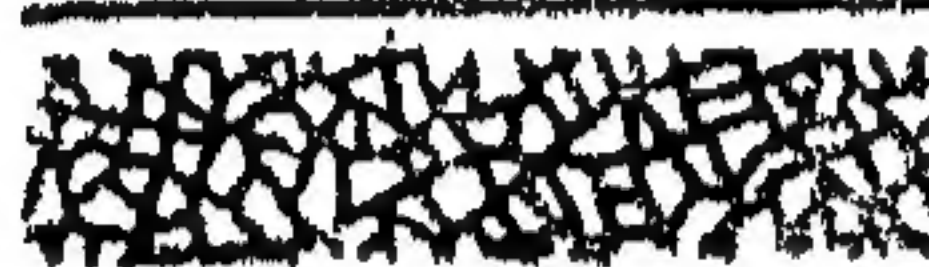
الدكتور غبريال وهبة







# دراسات أدبية



٤

١

الافراج الفنى

---

سعد الدين الشريف

# دون كيشوت بين الوهم والحقيقة

الدكتور غبريال وهبة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩



## مقدمة

نسخ ميغل دي ثريانتس سابدرا شخصية بطله « دون كيخوتي » بعبرية فذة ، فاذا انسيج درة نادرة لها ، رغم غموضها المغمز ، مالملاحجار الكريمة من سحر وبهجة ورواء ، تلملم أشعة كل ماهو عفيف ونبييل وخيوط كل معنى سام جليل ، وتجمعها في بؤرة ، لتعكس لنا أروع رمز للانسانية تجمع عليه الاعجاب ، وهفت اليه القلوب ، لا في حدود وطنه اسبانيا ذات الحضارة المجيدة فحسب ، بل أصبحت حدود الرواية حيث لا تتسع لها حدود ، عبر الممالك والامصار ، وأضحت دوحة يتفيا بها في هجير هذا الزمان

وهكذا فاق قلم ثريانتس سيف اسبانيا ، اذ سرعان ما أصبح اسما دون كيخوتي وسانتشو بانثا مألوفين على كل لسان في جميع البلدان والمجتمعات المتحضرة ، وأصبح العالم كله يضحك معا حول « دون كيخوتي » .

لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتي التي أبدعها ميغل دي ثريانتس وهو روائي وكاتب مسرحي وشاعر ذائع الصيت ، ويعد كتابه هذا عن دون كيخوتي أعظم عمل فني في تاريخ الأدب الاسباني ، ومن أحب وأوسع الكتب انتشارا في العالم ، وهو يلي الانجيل في كثرة اللغات التي ترجم اليها .

وشخصية دون كيخوتي تعد من النماذج الانسانية العليا ، الى جانب بروسبيروس ، وفاروس ، وهاملت ، فدون كيخوتي يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سانتشو بانثا فيمثل بدن الانسان . ذلك الرفيق الاصيل للروح .



ومنذ القرن السابع عشر حتى الآن لم يفرغ البشر من فهم دون كيخوتي ، ومازال المعلقون والشرح والنقاد يجدون في أفعاله وأقواله كل أنواع المعاني والرموز ذات المغزى والدلالة والأهمية ، رغم أن ثريانتس نفسه يعترف بأنه لا يود شيئاً سوى شجب قصص الفروسية ، وتعزية ما فيها من زيف وعبث . ولا تزدهم المكتبة القومية باسانيا بطبعات رواية دون كيخوتي ومجلداته فحسب ، بل بأطنان من الكتب تشرح وتفسر ماخفي وغمض من الرواية ، تلك التي وصفها الناقد الفرنسي الكبير سانت بييف بأنها « انجيل الانسانية » .

ولا غرابة أنني أحببت هذه الرواية لنزعتها الانسانية التي جعلتها تتجاوز حدود اسبانيا لتصبح رواية البشر جميعاً في كل الأوطان على مر العصور ، وأعجبت بمؤلفها العبقري وبحياته الأسطورية التي تعتلى بالوطنية والبطولة ، فكان اختياري لموضوع هذا الكتاب .

وقد آن الأوان لكي ننطق دون كيخوتي كما ابتدعه مؤلفه الأسباني ، بدلا من نطقه دون كيشوت كالذين يقرأونه بالفرنسية .

وكان تأثير الرواية في الأدب والموسيقى والفنون التشكيلية تأثيراً عميقاً ، واستلهم المصورون الرواية مرارا فنقلوا الى لوحاتهم الفارس ومن حوله ، محاولين أن يعكسوا بفرشاتهم روحانية دون كيخوتي .

ويستحق كل هذا منا وقفة لنتساءل عن سر انتشار وذيوع الرواية بهذا الشكل الذي لم يسبق له مثيل . واقتضى هذا منا لكي نصل الى الاجابة أن نتناول في بحثنا مؤلف هذا العمل الفريد وحياته وعصره وظروفه ، وخاصة ان الرواية على صلة بعصر ميغل دي ثريانتس مؤلفها وبشخصيته وحياته ، شأنه في ذلك شأن الآثار الانسانية الكبرى في الماضي والحاضر ، ومن هنا جاز لنا أن نتعرض لعصر ثريانتس وحياته حتى نضع الرواية في موضعها منهما .

بيد أنه لم يكتب في عصر عن حياة ميغل دي ثريانتس ، مبتدع دون كيخوتي ، الا النذر اليسير . . . بضع صفحات هنا وهناك في مقالات قصار أو مقدمات يستهلون بها رواية « دون كيخوتي » المترجمة الى العربية . . مع أننا ندين لميغل دي ثريانتس بأمتع روايتين أتحفنا بهما في تاريخ الأدب . . . أولاها . . . حياة دون كيخوتي الغريبة العجيبة ، وثانيتهما . . . حياة مؤلفها التي تضارع حياة بطله دون كيخوتي ان لم تكن قد فاقتته في غرابتها .

وقد رأينا أن نبداً عملنا بتصحيح اسم المؤلف الذي ينطق بالاسبانية ثريانتس وليس سرفنتس أو سرفنتيس وفق نطقه بالانجليزية أو الفرنسية . . وهناك اتجاه بين كتاب السير نحو اغفال ما لم يستعذبونه من مشوار حياة



ميجل دى ثريانتس فيظهرونه كراهب ، ولكننا فى الباب الأول الذى أفردناه لحياة المؤلف، رأينا أنه ليس هناك ما يمنع من أن نستمتع بروايته ونعجب بها ، وفى نفس الوقت نقص الحقائق عن حياته . وإذا كان هنرى توماس ودانا أى توماس قد قالوا عن ثريانتس أن شجيرة الورد لن يضيرها أنها نبتت فى الوحل ، واستمدت غذاء جمالها من الطين ، فإننا نقول عن ثريانتس ما ذكره سسانتشو بانثا لدون كيخوتى من أن الأراضى الجافة العقيمة تنتج ثمارا طيبة حين تسمد وتزرع . ونحن نرى أن العديد من تجارب الأيام والخبرات والمعاناة والآلام التى ذاقها ميجل دى ثريانتس هى السماد الذى أثرى نغم حياته الأدبية وأنتج لنا درة أعماله وزهرتها اليانعة « دون كيخوتى » . كما أن تغفلنا فى حياة ميجل دى ثريانتس ، لكى نفهم روايته فهما عميقا ، ليس ببذعة ، فقد ظهر هذا الاتجاه فى مدارس النقد الفرنسى الحديث التى يتزعمها سانت بيف ( ١٨٠٤ - ١٨٦٩ ) الذى كان يتتبع الحياة الشخصية لكل كاتب ، وتلاميذه وأصدقائه ، بل وأعداءه . ونحن بالتالى سنفعل ذلك دون أن نخش الطرف عن أعدائه . ونحن لم نؤثر سلوك هذا الطريق لنشوه صفاء السماء شأن الغربان ، ولكننا سرنا فيه وفقا لما تقتضيه موضوعية البحث العلمى وأمانته حتى نصل الى مدى العلاقة بين حياة المؤلف وشخصية بطله دون كيخوتى .

وقد أفردنا الباب الثانى للدراسة التحليلية لنص الرواية متناولين العناصر الرئيسية لها وشخصياتها مع عرض آراء الكتاب والنقاد فى العمل حتى نعيد تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى لتكتسب أبعادا واضحة ، ويصبح فى الامكان تقدير الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

د . فبريال وهبة







## **الباب الأول**

### **شخصية دون كيخوتي من خلال حياة مؤلفها**

**الفصل الأول :**

**ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية**

**الفصل الثاني :**

**حياة ميغل دي ثريانتس المغامر كإنموذج لبطل روايته دون كيخوتي**

**الفصل الثالث :**

**سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ في حياة ثريانتس**







## الباب الأول

في رواية « ضباب » للكاتب الأسباني الكبير ميغل دي أونامونو يدور صراع بين الحياة والموت ، والوهم والحقيقة ، وهاهو ذابطلها أوجوستو بيريث يبلغ به اليأس ذروته إذ أوشك على الانتحار بعد هرب حببيته قبل أن يزف إليها بيوم مع عشيقها السابق ماوريثيو ، فيواجه مؤلفه ٠٠ أونامونو الذي يقول لبطله انه أصبح لا يعرف ماذا يفعل به ، وأنه سيقضيه ٠٠ وفي أثناء الحوار يخبر المؤلف بطله في حزم بأنه لا وجود له ، وأنه جزء من أحلام أو خيال المؤلف والقراء ٠ غير أن أوجوستو عندئذ يتشبث بالحياة فيتمرد على مؤلفه طالبا الخروج من الضباب ، وأن يعيش قائلاً للمؤلف انه قد يكون هو نفسه لا وجود له ، فهو ليس حيا ولا ميتا ، وأن دون كيخوتي ( أو دون كيشوت كما ينطق بالفرنسية ) وتابعه سانتشو أكثر حقيقة من ثريانتس نفسه ٠

استوقفتني هذه العبارة الأخيرة ، إذ لم ينطق بطل رواية « ضباب » بغير الحقيقة في قوله عن ثريانتس ٠ وقد دفعني هذا الى البحث عن حياة ميغل دي ثريانتس مؤلف رواية « دون كيخوتي » ٠ ولماذا طغت عليه شخصية بطله الذي ابتدعه ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ وهل كان المؤلف هو نفسه دون كيخوتي كما يذهب البعض مثل رفايللو بوسوني ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل لحياة ميغل أثرها في هذه الشخصية الخالدة ؟

ان الاجابة عن كل هذه التساؤلات تحفزنا الى قراءة الرواية قراءة متأنية ، وتستدعي تمهلا وروية بالغة في دراسة حياة المؤلف بالتفصيل ٠٠ هذا فضلا عن أنه لكي نلم بمنابع شخصية دون كيخوتي وجذورها السياسية والتاريخية والفلسفية فان ذلك يقتضي أن نعرض لحياة المؤلف وظروف عصره التي عاشها حتى ندرك مدى ارتباط ذلك وقوة تأثيره على تلك الشخصية التي ابتدعها ٠



## الفصل الأول

### **ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية**

- ١ -

#### **اسبانيا في القرن الذهبي**

كانت اسبانيا امبراطورية شاسعة الأرجاء في أوج قوتها وعظمتها ،  
ومع ذلك ظهرت بوادر تدهور آت لا ريب فيه .

عندما ارتقى فيليب الثاني عرش اسبانيا كانت اقوى دولة على وجه  
الأرض ، وفاقته ممتلكاتها ما في حوزة أى بلد آخر . فقد امتدت  
الامبراطورية الاسبانية لتشمل نصف العالم ، ووصلت أقصى حدودها الى  
قمم جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية ، وكانت فرق الجيش الأسباني  
منتشرة في كل مكان . ففي أوروبا كان جنودها يرابطون في فرنسا وإيطاليا  
والأراضي الواطئة . وفي خارج أوروبا كانت اسبانيا تمتلك كل أمريكا  
الوسطى ، وجزءا كبيرا من أمريكا الجنوبية ، وبعض أجزاء من أمريكا  
الشمالية . يضاف الى ذلك الفلبين والهند الغربية . هذا بخلاف  
الممتلكات البرتغالية في أفريقيا والبرازيل وآسيا التي انتقلت الى أيدي  
الاسبان في عام ١٥٨٠ . وقد ذكر مؤرخ اسباني في فخر واعتزاز : « ان  
الشمس لا تغيب عن الأراضي الخاضعة لملك اسبانيا وان أقل حركة من  
تلك الأمة تهتز لها الأرض بأكملها » .

ان الذهب والمعادن الأخرى الثمينة التي كانت تتدفق دون توقف من  
أمريكا ذات الثراء الفاحش قد غيرت من وجه اسبانيا في وقت قصير .  
وقدمت لها مستعمراتها الغنية سوقا لصناعاتها التي نمت الى حد لم تكن  
تحلم به . وازدهرت تجارتها وتعددت سبل انتقالاتها . وأصبحت



أشبيلية أحد موانئها التي تموج بالنشاط ٠٠ وقد وصفها رولانجيت مارين قائلاً : « يا لأشبيلية من مدينة تموج بما فيها من حياة وحركة ، وذهاب وجيئة ، وتنوع في الأزياء ، وامتزاج في اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة بالثروات ٠ ويا للنشاط التجارة في بيت العقود الخاصة بأمريكا ، ويا للضجة الميناء ! ويا للشطآنها من جمال وروعة ! وما أشد غثّة الغاديات والرائحات في الطرقات أو المتطلعات من النوافذ ! أي حياة مترعة بلذائذ الحياة ! أي شمس مشرقة ! وأي سماء باسمه ٠٠ ! » ٠ وقد قيل عن هذه المدينة أنها لو عرفت كيف تحتفظ بجزء من الألف مما تدفق على أرضها لكانت شوارعها اليوم مرصوفة ببلاط من الذهب ٠

ولكن بالنسبة لشعب كان يجهل القوانين المالية أي مجموع الدخل والنفقات في الدولة ، فإن هذا النهر من الذهب كان بمثابة هدية مسمومة ٠ فالموقف الاقتصادي لشبه الجزيرة غير مستقر ، وارتفعت الأسعار في الأندلس بسرعة هائلة إلى ٥٠٠٪ خلال القرن السادس عشر وحده ٠ ولم تتوان الأجور هي الأخرى في اللحاق بهذا الغلاء وتجاوزته ٠ كما أن طرد اليهود عام ١٤٩٢ أدى إلى أن تخسر أسبانيا خبرتهم التجارية ، ووضع التجارة الأسبانية بين أيدي تجار أجانب ( هولنديين أو من أهالي جنوا ) كانوا يميلون إلى الاحتفاظ بجزء كبير من العائد ٠ وقد وقعت أسبانيا مع المغاربة عام ١٦٠٩ في نفس الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه مع اليهود ، وبذا خسرت أنشط عناصر الدولة فقد كانوا هم محركي الصناعة الجديدة وأسهم رحيلهم في قيام الأزمة في الاقتصاد وتدهوره ٠

## - ٢ -

### قيض من القبلاء وسيل من البذخ

يبلغ عدد سكان البلاد في أواخر القرن الخامس عشر حوالي تسعة ملايين نسمة بما فيهم العبيد والمغاربة ٠ وإذا أخذنا في الاعتبار السكان المبعثرين في الصحاري الشاسعة والسكان الرحل كالرعاة والغجر ، فإن مجموع السكان من الأفضل أن نقدره بعشرة ملايين ٠ ويدعى نصف هذا العدد قبالة الأصل ٠ أما القبلاء الحقيقيون ، وهم عظماء أسبانيا ، فكانوا يتباهون باظهار العظمة ، وما يوفلون فيه من ثراء ٠

وفي هذا المجتمع كان يضحى بكل شيء في سبيل الشرف ٠٠ ويتعين



على رجال كل أسرة حماية شفة نسائها ، والانتقام من أى إخلال بقواعد الفروسية • وقد بالغوا في هذا الدور حتى كثرت قعقة السلاح ، وصليل السيوف في المبارزات التي كانت تنشب هنا وهناك •

- ٣ -

### إيمان رهيب

من المستحيل أن نفهم تاريخ إسبانيا في القرن السادس عشر مالم ندرك كثافة وعمق الشعور الديني الأسباني ••

كان الدين مسيطرًا على الحياة القومية لدرجة التعصب ، وسادت هذه الروح في ديوان التفتيش بأحكامه الوحشية ، وفي الشعب من الملك إلى آخره وقاطع طريق •

ولم يكن عدد الأديرة في القرن السادس عشر يقل عن تسعة آلاف دير يعيش بين جدرانها اثنان وثلاثون ألفًا من الرهبان الفرانسييسكان والدومينيكان فضلًا عن أن عدد اليسوعيين كان في ازدياد مضطرب • وكانت المواكب الدينية واحتفالات إحراق الأحياء التي تصحب إصدار الحكم بالموت حرقًا من قبل محكمة التفتيش على المتهمين بالهرطقة وما يتبع ذلك من تنفيذ الحكم من جانب السلطات الدينية ، أحد مظاهر هذا الإيمان الأسباني القاسي •

- ٤ -

### الملك حاكمًا مطلقًا

كان فيليب الثاني ، وهو حفيد جان المجنونة ، وابن شارل الخامس ، يعتبر نفسه أقوى ملك على الأرض فقد كان يحكم نصف العالم كحاكم بأمرة



دون الاعتماد على أعوانه أو مستشاريه ، وحتى المجالس الاقليمية كان يتجاهلها ، ويعمل على هواه مهتما بكل التفاصيل . . . فهو الذى يدير بنفسه شئون البلاد ، ويراجع ما تم من الأشغال العامة ، ويقوم بتقنين القوانين . . . لذلك كانت الأداة البيروقراطية تسير فى ثقاقل وبطء . فالملك فيليب الثانى الحذر كان دعوبا على العمل لا يكل ولا يمل . . . ولكنه كان بعيدا عن هذا الاضطراب والقلق الخارجى ، فهو يعيش وسط القصر فى عزلة متمسكا بالرسميات كتجسيم لقوة سلطانه الملكى . كانت عيناه محمرتين ، كما يقول الناس ، من كثرة العمل لساعة متأخرة من الليل ، واحدودب ظهره من طول انحنائه وهو يواصل الكتابة ، والتوت أصابعه من داء المفاصل ، وتغير لون شعره الضارب الى الحمرة فأصبح رماديا ، كما رق عوده وخف . . . وهو مع ذلك يأخذ نفسه أخذا شديدا بلا هواة ، متكبا على العمل . وهو من دون حكام البلاد المجاورة ، يبدو غيورا ساهرا وقد أخذ على عاتقه المسئولية عن كل شئ فى مملكته المترامية الأطراف . انه حاكم مطلق يستمد قوته من حقه السماوى ، ولكنه لم يكن طاغية . كان طرازا جديدا من الملوك ، نشأ على حب النظام والطاعة تجاه مسئولياته التى تجعل منه خادما للمملكة كما هو رئيسها وقائدها .

بيد أنه لا أحد يفسر الأمر بتلك الطريقة . ان رجال الجاشية يضحكون فيما بينهم عن آخر ماحدث بين مستشارى الملك . فكم هو مضحك ان يختار الملك شخصين يمقتان بعضهما ككبيرين لمستشاريه . . . فالملك يستشير أحدهما ثم يعرض اجابته كمشكلة على الآخر . وظبيعى ان تلك كانت طريقة تحمل دهاء ، وتنم عن ملك أريب ذكى ثاقب الفكر يمكنه ان يقف بسرعة على الجانبين الجيد والسيئ لأى مشروع . . . وكان ذلك بمثابة بداية لنظام الحزبين . . . وجذور للبرلمان ، ولكن رجال الجاشية كانوا يميلون لرؤية الأشياء من زاوية شخصية . وعلى أية حال فان الملك يمضى قدما متخذا قراراته بنفسه . فقيم أذن تعبته وهو يحفر للمستشارين كى يتحرشا ببعضهما ؟!

وفى تلك الأيام كان فيليب يبنى الاسكوريات . . . القصر المنيف على بعد عشرين ميلا خارج مدريد . وهو لم يكن رمزا للفخامة والابهة أو القوة أكثر مما يعكسه من صفات الرجل الذى بناه لخدمة الدين . . . فالجزء الرئيسى منه كان ديرا وكاتدرائية . وخصص جناحا واحدا للأسرة الملكية ، واختار الملك لنفسه غرفة صغيرة بسيطة يعمل فيها لا تحوى شيئا غير سرير ومضدة ومقعد .

كانت اسبانيا غنية . . . فمنذ ان استطاع ارنان كورتس ان يفتح المكسيك ( ١٥١٩ - ١٥٢٦ ) ، ومنذ ان غزا بيثارو بيرو ( ١٥٣٠ - ١٥٣٥ ) تدفق نهر لا ينضب من الذهب من الدنيا الجديدة الى اسبانيا . فآين تولى هذا الذهب ؟ لماذا تعطلت كثير من الأنوال التى تنتج لاسبانيا فخر تجارتها



من الأنسجة الصوفية الثمينة ؟ لماذا تحولت كثير من الحقول الى أراض  
بور ؟ لماذا توقفت الطواحين ومعاصر الكروم والزيتون ؟

ان خلف هذا المظهر الضخم للقوة والمنعة تكمن التوترات الداخلية  
التي كانت تسوق اسبانيا الى هاوية الافلاس رغم ثرائها \* واطل شبح  
الفقر المدقع على البلاد \*

يرجع أحد أسباب ذلك . كما سبق أن ذكرنا ، الى طرد اليهود عام  
١٤٩٢ ثم المغاربة عام ١٦٠٩ فخسرت اسبانيا أنشطتها عناصر محركات  
الصناعة الجديدة ، وأسهم رحيلهم في ازدياد أزمة الاقتصاد وتدهوره \*  
ومن ناحية أخرى تبادت اسبانيا وتطرفت فيما تشنه من حروب في كل  
أنحاء العالم \* . حيثما يشعر فيليب بتهديد للعقيدة الدينية \* فاذا ما قويت  
شوكة أتباع كالفين في بولندا فان فيليب يحس بمسئوليته الشخصية تحر  
سحقهم \* واذا ازداد نفوذ البروتستانت أو أصبحت لهم اليد العليا في  
فرنسا أو غيرها ، فان فيليب سرعان ما يدفع اليهم بأحد جيوشه \* ومن  
الواضح أن شن عدة حروب في آن واحد في الأراضي الواطئة ولومبارديا  
وبورجونديا ، وفي افريقيا ، وأمريكا ، وفي أعالي البحار انما يشكل اجهادا  
واستنزافا لخزينة الحكومة \* وكان صانعو السيوف وسروج الخيل ، من  
دون عمال اسبانيا ، هم الذين يعملون باستمرار ، ولكنهم أيضا لم يصيبهم  
ثراء \* فالذهب ، بعد أن هدأت الحال ، كان يحشو جيوب قلة من الناس  
يقبعون فوق قمم الأكوام والأكداس \* . فبدلا من عدالة التوزيع ، فان الذهب  
ظل في أيدي النبلاء ، وبعض كبار التجار ، والوسطاء والسماسرة ،  
ومضاربي البورصة \*

كان التاج غارقا في الديون \* لقد صعد فيليب الى العرش واسبانيا  
تئن تحت وطأة دين ضخم ، فحفلات تتويج والده \* . الامبراطور شارل  
الخامس بفخامتها وابهتها التي لا يصدقها العقل تكلفت من الأموال الباهظة  
مالا يحصرها العد \* وزاد فيليب الديون ثقلا بتطرفه في حروبه \* . تلك  
التي ألجته الى مواصلة الاستدانة من هنا وهناك ومن كل مكان \*  
وأصبحت ابواب البلاط حتى الخصوصية تفتح لرجال كانت توصل دونهم  
منذ سنوات قلائل \* . خليف عجيب من الألمان والفلمنكيين (شعب الفلاندر)  
والإيطاليين والبرتغاليين \* . تجار ومواطنين عاديين لا يمتنون للنبلاء  
بصلة على الإطلاق جاءوا لتقديم القروض للامبراطورية الأسبانية ، فالملك  
يحتاج الى المال ، وهم يحصلون بدورهم على الامتيازات والاحتكارات \*

الذهب يجيء وترتفع الأسعار ويزداد الأثرياء ثراء ، والفقراء فقرا ،  
والملك يسهر يوميا حتى ساعة متأخرة من الليل \*



## الحضارة الأسبانية

في مستهل القرن السادس عشر سار التقدم الفكرى جنبا الى جنب مع دلائل العظمة العسكرية .

كان حجم الحياة الجامعية فى اسبانيا كبيرا . وكانت جامعة سالامانكا التى تمتد جذورها الى أوائل القرن الثالث عشر فى نمو مضطرد . . وكان عدد طلبتها يفوق أى جامعة أوروبية أخرى فى ذلك الوقت . كما تفردت بقبولها للجنسين دون تفرقة سواء فى نوع الدراسة أو الدرجات العلمية . وقد برزت على الأقل امرأتان هما لوسيا دى مدرانو وخوانا دى كونتيراس اعتادت أن تلقيا محاضرات عامة فى الجامعة . ويقال أن غرانثيسكا لبريخا الابنة المتعلمة لأنطونيو لبريخا الذى كان يعد أعلم أهل عصره ، كانت تقوم أحيانا بالقاء محاضرات نيابة عن والدها .

وهناك جامعة باليادوليد ، وهى أقدم جامعات شبه الجزيرة ، وكانت شهرتها العالمية ترجع الى تخصصها ذى المستوى الرفيع فى الأعمال الجراحية .

ويمكننا أن نتبين مدى النمو الفكرى ، الذى كان يسير على قدم وساق ، من عدد الجامعات الجديدة التى ظهرت فى أوائل القرن السادس عشر : سيجونثا ( ١٤٧٢ ) ، ثاراجوثا ( ١٤٩١ ) ، بالانثيا ( ١٥٠٠ ) ، سانتياجو ( ١٥٠٤ ) ، اشبيلية ( ١٥١٦ ) ، غرناطة ( ١٥٢٦ ) .

أما جامعة ألكالا فقد كانت أعظم المؤسسات الجديدة والتى أسسها الكاردينال خيمينيس ( ١٥٠٨ ) وهى لم تكن جامعة فحسب بل مدينة جامعية ، خصص جزء كبير منها كبيوت للطلبة ، ولبائعى الكتب . وكانت تضم بين جدرانها بعضا من أعظم علماء أوروبا الذين رحبوا فى جماس بالمذ الكامل لفكر ومعارف عصر النهضة . وقد ازدادت أعداد طلبتها بسرعة حتى بلغت الى ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى منتصف القرن السادس عشر .

كما أن نمو النشاط الفكرى لاسبانيا يمكننا أن نتبينه من نشاط مطابعها . . وقد سجل هيبيلر مالا يقل عن ٧٢٠ كتابا طبعت فى اسبانيا فى خمس وعشرين مدينة مختلفة قبل نهاية القرن الخامس عشر . وهذا العدد من الكتب يمكننا أن نتبين حداه اذا قارناه بما طبع فى انجلترا فى نفس الفترة والذى بلغ ٣٥٨ كتابا . وهذا مؤشر عادل لنمو النشاط الفكرى المضطرد ، والذى انضم مع الثروة والقوة العسكرية لاسبانيا ليرفعها فى فترة قصيرة الى موقع السيطرة والهيمنة على أوروبا بلا منازع .

- ٦ -

## أحداث قرن ثبائلس

١٥٥٢ - ١٥٥٦

- الحرب بين فرنسا وأسبانيا

١٥٥٦

تنازل شارلكان عن العرش لصالح فيليب الثانى وكان ذلك بداية القرن الذهبى للادب والفن الأسبانيين

١٥٥٧

يستقر تجار برتغاليون فى ماكاو ، بينما يصل مبشرون الى اقليم كوانج تونج فى الصين

١٥٥٨

- تتربع الملكة اليزابيث على عرش انجلترا

- يعطى ايفان الرابع الاشارة لكى يدخل الروس الى سيبيريا

١٥٦٣

- مجمع ترانت الكنسى يخذتم أعماله اواجهة الحركة البروتستانتية

١٥٦٤

- الكرسي البابوى يصدر قائمة بالكتب المحرمة

١٥٦٧

- بدء المعركة ضد المنادين بالتحريم الوحى للبلاد الواطئة

١٥٧١

الأسطول الأسباني مع من حالفه من الدول الأوروبية يهزم الأتراك

- فى معركة ليبانتو

- الأسبان يحتلون الفلبين

١٥٧٤

الفرق الأولى من العبيد السود القادمة من إفريقيا تنزل على شواطئ أمريكا الجنوبية

١٨



١٥٨٠

اسبانيا تضم البرتغال وقد بلغت الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية  
أوج قوتها وبأسسها .  
السير فرانسيس دراك يحقق الدوران الثاني حول العالم بسفينته .

١٥٨٢

اليابان تحاول اخضاع كوريا .  
والبابا جريجورى الثالث عشر يقوم بتعديل التقويم القديم ( وهو  
تقويم جوليان الذى أدخله يوايرس قيصر فى عام ٤٦ ق.م ) .

١٥٨٤

السير والتر رالى يؤسس فرجينيا . أول مستعمرة انجليزية فى  
أمريكا الشمالية .

١٥٨٨

هزيمة الأرمادا . الأسطول الأسباني الذى لا يقهر .

١٥٨٩

هنرى الرابع يصبح ملكا على فرنسا .  
جاليليو يضع قوانينه عن البندول ، وسقوط الأجسام .

١٥٩٨

مرسوم نانت الذى أصدره هنرى الرابع ملك فرنسا ويمقتضاه بمسح  
البروتستانت حرية العقيدة والعبادة .

١٦٠٠

تأسيس شركة الهند الشرقية فى لندن .  
جيمس الأول يخلف إليزابيث على عرش إنجلترا .

١٦٠٩ - ١٦١٠

كبلر يكتشف قوانين حركة الكواكب ويصنع منظارا فلكيا .

١٦١٠

لويس الثالث عشر يخلف هنرى الرابع ويعهد بإدارة الدولة  
للكاردينال دى ريشيليو .

وفى اسبانيا تستمر هجرة المغاربة الجماعية .

١٦١٠ - ١٦١٧

تبدأ فرنسا وإنجلترا في إقامة مكتبات كبيرة قومية • ولائراء دار الكتب الملكية بباريس ( دار الكتب القومية حاليا ) أجبر الناشرون على تقديم نسخة أو نسختين من كل مؤلف مطبوع •

١٦١٣

• ميخائيل رومانوف يصبح قيصر روسيا

١٦١٥

• ولیم هارفي يكتشف الدورة الدموية

١٦١٨ - ١٦٤٨

حرب الثلاثين عاما التي نشبت معاركها في أوروبا بسبب انقسام المسيحية فيها الى المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي •

١٦٢٤

• بدء تشييد قصر فرساي الشهير بالقرب من باريس

١٦٢٥

• شارل الأول يخلف جيمس الأول على عرش إنجلترا

١٦٢٦

الهولنديون يؤسسون في أمريكا الشمالية نيويورك المستقبل والتي كانت تدعى وقتئذ أمستردام الجديدة •

١٦٣٣

محكمة التفتيش تجبر جاليليو على رفض نظرية كوبرنيكوس المبذرة على النظريات الرياضية وهي أن الشمس مركز النظام الشمسي وتدور حولها الكواكب السيارة على أبعاد مختلفة ، وأن هذه الكواكب تدور حول محاورها •

١٦٣٥

• تأسيس الأكاديمية الفرنسية في باريس

١٦٤٣

• مازارين يخلف ريشيليو على رأس الدولة الفرنسية

٢٠



١٦٤٢ - ١٦٤٩

• الحرب الأهلية في إنجلترا

١٦٤٣

• لويس الرابع عشر يصعد الى العرش في فرنسا

١٦٤٩

• اعدام شارل الأول في لندن وسقوط الملكية ، وعلان الجمهورية

## الفصل الثانى

### حياة ميكل دى تربانتس المغامر كأنموذج لبطل روايته دون كيخوتى

— ١ —

حياة القشرد والتجوال فى سلالة دون كيخوتى

او

دون كيخوتى ايننا عن اب

نحن الآن فى عام ثلاثة وستمائة بعد الألف . وماهو ذا بطلنا دون ميكل دى تربانتس الذى بلغ السادسة والخمسين يجلس هادئاً فى زنزانة ضيقة فى أحد سجون مدريد ، وقد وخط الشيب شعره ، ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل . وسوف نعرف السبب فيما بعد . . . وهو ينتظر اللحظة التى تكتشف فيها السلطات براءته . انه الآن منهمك فى تأليف كتاب .

تتوالى الأيام ودون ميكل منحن فوق المنضدة الكسـيـحة ، وقلمه المصنوع من ريشة طير يصدر صريراً عذيفاً فوق الأوراق . . . وما أعرب ما يكتب ! .

هناك اجماع على على أن بطل الرواية يكون شاباً فتياً وسيماً ، بيد أن البطل الذى أبدعه دون ميكل كان رجلاً وخط الشيب شعره . ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل كالمؤلف نفسه . ليس هذا فحسب ، بل جعل عقله يتشوش أيضاً : « سيد ريفى اتغمس فى قراءة كتب القروسية حتى اهتل عقله فى النهاية من طيلة السهر وكثرة القراءة » . وقد أثار الرجل الذى أبدعه ميكل الدهشة فيما بعد — « رجل مجنون تملكته أعرب فكرة فى العالم ، فقد ارتدى سروعه ، وغادر مزرعته ممتطياً صهوة جواده ليحقق عملياً ما قرأه فى الكتب » .



واعتقد الرجل المسكين أنه حالما ينطلق كفارس جوال فإنه سوف يقابل المردة والسحرة والعذاري اللاتي أهدت بهن المحن . ولما كان مقتنعا بما رسخ في اعتقاده ، لم يأبه بأقوال عقلاء القوم الذين بينوا له أن المردة ماهم الا طواحين الهواء ، والعذاري لسن في حاجة الى الفوثن والنجدة والانقاذ . ووجد في السحر والسحرة تفسيراً للأحداث التي يحار فيها .

.. ويخفت الضوء تدريجياً في زنزانته ، ولم يعد في وسعه أن يكتب في الظلمة . ترى من أين جاء هذا الفارس غير المعقول ليصول ويجول في روايته . . هذا الدون كيخوتي الذي يمتطي صهوة جواده الهزيل ، ويصر غير آبه بأي منطق ، أن العالم هو كما يريد أن يكون . هل هو شخصية لا وجود لها الا في خيال دون ميغل ، ولدت بعد مخاض اليم امتد عبر شهور طويلة من الوحدة والغربة المرحشة متجولا فوق صهوة جواده قبل أن يزعج به في غياهب السجن ؟ أم تراه قد صادفه دون كيخوتي وعرفه في الحياة الواقعية في مكان ما ؟ هذا ما سسناقشه الكتاب في ثنايا البابين الأول والثاني .

أطبق الظلام على السجن وجثم داخل الزنزانة ثقيلًا مرهقا ، وما هو ذا ميغل دي ثريانتس يبتعد عن ناظرينا . . ودعونا الآن نقلب صفحات التاريخ الى الوراء . . الى عام ١٥٤٧ الذي رأيت فيه عيناه النور .

ظل المكان الذي ولد فيه ميغل مجهولا ، ولم يشغل ذلك بال أحد . . ففي القرن السادس عشر لم يكن الناس يهتمون بمثل هذه التوافه . . بيد أنه عندما طبقت شهرة ميغل دي ثريانتس الآفاق ، وأصبح فخرا لأمة تباهى به الأمم ، تسابقت كثير من المدن . . كل منها تدعى أنه من أبنائها . . وقد قوبلت هذه الادعاءات بالرفض لأنها لم تكن تقف على أساس صلب . الى أن تصادف منذ مايزيد عن قرن من الزمان أن عثر أحدهم ، عندما كان يقوم بأعمال الحفر ، على سجل كنيسة القديسة مريم الكبرى في بلدة صغيرة هي ألكالا دي اينارس ، التي تبعد حوالي ٢٠ ميلا شرق مدريد ، وكان مدونا به أنه في التاسع من أكتوبر عام ١٥٤٧ عمده طفل يدعى ميغل وهو الابن الرابع لدون رودريجو دي ثريانتس سابيرا وزوجته ليونور . ولم يكن يوم الميلاد مثبتا ، ولكن ذلك حسم قضية منبت رأس ميغل . كان أكبر اخوته هو رودريجو ، على اسم والده ، قد بلغ السابعة من عمره عندما ولد ميغل . ثم رزق والداه بعد رودريجو بابنتين هما أندريا وكانت في الخامسة ، ثم ماجدالينا وكانت في الثانية من عمرها عند مجيء ميغل الى الدنيا .

كان دون رودريجو ، والد ميغل ، رجلا نبيلًا . ولقب دون في الأسبانية يعنى سيد . ورغم أنه كان يحمل سيفاً للدلالة على منزلته ، ويتدثر برداء النبلاء ، الا أنه كان فقيرا . ومن المفروض أن النبيل يعيش من دخل ممتلكاته ولا يلوث يديه بالعمل . وإذا لم يكن لديه رغبة في أن يركن الى الخمول ، فإن الكنيسة أو الملك يتيحان له فرصة خدمتهما .

ولسوء حظ رودريجو لم يكن لديه ممتلكات تدر عليه دخلا . وعندما رزق بابنه الرابع ميجل كان يحمل وجه رجل أثقله الهم . . يلوح عليه القلق والانزعاج ، وأصبح رجلا تسهل أثارته ، كما كان خشنا عنيفا في بعض الأحيان .

أطلق على نفسه لقب دكتور ، ولكن ذلك كان يحتاج الى مؤهلات . وعندما كان شابا واطب على الاستماع الى كثير من المحاضرات الطبية ، غير أن ضيق ذات يده ، وعدم دفعه رسوم الدراسة اضطره الى الانقطاع عنها . واستمر الرجل يدرس بنفسه ، ولكنه لم يحصل على دبلوم حقيقي في الطب .

مضت عدة أعوام هباء ، قرر بعدها دون رودريجو الإقامة في الكالا دي اينارس . كانت مدينة ذات ضجيج وعجيج ، والأعمال فيها رائجة . . وهذا ما جذبه اليها . أما جامعة الكالا التي لم يمض على انشائها سوى خمسون عاما ، كانت رغم ذلك تنافس جامعة سالامانكا القديمة في علمها وعدد طلابها الذين بلغ عدد من سجلوا أسماءهم بها في أحد السنوات ستة آلاف . . هذا غير أولئك الذين يحشرون أنفسهم في قاعة المحاضرات دون أن يدفعوا شيئا . وقد رأى دون رودريجو في شوارع الكالا كل صنوف البشر من ذوي الحيثية والجاه : الأحرار ورؤساء الدين ، وكبار الكهنة ، وأبناء الدوقات النبلاء . وبجاذب ذلك كانت المدينة تعج بجموع من رقيق الحال الذين يتشددون الفوز بنقود سريعة من طلاب الجامعة الذين ينفقون بسخاء وتبذير .

كان دون رودريجو على ثقة بأنه سيظفر هنا بربح وفير . ولكن واأسفاه ، لم تكن المدينة في حاجة الى مزيد من الأطباء الجدد ، ولا سيما أن بها كلية طب لها وزنها ، وكبار أساتذة الطب متوفرون فيها . وقد يلجأ اليه بعضهم في عمليات فصد الدم ، ولكن في الحالات الخطيرة فإن ذكره لن يخطر ببال أحد من أثرياء المدينة . وأصبح مرضاه ضمن فقراء الطلبة والتجار الذين لم يكن أهمهم سواه .

كانت صدمة لدون رودريجو وزوجته ، وعانى من قلة العائد في حين أنه كان طبيبا حاذقا رغم أنه لا يحمل مؤهلا . . فقد كان يحب مهنته ، ويعلم كثيرا من أسرارها في وقت كانت فيه المعلومات الطبية الحقيقية ضحلة قليلة الغور .

ابتأست دونيا ( ومعناها في الأسبانية سيدة ولكنها لا تترجم ) ليونور زوجته ، لا لأن زوجها لا يعالج الا الفقراء ، ولكن لأنه كان يزاول هذا العمل رغم أنه من النبلاء الذين يستنكفون كسب قوتهم بالعمل . ولكن ماذا تفعل أمام الأقواء الجائعة في الأسرة . . لقد بذلت ما في وسعها لاختفاء الأمر . وحتى يدخل دون رودريجو السرور على قلب زوجته ، كان يخاطر



بيته كل يوم متخفيا وقد تدثر بزى النبلاء الأسود ، مغطيا رأسه بقبعة ، وملتفا بعباءة ، ومتمنطقا بسيف وهو يدق الأرض بقدميه شأن كل رجل نبيل . وكان لابد من تابع يسير وراءه حاملا ما يحتاج اليه . فصار خلفه رجل مهلهل الثياب حافى القدمين يحمل له حقيبته وأحيانا بعض الكتب . وما ان يقطع الشارع ويستدير بعيدا عن نظر زوجته حتى يعود الى طبيعته متخفيا من قيود النبالة حتى يبلغ شاطئ النهر حيث ينتظره مرضاه في أكواخهم وكهوفهم . كان دون رودريجو يبذل ما في طاقته لانقاذ مرضاه . ومن النادر أن يكون معهم بقود ليدفعوا له ، وكثيرا ما كانوا يعطونه قطعة من الجبن أو دجاجة ميتة مقابل أتعابه فيتشهد مناولا اياها لتابعه العارى القدمين ليحملها له . ثم يهرول الى الكوخ التالي .

وفي نفس الوقت كانت دونيا ليونور تكافح في البيت باذلة أقصى جهدها لانهيئض بأعبائها ، وجعل المنزل له مظهره المحترم رغم ضيق ذات يدها . انها أصغر من دون رودريجو بكثير ، وهى الأخرى سلبية أسرة نبيلة ، ولم تكن تعاونها سوى فتاة صغيرة . ان مهمة زبة المنزل في تلك الأيام لم تكن سهلة ، فكل شئ يتم داخل البيوت لقلة ما كان يباع جاهزا في ذلك الوقت . ان السيدة النبيلة دونيا ليونور تصحو مع أول خيوط الفجر ، وتستمر تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . فهى تطهو الطعام ، وتصنع الجعة ، وتقعد اللحم بالتدخين ، وتصنع الشموع وأوراق اللعب ، وتغزل وتنسج ، وتحيك الملابس وترتقها . وهى ترعى أربعة أطفال ، وأصبح ميغل يعرف كيف يعنى بمظهره .

كان أمرا طبيعيا أن دونيا ليونور عندما تخرج لحضور القداس في الصباح المبكر ، أن تضع لثاما على وجهها ، وتتدثر بالسواد شأنها شأن الملكة ، وذلك حتى تبدو بمظهر دونيا ليونور دى ثريانتس . السيدة النبيلة . وكان الناس يرونها كما ترى نفسها ، ولم يكن أحد يعلم فيما عدا القس ، حفيقة الحياة التى تحياها .

وهكذا نجد الصبيغير ميغل قد عاش منذ طفولته في عالم كانت الحقيقة فيه ذات وجهين . كانت هناك حقيقة والدته وهى في المطبخ تطعمه وتضحك معه اذا لم يكن التعب قد برح بها . ثم كانت حقيقة والدته وهى فى قاعة الاستقبال تشير له بيدها لتطرده خارجا كما لو كانت لا تعرفه . وعندما نما قليلا كان أحيانا يصحب والده فلا يراه صامتا أو مقاطعا ومعارضيا عندما يتحدث مع مرضاه ، بل يشاهده عطوفا رقيقا يؤدي عمله فى سرعة وحذق . ثم يتبدل الحال عندما يغادر دون رودريجو المرضى ويقتررب من منزله . فيرى ميغل ملامح الغضب والقلق تعود لوجه والده وحتى وهو يسير شامخ الأنف بخطوات النبلاء .

ثم رزق والداه بشقيق جديد له يدعى خوان . وقد رأى دون رودريجو أن خمسة أطفال تستلزم الانتقال الى قطاع من المدينة أقل تكلفة . ففى حى



فقير يسير في كل مكان قناعه وأصبح طبيباً من الخبيران فيزيدي دخله . ولكنه  
قول: بغارضة زوجته . لا يستطيعون العيش . وسقط الأوقاد  
ليكون من هب وسب في المدينة شاهداً على شيوخهم . وتضعض  
حناهم .  
مررت الأيام والشهور ، صمم بعدها دون رودريجو على وضع حد  
لتلك الحياة المملوءة ادعاء وتفاكراً . وقرر في هذه المرة أن يغادر الكالا  
كلية ، وأن يبيع المنزل . والأثاث ليسد ديونه . وأن ينتقلوا إلى مكان آخر  
ليبدأوا حياة جديدة .

أمسكت دونيا ليونور دموعها بعد أن أحسبت أن ذرفها لن يجديها  
شيئاً وهي ترى عزم زوجها الأكيد . لم يكن دون رودريجو يعلم أي نوع  
من المستقبل كان ينتظره . شيئاً واحداً كان يعرفه . أن هذه الحياة في  
الكالا مستحيلة . وعليه أن يجد طريقة أفضل للقيم أو أن يسرقه .

وسرعان ما بيع المنزل والأثاث ، وأعتلى ميجل وسائر أفراد الأسرة  
غربة كبيرة وقد علت الدهشة وجوههم . لم يخلوا معهم سوى القليل من  
المتاع . وانطلقوا يجدون في البحث عن حياة جديدة .

مضى خمسون عاماً عندما أصبح الصغير ميجل ذا لحية رمادية  
يجلس خلف القضبان يدون كتاباً كان فيكته الرئيسي يدور حول مغامرات  
رجل بعد أن غادر بيته دون أن يلوي على شيء . وبلا هدف في رايه اللهم  
الا جوض مغامرة من مغامرات الفروسية .

اننا لن نتعجل النتائج . . . ولكننا نرى أن دون ميجل عندما كتب دون  
كيفوتي كانت لديه أسباب ليرسل ذلك السيد خارج بيته إلى الطريق . .  
فهناك جزء لا يتفصل ولا يتجزأ من دون ميجل وهو يجلس داخل السجن  
في مدريد يكتب . . . كان من ذكريات السنوات العشر العجيبه التي بدأت  
وهو في سن السابعة عندما خرجت أسرة قربانفس كلها تهيم على وجهها .  
وهي تتجول قائمه شاردة في أسانبا .

فيها من فكرة خيالية لرجل له زوجة وخمسة أطفال . . . فدهن  
رودريجو كان طبيباً . والأطباء يحتاجهم الناس في كل مكان . . . فما الذي  
يمنعه من أن يكون طبيباً رجالة يقطع الفيافي والقفار متنقلاً من مدينة إلى  
أخرى لمعالجة كل من يحتاج إلى خدماته في أية بقعة من الأرض في جوف  
الليل أو في رابعة النهار . . . إن هذا يعني أن الرجل أصبح لا يجد غضاضة  
في أن يفعل أي شيء . . . من بيع الأراضي الدوا . . . واقتلاع الأسقان . . . وتوليد  
النساء . . . ولأمانع أيضاً من توليد الأبقار في بعض الأحيان . . . وعليه أن



يلقى بعضا الترحال في ميدان السوق بالبلدة جنبا الى جنب مع الغجر وقارئ الطالع والعرائن فينصب خيمته أمام التجمعات والحشود .

حط دون رودريجو رحاله حيث أقرب مهرجان . . ففي تلك الأيام كان لكل مدينة مهرجان سنوي يستمر أسبوعا احتفالا بعيد قديس من القديسين . . ان الفلاحين يقطعون أميالا عديدة قاصدين هذا المهرجان الذي ينشد اليه أيضا التجار والباعة المتجولين من البلدان الأخرى ، والحجاج والغجر والجنود والمسافرين عبر الطريق طالما كان معهم ما يبيعونه . وبالتالي فمثل هذا المهرجان يجذب اليه من يبتغون الشراء ، أو أولئك الذين بنشودون مجرد اللهو والتسلية . وكان هذا اذن مكان مفضل لطبيب رحالة لينصب خيمته .

ولاريب ان هذا المكان خلاب لب أطفال ثريانتس الأربعة عندما هبطوا من عربتهم لأول مرة ليجدوا أنفسهم وسط مزيد من الألوان والاثارة لم يعرفوا لها مثيلا في حياتهم من قبل . عالم عجيب . . مدينة كبيرة من الخيام والمنشآت اقيمت حول البلدة . . أكواخ البضائع . . وعروض مسرحيات العرائس ، وأخرى لمسرحيات دينية مستمدة من الكتاب المقدس . . هذا غير الحبال المشدودة التي يرقص فوقها البهلوانات . مشاهد ستعنى الكثير بالنسبة لميجل في مستقبل حياته من جهة حبه للمسرح .

وفي الصباح التالي أقام الوالد قاعدة وسط هذا الهرج والمرج وتلك الجلبة ووضع فوقها منضدة بجواره تحمل الأقراص والمراهم وكل ما يثبت أنه طبيب .

بدأ الناس يتوافدون على الطبيب ، فيعطى بعضهم أقراصا ، بينما يصف للبعض الآخر علاجا مغائرا ، وأخبر قليلا من الذين فحصهم بكل أمانة أنهم ليسوا في الواقع مرضى ، وأنه لا يلزمهم سوى يوم أو أكثر من الراحة . وسرعان ما ذاع صيته كطبيب جدير بكل ثقة .

وعندما أرخى الليل سدوله عاد دون رودريجو بمحفظته مقلقة بالانقضاء التي لم تكن تخلو من بعض العملات الذهبية . كان سعيدا وبدأ يخطط للمستقبل . . فعندما يتجمع لديه مايكفيه من المال سيشتري حصانا وعربة فيتنقلون بها من مدينة الى أخرى ، ومن مهرجان الى آخر . وتستطيع الأسرة أن تنام داخل العربة بينما يقيم هو قاعدة عمله خلفها ، وفي هذا اقتصاص في التكاليف . . وإذا ما واثاه الحظ كالיום فربما استطاع شراء عربة في نهاية الأسبوع عندما ينفض المهرجان .

وما جاء آخر الأسبوع حتى تحققت آمال دون رودريجو ناشتري عربة كبيرة وحصانا فويا جمبلا . انفض المهرجان ومضت العربة بالأسرة ثريانتس في الطريق الى مهرجان جديد بمدينة أخرى .

وهكذا بدأت حياة التجوال الجديدة التي أصبح لها طابع خاص عجيب • ويبدو أن دونيا ليونور استطاعت بتدبير شئون البيت داخل عربة، أن تتخفف من التظاهر والتفاخر بما ليس عندها • أنها الآن في الخلاء تطهو طعام الأسرة ، وترعى الرضيع ، وتنهر الأطفال الكبار ، وبدأت ترى الحياة كما لم ترها من قبل • شاهدت الناس سعداء ومحزونين ، ومثقلين بالعمل ومع ذلك ينشدون اللهو • ثم وجدت نفسها تحصل على مركز محترم كزوجة لطبيب وأم لخمس أبناء ، وأقبلت عليها النساء يسألنها النصيح والارشاد • وهناك نقطة واحدة وقفت عندها موقفا صلبا لا يلين • لا يصح أن تتجول بناتها خلال المهرجان كما تفعل بنات مرتادي ذلك المهرجان • يجب أن تربي بناتها وتثقفها لتصبحا سيدتين ، وأن تحميها من العالم الخارجي ، ولم تكن عينها تغفل لحظة واحدة عنهما • ولكنهما لم تلبثا أن صارتا عبئا ثقيلا • فقد بدأت الفتاتان تتبرمان ، وأحيانا تنخرطان في البكاء أو تجلسان متجهمتين عابستين ، وترفضان أن تمدا يد المساعدة إلى أمهما • وما أن مرت بضعة أسابيع حتى وصلت دونيا ليونور إلى قرار • فعندما قدمت أسرة ثريانثس إلى مدينة يوجد على مقربة منها دير للراهبات ، ذهبت دونيا ليونور بآندريا ومجدالينا إلى رئيسة الدير لتكونا تحت رعايتها حتى تجدا التربية والثقافة والتعليم لشابنتين مثلهما • وودعتهما إلى حين تجد الأسرة بيتا ثابتا مرة أخرى • وعادت إلى زوجها، وإلى العربة ، وإلى الأبناء الثلاثة الباقين – وإلى الحياة الجديدة الغريبة القلقة •

ونادرا ما كانت أسرة ثريانثس تمكث أكثر من أسبوعين في مكان واحد ، واستمرت في التنقل والترحال في طرق وعرة زاد من خطورتها اللصوص وقطاع الطرق • الأمر الذي أدى بالعربات أن تسير معا مكونة قوافل كبرى • وانضم إلى هذه القوافل كثير من عابري السبيل والقساوسة والحجاج والرحالة والتجار ، ينشدون الأمن والحماية • وجد الصغير أن رودريجو وميجل في القافلة التي انضمت إليها أسرة ثريانثس شيئا مثيرا مثلما كانت المهرجانات والكرنفالات بالنسبة إليهما •

كان بعض المسافرين في القافلة يمتطون صهوات الجياد ، والبعض يجلسون في محفة معلقة بين جوادين ، وقلة منهم يركبون عربات فاخرة • وتمضى القافلة التي تشبه تطارا طويلا في الطرق الجبلية الملتوية ، وتارة تهبط إلى الوديان العميقة ذات الجو البارد ، وتارة تصعد إلى قمم السلاسل الجبلية تحت وهج الشمس • ولم يكن هناك مجال للتوقف ، ولا تستطيع العربات أن تتجاوز سرعة خطوات المشاة •

وهكذا رحلوا خلال المقاطعات الأسبانية • قشتالة • أكستريمادورا • ليون • بالنثيا حتى الأندلس جنوبا • وفي الطريق كانوا يمرون بقلع عجيب • ولاشك أن رودريجو وميجل اللذان كانا يسيرا أحيانا بجوار



العربة ليخففا الحمل عن الحصان ، يحملقان صوب الأسوار والأبراج في دهمشة من الحياة التي يعيشها أولئك الذين يقطنون خلفها . وكم اخترقت القافلة سهولا لا نهاية لها ترعى فيها الماشية ، ومروا من فوق السدود والجسور ، وهبطوا الى الينابيع في الوديان . لوحت الشمس والرياح والأتربة وجهى رودريجو وميجل . وإذا جن الليل يتدثران بالأغطية الصوفية وينامان . وكثيرا ما كان الطعام لا يتعدى الخبز اليابس والتين المجفف ، والمياه المحفوظة في قرب من جلود الماعز التي اختلط مذاقها برائحة الأسطبل . وكان اليوم السعيد . هو الذي تتوقف فيه القافلة عند أحد الأنهار للاستحمام وغسل الملابس .

أتاحت فترات التوقف في الطريق الفرصة للشقيقين رودريجو وميجل كي يقتربا من العربات ، ويتعرفا بغيرهما من المسافرين ، وتوجيه شتى الأسئلة اليهم . كانت فرصة قلما وجود بها الزمن للتعرف على كل صنوف ونماذج البشر من أعلى الطبقات الى أدناها . فكل الذين يسافرون مع القافلة يجمعهم دفء الزمالة في أثناء الطريق حيث تتلاشى الفروق بين الطبقات ، غير أن هذه الزمالة كانت تنتهي عندما تصل الرحلة الى نهايتها .

وقد تحدث ميجل ، ووجه أسئلته لرجال الدين والفلاحين والتجار والرعاة والعظماء والضباط مكوّنا صورته عن العالم بما سمعه عن حياتهم . لم يكن رودريجو يابه لهذه المحادثات وهذا الحوار مالم يكونا يتحدثان الى جندي فكان يرهف سمعه وتبرق عينيه عندئذ ويسرع بأسئلته ملاحقا ميجل . فتلك هي الحياة التي تناسبه كما كان يقول ذلك كثيرا . . . قذاك شيء له وزنه - مقاتلة المغاربة كجندي من جنود الملك . وكان ميجل يميل الى الموافقة على ذلك . . . ان رجل الدين يخدم الله ، ولكن الجندي يخدم الله والملك . الجندي شجاع في مجابهة المخاوف والمصاعب . . . الجندي رجل يعرف النظام والانضباط .

كان رجال الدين من المسافرين مع القافلة لديهم شيء خاص ليقدموه لميجل . . . فمعهم أكثر من غيرهم مفاتيح دنيا التعلم . . . وسرعان ما استطاع ميجل أن يتعلم القراءة والكتابة فكان يقرأ كل ما يعثر عليه ، وكانت أية قصاصة من ورقة مطبوعة بمثابة كنز يظفر به .

توالى الشهور ، وكانت الحياة في الطريق مفعمة بالاثارة والمغامرات بينما كانت المهرجانات متمائلة متشابهة . وكان على رودريجو وميجل مساعدة والدهما . ان رودريجو يقوم بالدور الأكبر فهو يخطو صوب الرجولة الآن ان بلغ الخامسة عشر ثم السادسة عشر فالسابعة عشر . . . ولكن ميجل لم يكن خاملا . ان المرضى لا يستطيعون جميعا القدوم الى الطبيب فبعضهم كان طريق القرّاش ، وأصبح على ميجل أن يوزع الدواء وغير ذلك من المهام ، شاقا طريقه وسط هذا الحشد الهائل من الخيام

والنصب المتشابهة ، يعاونه جسده النحيل في أن يدفع نفسه وسنط هذه  
الكتل المتراسة من البشر ؛ وكانت الأم أيضا تنادي ميكل ليرعى شقيقه  
خوان وأخته الطفلة التي ولدت في أثناء الطريق .

هاهي ذي الشهور والأعوام تمضي وعربة أسيرة ثريانتس تذرع  
طرقات أسبانيا . لقد نما ميكل واشتد عوده وطالت قامته . وأتيحت له  
حتى الآن رؤية كثير من المدن ، فقد ذهب الى ثاراجوثا ، آبيلا ، كاثيريس ،  
بورجوس ، بالنثيا ، مالاجا ، أشبيلية وسائر المدن الكبرى .

وفي العام الذي بلغ فيه ميكل الثانية عشرة من عمره ، أصيبت أسيرة  
ثريانتس بضربتين قاصمتين غيرت جو رحلاتهم وأسفارهم برمته . جاءت  
الضربة الأولى عندما مرض الأخ الأصغر والشقيقة الصغرى . وقد بذل  
دون رودريجو كل مهارته كطبيب في علاجهما ، وسهرت دونيا ليونور أثناء  
الليل وأطراف النهار بجوار فراشهما داخل العربة . وذهب كل ذلك الطب  
والتمريض أدراج الرياح . إذ حم القضاء وفارق الصغيران واحدا اثر  
الآخر تلك الحياة الخشنة الملوثة بالضجيج . وشاهدت دونيا ليونور  
فلذتي تبدما يواران الثرى في المقبرة الصغيرة بالمدينة التي تصادف  
وجودهم بها في ذلك الوقت . ثم عادت لتجلس في صمت وقد جفت الدموع  
في مآقيها .

أثت الضربة الثانية بعد بضعة أشهر ، فبينما كان الأربعة في رحلاتهم  
فر رودريجو على حين غرة ، وهجر أسرته . لم يدهش ميكل كثيرا عندما  
عثر والداه على الرسالة التي تركها رودريجو ، فقد كان يعلم أن أخاه في  
السنة الأخيرة برح به القلق الذي كان يتزايد يوما بعد يوم . فرودريجو  
نما وأصبح الآن رجلا ، وحياة القافلة لا تقدم له الا القليل . ان المساعدة  
التي كان يقدمها لوالده لم تكن لترضى رجلا قويا طموحا مثله . وميكل  
يستطيع أن يضطلع بدوره في سهولة ويسر . ولطالما تاق رودريجو الى  
الحياة العسكرية . وهكذا اختفى ذات يوم ليقيد نفسه في سجل المتطوعين  
للخدمة العسكرية تاركا رسالة يودع فيها أسرته .

لم يلم ميكل أخاه رودريجو ، والتمس له العذر فقد خلق للجيش ،  
وأصبح ميكل الطفل الوحيد في العربة ، وحاول أن يقنع نفسه بأنه يعيش  
أيضا حياة عسكرية . . . فالقافلة في غدوها ورواحها وتوقفها لها نظمها  
وأوامرها الشبيهة بالنظم والأوامر العسكرية . كان رحىلا وسيرا لا ينتهى  
يوما وراء يوم . . . والعربة تملعت طوال تلك السنين نصف طرقات أسبانيا  
المتربة . وسار ميكل مشية جندى ، وكان عليه أن يتحمل أى طقس ، وأن  
يقنع بما يصديه من طعام جيد أو هزيل ، كما كانت مباحج الحياة وما يؤديه  
من واجبات تمتزج بطريقة عشوائية . وكان ميكل يتعلم أيضا في مدرسة  
الحياة . . . فالطريق بمثابة الجامعة بالنسبة اليه . وهاهوذا يتعلم اللاتينية  
من الرهبان والقساوسة الذين كان يتحدث معهم في أثناء السير ، كما ألم



يقليل من الرياضيات • وتعلم من بعض المسافرين كيف يعرف الوقت ليلاً من أوضاع النجوم • وقد أعادوه كتباً مؤلفين من الأغريق ، وكانت في ذلك الوقت من المؤلفات الممنوعة • كما قرأ أيضاً بعضاً من فلسفة أرسطو التي كانت مباحة ، وبذل جهداً كبيراً وهو يقرأ كتابات القديس توما الأكويني •

أمعن ميغل النظر ، وفكر فيما قرأه ، وراح يسأل الرهبان والقساوسة الذين أعاروه كتبهم ، ويستوضحونهم الرأي في كثير من الموضوعات ، ومن ثم كان يصاول في جملة أن يكون رأيه الخاص .

رأى ميغل الكثير في نصيبه من التواضع والوخشية ، اليأس والموت . ولكنه رأى أيضا كثيرا من الحب والسرور والابتهاج ، الحنان والضحك . وظل يرحل لوعدت تطويل حتى بدا له أن الحياة كلها عبارة عن قافلة تسير وتسير ثم تتخير وتتفرق وتشتت ولكنها على الدوام لا تلبث أن تتجدد وتتجمع مرة أخرى لتستقر ثانية . وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء ثابت اللهم إلا شكل وهيئة القافلة وفوقها السماء والتجوم . فهل كان ذلك كافيا لتكرين فلسفة للحياة ؟ هو الرهبان رءوسهم ، ولكنهم كانوا يتكلمون للصبي المتحمس الذي يقدر زناد فكره ، ويمتلك عقلا شغوف بالبحث وقلبا صادقا . لا شك أنه سيكتشف طريقة في يوم ما إلى معان أكثر عمقا .

الزمن يمضي ، وبدأ ميلج يتعب من حياة الطريق رغم الكتب والأحاديث . وحتى المهرجانات نفسها لم يكن يسحبه فيها سوى المسرحيات وعروض العرائس ، أما ماعداها فقد بدت له رخاوة وأشياء قديمة من سقط المتاع . بدأ يتعلم بسنة الأمانكا وجامعتها الكبرى هناك ، وبالكثير المصروفة فوق الأرفف بدلا من الاعتماد على ما يختاره له رفقاء السفر كل حسب مزاجه الخاص . وهو يحلم بالاستقرار في مكان واحد ، وأن يواصل الليل بالنهار ليتعلم بطريقة جديدة حقيقية في آخر الأمر .

ولما بلغ ميّجل الأسبغة عشرة من عمره ، بدأ توتّر زوتريجو بضيقه  
التعب والنصب من حياة السفر والترحال . انثنى الرجل الى النقود التي  
جمعها في السنوات العشر الأخيرة ، وأخذ يحصيها فوجد أنها حصيلة  
لاباس بها . وفاتح توتريا ليونور وأخته ، الذي أصبح رجلاً ، في القاء عصا  
الترحال والاستقرار مرة أخرى في إحدى المدن . ووقع الاختيار على مدريد  
التي انتقل إليها الملك وحاشيته ، والتي يقولون عنها أنها أصبحت أكبر من  
باليادوليد ، وأصبحت طرقها بجميعها من صوفية ، وببيوتها كبيرة ، وبشوارعها  
ممتدة ، وبها مبانى شامخة ، وبذلك يجد الطبيب فرصة كبيرة . وبذلك

وفي عام ١٥٦٩ عندما كان ميخائيل يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً  
لوت أسرة ثرياً تيسر عثمان جوادهم فاتجه بالعربة في طريق مدينته وهناك  
ودعوا حياة السفر والترحال التي عاشوها طويلاً ليصبحوا مرة أخرى  
من سكان المدن.

## ميجل في روما

مع انتقال الملك الى مدريد ، تحولت البلدة الى مدينة ، غير أن إقامة المباني لم يكن بالسرعة التي تفي بالمطلوب ، الأمر الذي جعل أسيرة ثربانتس تقطن في أحد المساكن بصفة مؤقتة انتظارا لشراء منزل خاص بهم ، رغم أنهم كانوا يملكون النقود التي تمكنهم من شرائه .

كانت المدينة محاطة بالصحراء - سهل مرتفع لا ينمو به شيء من الوجهة العملية . وهناك في الأفق البعيد صوب الشمال الشرقي تقف سلسلة واسعة من الجبال الشاهقة التي تعوق السحب المطيرة وتصددها فتجعل الجفاف يكتنف مدريد . وفي النهار تكون الرياح ساخنة ، بينما تهبط درجة الحرارة ليلا فيصبح الجو قارصا .

ياله من مكان غريب ليختاره الملك فيليب الثاني كعاصمة للكه . فيماعداء شيء واحد . فمدريد تتوسط اسبانيا تماما ، وتخترقها الطرق من أقصى أطراف الدولة الى الأطراف المقابلة لها . ويستطيع هذا الملك المتعصب الدعوب على العمل وهو جالس في مركز مملكته ، أن يناقش العنكبوت وهو يعمل منهمكا في مركز بيته الذي نسجه ، فيجذب خيطا في أي اتجاه ليسحب الى جواره من يريد . كان ميجل فتى في عصر يحكم فيه الملوك بالحق الالهي .

وأخيرا تم بناء منزل ثربانتس فانتقلت اليه الأسرة . واستفاد دون رودريجو من أخطائه القديمة في الكالا فلم يضيع وقتا في الاستيطان بين جيرانه كطبيب ، وسرعان ما اكتسب بعض الزبائن والعملاء .

ان قبول دونيا ليونور للحياة كما كانت طيلة سنوات السفر والترحال قد زایلها كما لو كان ذلك تخفيا وتذكرا . وهاهي ذي قد عادت الى ماتعتبره الآن العالم الحقيقي ، ذلك العالم الذي يعنى كل شيء بالنسبة اليها . والذي أصبحت فيه دونيا ليونور دي ثربانتس سابيرا .

وكسيدة وربة منزل مرة أخرى ، أرسلت مسرعة الى دير الراهبات ، تطلب عودة ابنتيها الى البيت ، فوصلتا بعد بضعة أسابيع قلائل .

لم يكن ميجل قد رآهما منذ عشر سنوات عندما كانت أندريا فتاة خرقاء قليلة الخبرة في الثالثة عشرة من عمرها ، بينما كانت ماجدالينا صبية في العاشرة . وهاهو ذا يقابل شقيقتيه كشابتين غريبتين احدهما في الثالثة والعشرين والآخرى في العشرين . ولطالما ود أن يجتمع شمل الأسرة .



وجد ميجل ، في الشهور الأخيرة التي قضاها مع الأسرة راحلا عبر الطريق ، فرصة للدراسة الجادة لتحسين تعليمه . وكان العيب الأكبر في مدريد عدم وجود جامعة بها . وفي أول تجواله بالمدينة عثر على جماعة من الرجال أثروا فيه أيما تأثير . لقد وجدهم في أول الأمر داخل بعض الحانات الصغيرة التي يباع فيها أنواع رخيصة من النبيذ ، أو في تلك الأماكن الصغيرة الجديدة التي وجد فيها ميجل شرابا أجنبيا غريبا . . حيث تقدم الشيكولاته بالطريقة المكسيكية بعد تخميرها وخضها حتى يعلوها الزبد والفقاعات ، وتقبل بالفلفل الذي ينثر فوقها .

افتتن ميجل بالشراب ، ولكن افتتانه كان أشد بأولئك الرجال الذين وجدهم يجاسون حول المناضد الصغيرة ساعة وراء ساعة يرشقون شراب الشيكولاتة وهم يتحدثون عن كل شيء تحت الشمس . كانوا جميعا من أصحاب العقول الراجحة . البعض من الكتاب ، والبعض من الدارسين ، والبعض الآخر ممن لهم صاغة بالمسرح ، ولكنهم جميعا كانوا متشابهين في سلوكهم ملابسهم ، كما لو كانوا كلهم أعضاء زمرة عجيبة من رجال الكهنوت أو الاكليروس أو أفراد جماعة سرية من الأخوة . أن ملابسهم متواضعة بل رثة بالية ، إلا أنهم يرتدون عباءاتهم وأغطية رؤوسهم بميل معين لا يخطيء ملاحظته أحد . وقد لاحظ البعض منهم عادات الرهبان ليتخذوا سمعة الرجال المتعمقين في العلم . وعزوا جميعا بتشذيب لحاهم ، واستعمال أيديهم في إشارات وإيماءات تنطق بالفصاحة والبلاغة .

ظل ميجل يرافبهم ورويدا رويدا تعرف إليهم ، ولاحظ أن معظمهم كانت تعالوه القذارة رغم سلوكهم وآدابهم الاجتماعية . ولكنه لم يهتم لذلك طالما قبلوه وجعلوه يشاركونهم أحاديثهم وحكماتهم .

وهو لم يكن في الواقع بحاجة إلى قبولهم له . . فهو لاء العقلاء وذوى العقول الراجحة من أبناء مدريد ، الذين كانوا يتخيلون أنفسهم المحور الرئيسي والعمود الفقري للثقافة الأوروبية ، قد حل بهم التعب والارهاق المميت من طول رفع عقيرتهم بالصياح وهم يرددون نفس الآراء والازدراء لما عداهم . وكانت تعقيدات وشروح ميجل وتفسيراته فيما بعد ترجع إلى تلك الأفكار الأولى الجديدة لهذه الجماعة ، والتي كان لها تأثيرها في تكوين ميجل في شبابه . لقد استعرضوا علمهم أمامه وشجعوه كي يقتفى أثرهم ، وأنبرى كتاب المسرح منهم يقرأون له مسرحياتهم التي كانت أفعالا بهرته وأثرت فيه . وقد حثه الشعراء منهم ليحاول الانتاج في ميدان الشعر ، وأثثوا على مجهوداته فيه .

كان ذلك شيئا مثيرا يتسم بالعناد والطيش والتهور والجموح ، ولكن لفترة ، إذ سرعان ما انتاب ميجل التعب من تصليب أصحاب العقول الراجحة ، وتعصب وعدم تسامح كل من ينتمي إلى جماعتهم ، الأمر الذي ثبط عزمه ، وجعله يشعر بالاحباط . إذ لم يتنازل أي رجل منهم ليصبح

صديقا حقيقيا في غير كلفة ولا تصنع . غير أن هذه الجماعة قد أدت اليه صديقا واحدا لا غير . . فقد اجبرته على ادراك مدى ضلالة ما حصله من العلم التقايري الشكلي . انه يدرك الآن أنه لا يعرف اللاتينية اللهم الا نوعا من اللاتينية الدارجة . كما أدرك أيضا أنه ليست لديه الا معرفة ضبابية مبهمه بأساطين الكلاسيكية وكتابها . ولكن كيف يحصل على العلم الذي يتوق اليه في مدينة نفتقر الى جامعة ؟ أنعم ميجل النظر وتمعن وتروى وفكر وتدبر وراح يلقي بأسئلته هنا وهناك ، حتى عثر أخيرا على ما بدا له الاجابة المنشودة .

كان هناك أستاذ في مدريد، يقيم عنده التلاميذ كنزلاء بالأجر . وهو يساعدهم في دراساتهم مقابل خدماتهم في أعمال السكرنارية وشئون المنزل . ونوجه ميجل في شوق لرؤية هذا الرجل الذي يدعى الأستاذ خوان لوبث دي أويوس . فوجده حلو الحديث يحب قدامى الشعراء ، ويحلم بترجمة الكلاسيكيات الصغيرة الى لغة أسبانية رفيعة . ورحب الأستاذ أويوس بميجل وأخبره أنه يسعده أن يكون مؤدبا له يتولى أمر تعليمه اللغة اللاتينية وغيرها من الدراسات الأخرى اذا قبل الالتحاق بمنزله كفامولو ( فامولو . . اصطلاح بمعنى أنه سيكون واحدا من أفراد الأسرة ، وفي نفس الوقت سيكون خادما لها ) .

جد ميجل في تعلم اللاتينية عند الأستاذ دي أويوس ، ولم يجد سوى القليل من الوقت ليقابل معارفه القدامى من أصحاب العقول الراجحة بالمقاهي . ومع كل فقد التقى بهم بعد أن انخرطت المدينة بأكملها في البكاء على الملكة الشاببة ايزابيل دي فالوا زوجة الملك فيليب .

جلس أصدقاء ميجل حول الموائد في المقاهي ، وقد سيطر الوجرم على وجوههم منكبون على قصاصات من الورق يدونون بها بين الفينة والفينة أشعارا وبعض الأعمال الأدبية الأخرى يمدحون بها الملكة الراحلة كما أخبروه . وأظهروا لميجل استعدادهم لأن يحملوا الى الفاشر مع أعمالهم ما تجود به قريحته من قريض .

أسرع ميجل عائدا الى الأستاذ منفعلا بفكرة ظهور كلماته مطبوعة . لقد أنتج ست قصائد . وعندما حملها لمن نصحوه بالمقاهي حازت قبولهم بشيء من التحفظ . وهاهم أولاء يقطبون جبينهم وهم يقرءونها ، وأبدوا عدة نقاط من النقد عليها . وأرسلت معظمها مع المجموعة الى المطبعة ، وقبل أن ينقضى العام شاهدت مدريد اسم ميجل دي ثريانتس مطبوعا لأول مرة . وكانت لحظة مثيرة تاتها أحداث أخرى لفتت أنظار ميجل نحو أشياء أكثر اشارة .

حدثت وفاة أخرى في العائلة المالكة . فبعد مرور بضعة شهور من انتقال الملكة ايزابيل دي فالوا الى العالم الآخر، مات دون كارلوس ابن الملك



فيليب • عم الحزن مدريد وأبانيا كلها ، وامتد الحزن الى أوروبا الغربية  
بأجمعها • ووجد البابا في روما أن خطاب تعزية لا يكفي في مثل هذه  
المأساة المزدوجة ، وقرر ارسال مبعوث شخصي الى الملك فيليب • ووقع  
اختيار البابا بيو الخامس على المونسنيور جوليو أكوافيفا ليكون رسوله  
الى الملك ليحمل تعزيته اليه وتجرأ محادثات هامة • ولو أن المونسنيور  
أكوافيفا كان شابا في السادسة والعشرين ، الا أنه كان واعدا ، ويرجى  
منه الكثير ، وتوقع له الجميع أن يصبح كاردينالا في السنين القلائل  
القادمة • وهو ينحدر من أسرة ايطالية - اسبانية أرستوقراطية عريقة ،  
وكان على اتصال بكل شخص من ذوي النفوذ في ايطاليا ، كما كان الساعد  
الأيمن للبابا • هذا بجانب شهرته كشاب ساحر جذاب •

وبعد أن مكث المونسنيور عدة أسابيع في مدريد ، هرول الأستاذ دي  
أيوس ذات يوم عائدا الى منزله حاملا أنباء سارة الى ميغل فقد سمع  
من أحد زملائه في المدينة أن المونسنيور أكوافيفا يبحث عن شباب يجيد  
اللغتين الاسبانية واللاتينية ليعينه سكرتيرا له • ولما كان الأستاذ دي  
أيوس فخورا بالتقدم الذي أحرزه ميغل على يديه ، فقد رشح تلميذه النجيب  
ليعمل مع المونسنيور •

وأخيرا تأهب أكوافيفا للرحيل وفي أواخر عام ١٥٦٩ غادر ميغل  
مدريد متجها صوب شاطئ البحر ليصعد فوق ظهر إحدى السفن ميمما  
شطر نابولي •

ورغم ذلك الاستهلال المنجع في عالم الأدب بنشر بعض أشعار ميغل  
كما ذكرنا ، فإن هذا لم يمنع الشاعر الشاب من مغادرة مدريد لبدء حياة  
المغامرة فيما وراء البحار • ولم يتضح سبب هذا الرحيل المفاجئ •  
فالسجلات القومية تحتفظ بوثيقة تبدأ بالكلمات الآتية : « أمر الى رجال  
العسس بإحضار ديغل دي ثروانتس حالا دون تأخير بسبب إحدى  
الجرائم » • ترى ماذا اقترف هذا المدعو ثروانتس حتى استحق كل هذه  
العجلة • ان الوثيقة تبين أنه أصاب خلال مبارزة في مدريد شخصا يدعى  
أنطونيو دي سيجورا بضربة سيف ، وأن المتهم يستحق قطع يده • وقد  
أدت هذه الوثيقة الى تكون فريقين في منتصف القرن الماضي أحدهما يدافع  
عن الكاتب والآخر يصلح عليه سيف الاتهام • وكانت حجة المدافعين عن  
ميغل أنه لم يقترب أنما لأن العلامة الموجودة تحت الحرف سى تحولت الى  
الحرف زد مما يغير من اسم المتهم ويبعد الشبهة عن ثروانتس • وكانت  
الحجة الثانية حجة زمنية إذ كيف أمكن للكاتب في نفس هذه السنة  
- ١٥٦٩ والوثيقة مؤرخة في شهر سبتمبر - أن يتوجه بكل هدوء الى روما  
في ركاب رجل شهير كأكوافيفا بينما الشرطة تطارده • كما أنهم  
يستشهدون بالأشعار التي كتبها ثروانتس عن ايزابيل دي فالوا في شهر  
نوفمبر عام ١٥٦٨ بمدريد • ان يبدون دهشتهم من أنه في فترة وجيزة  
لا تتعدى عشرة شهور يقترب بطلهم جريمته ويحاكم ويصدر ضده الحكم •

السابق رغم أنف البطء الذى اتسمت به البيروقراطية فى ذلك العهد .  
والحجة الاخيرة وهى لا تقل أهمية عن الحجج السالفة : كيف استطاع  
ميجل مع سابقته القضائية هذه أن يطلب ، عن طريق والده ، شهادة  
النبالة التى قدمها الى أكواقيفا ؟

ولكن المعركة لم تنته فهناك نقاط جديدة بالمناقشة . . الحكم الصادر  
منشأ المبارزة ، شخصية الخصم . وقد نزل لويس آسترانا مارين بثقل  
مؤلفه عن ثريانتس بمجلداته السبعة فرجح كفة الاتهام ، إذ أن هناك  
قصيدة فى ديوان ثريانتس الشعري « رحلة الى بارناسو » بعنوان « حماقة  
الشباب » يعترف فيها بأنها تستوجب الأسف مما يحمل على الظن بأنه ربما  
لم يكن غريبا على مثله أن يرتكب تلك الجريمة .

ومهما كان من أمر سواء أكان ثريانتس مهاجرا أو مرغما ناجيا  
بجلده ، فإنه عاش فعلا فى روما اعتبارا من سبتمبر عام ١٥٦٩ عندما  
وصل اليها وتوجه الى مكان الإقامة فى الفاتيكان . . ذلك الجزء من روما  
الذى شيد فوق تل منفصل ، وفيه قصر البابا والمباني الخاصة بالعاملين  
فى إدارة الكنيسة .

كانت روما أكثر من مدينة . . فكرة ، رمزا لقوة روحية ، وإدراكا  
غير مادي للعظمة والجلال .

شاهد ميجل الكنائس فى المدينة الأزلية ، كما قرأ هوراس وفرجيلي  
وروايات الفروسية فقرأ بشغف مغامرات أماديس ولانسيلوت وأورلاندو  
الغاضب ، وقرأ لكتاب ايطاليا محتكا بالحضارة الايطالية .

ثم جاءت الأنباء بغزو السلطان سليم الثانى لجزيرة قبرص .

كانت ايطاليا فى ذلك الوقت مقسمة الى ولايات متناحرة ، وكان  
كثير منها خاضعا للحكم الأسباني ، وكذلك جزيرة صقلية وسردينيا .

ولما لم يكن للولايات الايطالية جيوش نظامية ، إذ كانت تعتمد فى  
حروبها فيما بينها على الجنود المرتزقة ، تخلت عن كبرياتها وطلبت العون  
من أسبانيا .

داعب ميجل حلم الطفولة فى الانضمام للجيش ، فأسرع الى أكواقيفا  
يلتمس السماح له بتسجيل اسمه فى قائمة المتطوعين للخدمة العسكرية  
. . فوافق بعد تردد .

غادر ميجل روما الى نابولى حيث كانت الفرق العسكرية الاسبانية  
تتجمع هناك . سرى الحماس فى دمائه إذ جاءت اللحظة التى تحقق فيها



حلّمه بالانخراط في سلك الجنديّة • فهل ضاق الشاعر ثريانتس ذرعا بحياته الجديدة كخادم ووصيف وكاتم أسرار بالبلاط البابوي • هل اختار مهنة السلاح أو أن الجهاد المقدس هو الذي دفعه الى ذلك • ربما كانت المغامرة هي التي دفعت صاحبنا المتعطش للحياة والمحّب للاستطلاع الى هذه الحياة الجديدة •

وعندما بلغ نابولي قدم خطابات التوصية ، وكان الاستعداد للحرب قائما على قدم وساق في الميناء • والتحق ميغل بفرقة الكابتن مندوثا •

### - ٣ -

#### ميغل في معركة ليبانتو

تكونت فرق من الاسبان والايطاليين والسويسريين والالمان وخليط بابلي من مختلف الجنسيات • الا أنه كانت هناك لغة مشتركة بينهم هي تبادل السباب واللكمات ، واحتساء الخمر ، ولعب الميسر •

وحان اليوم الذي أبحرت فيه الفرق فوق ظهور السفن من نابولي الى مكان التجمع في مسينا بجزيرة صقلية • كان ميغل ضمن قوات السفينة الاسبانية « الماركيزا » تحت أمرة الجنرال فيجوئروا الذي عركته الحروب •

تحركت « الماركيزا » الى خليج مسينا حيث ألقت أكثر من مائتي سفينة مراسيها هناك • بقي البحارة في انتظار تعيين القائد الأعلى الذي كان من الصعب العثور على من يشغل هذا المنصب بحيث توافق عليه مختلف الجنسيات • فالقائد اذا اختير من جنوا فيسكون ذلك اهانة لجنود فينيسيا • وهم الذين ظلوا يتحاربون عبر قرون عدة • واذا اختير من روما فلن يقبله الاسبان ، والاسباني لن يستسيغه الايطاليون الذين يضايقهم الوجود الاسباني في بلادهم • وأخيرا بعد طول تردد وقع الاختيار على دون خوان النمساوي • أخ غير شرعي لملك اسبانيا ، وهو مع ذلك ليس اسبانيا ولا يمت الى أي من الأمم المتحاربة • انه وملك اسبانيا من أبناء الامبراطور شارل الخامس الذي كان عاجلا للامبراطورية الايطالية بالاضافة الى أنه كان ملكا على اسبانيا أيضا • وقد لقبوه بالمتهور الجريء لما ارتكبه من مذابح في الحملات التأييدية •

تجمع أسطول ضخم يضم مالا يقل عن ثلاثمائة سفينة بلغ عدد مقاتليها سبعة آلاف من الرماة السويسريين ، والفرسان الألمان ، وجنود المدفعية من فرنسا وإسبانيا . وكانت القوة البحرية التركية مكونة من ٢٤٠ سفينة شراعية كبيرة من ذات المجاذيف ، وستين سفينة من الحجم الأصغر . وكان القائد الأعلى هو مؤذن زاده على .

وصل دون خوان الى مسينا ، وصعد الى سفينته ، وتحرك الأسطول عبر البحر الادرياتيكي ، التقى الأسطولان في أضيق مكان بالخليج لم يكن عرضه يزيد عن ميلين بجوار قلعة لبيانكو . وفجأة زمرت المدافع في السابع من أكتوبر عام ١٥٧١ بعد الظهر بوقت قصير . كان ميغل ساعدون ممددا في فراشه داخل السفينة « الماركيزا » مريضا بالحمى تجتاحه موجات من ارتفاع درجة حرارته وانخفاضها فيحس بالقشعريرة .

اشتدت القذائف وراتفعت الصيحات ، وتصاعد ستار من الدخان الأسود الكثيف يلف السفين . لقد بدأ القتال وحاول ميغل أن ينهض ليشارك في المعركة مع زملائه الذين سمع وقع أقدامهم وهم يهرولون الى سطح السفينة . حاول النهوض ولكنه شعر بدوامة من الدوار فسقط في فراشه عاجزا يائسا . التحم الأسطولان في معركة حامية الوطيس ، وسمعت أصوات تحطم الأخشاب وتكسر المجاذيف ، وتبادل المقاتلون القفز كل الى سفن الفريق الآخر ، فتصاعدت أصوات الاصطدام بينهما ، وجلبة الكلابات والخطاطيف الحديدية ، وقعقة السلاح ، وصليل السيوف .

أيقن ميغل أن الأتراك هاجموا سطح سفينة الماركيزا ، فأسرع يوضع خوذته فوق رأسه دون أن يعلم كيف فعل ذلك ، وألقى بنفسه من فوق الفراش ، وامتدت يده الى سيفه ولم يضيع وقته في ارتداء دروعه ، بل هرول متعثرا وهو يلهث صاعدا الى السطح . وهناك اندمج كابوس الحمى مع كابوس الواقع . كان سطح السفينة مسرحا لعراك عنيف بين رفاقه والجنود الأتراك الذين اشتبكوا معا بالأيدي . قدحرجت بينهم كتل الدخان كالأعواج المتلاطمة فكانت لأبخرتها تأثير خائق في رئتي ميغل . ووسط هذا الضجيج والعجيج سمع صوتا يعرفه : « خذ اثنا عشر رجلا في القارب الملحق بالسفينة وحطموا خطاطيفهم وكلاباتهم الحديدية ! » .

وقف ميغل يترنح وهو يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة باحثا عن يستدعيه من الرجال ليرافقوه تنفيذا للأمر الصادر اليه . وما أن شرع في التنفيذ حتى صعبه ألم مبرح هزه بعنف وجعله يدور حول نفسه . وعندما أفاق من الصدمة ، أمسك بذراعه ونظر الى أسفل فرأى يده قد تحولت الى كتلة مختلطة من الدم واللحم . لم يوقفه هذا عن اتمام ما عهد به اليه واستلمات مع رفاقه لتنفيذ أوامر الكابتن . بل واستطاعت سفينته أن تستولي على إحدى سفن الأعداء وتنزل علمها .



وهناك وصف عجيب لمعركة ليبانتو ظهر في مدريد عام ١٨٥٣ حيث قام المؤلف، جيتان روزيل بالبحث، في الوثائق والسجلات والبيانات العسكرية المودعة بدور المحفوظات في فينيسيا وسيمانكا ولندن ، وفيما يلي ما جاء في إحدى هذه الوثائق الرسمية :

« عثر الجاويشان ماتيو دي سان - استبان وجابريل دي كاستانييدا على ثريانتس مريضاً في قمرة بالسفينة . وقد قدما فيما بعد شهادة عن تصرفه ابان المعركة . نهض ثريانتس من فراشه . وأكد الجاويشان انه رغم القشعريرة التي انتابتها بتأثير الحمى وجعلته يرتجف الا انه توسل الى رئيسه الكابتن سان بدر ليضعه في اشد المواقع خطورة . وكنا نبقى أن نثنيه عن عزمه ، وأن نقنعه بأن يخلد الى الراحة ويركن الى الهدوء ولكنه أخذ يردد :أيها السادة ، ماذا يقولون عن ميغل دي ثريانتس ؟ ما من فرصة أتاحتها لي الحرب الا واغتنمتها لخدمة مليكي ، وهذا ما فعلته دائماً كجندى مخلص . واني أتوق الآن لتأدية واجبي رغم أنف المرض والحمى ! . وقد حملناه أوامر القيادة العسكرية بالهبوط مع اثني عشر رجلاً الى أحد القوارب ، وقد قذف بنفسه في العراك الرهيب الذي كان دائراً حيث اشتبك مع الأعداء في جراءة وجسارة وحماس ، وأصيب بجرحين في صدره . وقد وقع الكابتن الذي يعمل ميغل تحت أمرته صريعاً بالقرب منه . » . وكان لثريانتس نصيباً في هذه الوثيقة فقد كتب : « لقد فقدت استعمال يدي اليسرى كلية فأصبغت شرفاً على يدي اليمنى » .

استمر الاشتباك في هذه المعركة الفاصلة ، واحترقت كثير من السفن، ومات المئات غرقاً .

ومن الواضح أن ميغل دي ثريانتس عندما كتب روايته دون كيخوتي فيما بعد كان متأثراً بما فعله في المعركة وتنفيذه لأوامر قائده فنراه في الرواية يقول على لسان دون كيخوتي :

« ان الجندي الذي يذوق ما يأمر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائد الذي أمر » .

كذلك نرى ذكرى المعارك بين أسبانيا والأتراك قد أثرت في ميغل وهو يكتب فقد ذكر على لسان دون كيخوتي الحرب الناشبة بين الجيش الذي يقوده علي فنغارون حاكم جزيرة سرنديب وجيش عدوه بتابولين ملك القرمانيين ( وهم شعب في وسط أفريقيا كما ذكر بعض الشراح ) .

انتهت معركة ليبانتو بهزيمة ساحقة للاتراك لم يحلم بها أحد . فقد خسر العثمانيون في هذه المعركة الكبرى ٢٦٠ سفينة منها ٩٤ غرقت أو احترقت أو تحطمت عند الشاطئ ، بينما أسرت السفن الباقية وقسمت بين الحلفاء . وبلغ عدد قتلى العثمانيين ثلاثة آلاف ، وأطلق سراح ١٥٠٠٠ أسير أوروبي من رقيق السفن الذين كانوا يجذفون داخل سفن الأسطول

العثماني . وخسر الحلفاء الأوروبيون خمس عشرة سفينة وثمانية آلاف رجلا ، وضمت قوائم القتلى والجرحى في ذلك اليوم أسماء كثير من الأمراء والنبلاء . ولكن الذي يهزنا هو اسم ميغل دي ثريانتس ( مؤلف دون كيخوتي فيما بعد ) الذي كان يرقد في جوف السفينة بين غيره من الجرحى فإذا به يسمع صدى خافتا لآلاف الحناجر تردد الأناشيد فرحا بالنصر . . ولكنه ظل أياما طويلة لا يدرك شيئا غير الألم .

اضرمت النيران فوق قمم الجبال تذف أخبار النصر الى أوروبا ، وانطلقت الأجراس تجلجل في مدن إيطاليا وإسبانيا .

أعانى ميغل آلاما مبرحة وهو يرقد وسط أنين الجرحى وحشرجتهم . كان يسترد وعيه في بعض الفترات فرأى شبح أحد الرهبان وهو يتنقل وسط الظلمة ، وينحني فوق الأجساد الممددة ، وعندما جاء دوره انثنى الراهب ناحيته ليطمئن على تضميد جرحه .

ورغم ما حاق بالأتراك من هزيمة بحرية ، إلا أن ذلك لم يحطمهم . . فقد كاثوا أمة من الفرسان استطاعت في غزواتها أن تقترب من قيينا . لقد وسعوا مملكتهم في إفريقيا بامتدت على طول الساحل من مصر حتى عراكش . وذهبوا يغزون الشرق حتى كبحت الحشود الهندية جماهم ، لم يتركوا مكانا يمكن أن تحملهم اليه الجياد . بيد أن الخبرة كانت تعوزهم في المعارك البحرية ، لذلك انهزموا في موقعة ليبانتو .

استعرض دون خوان النمساوي القوات العسكرية بمناسبة النصر ، وزار الجرحى وهنا ميغل على حسن تصرفه ، وأنه أبلى بلاء حسنا في المعركة ، وكافاه بزيادة مرتبه الشهري .

أقلع الأسطول في اليوم العشرين بعد المعركة . . ويالها من أيام لاقى فيها ميغل عذابا اليما . . فقد اكتظ بجانب السفينة المخصص كمستشفى للجرحى الذين تجاوز عددهم المائة في مكان لا يتسع لأكثر من ثلاثين وقد تصاعدت رائحة الدم المتعفن والجروح المتقيحة في جو حار خانق . كان ميغل يرقد في شبه ذهول وقد تمددت يده اليسرى فوق جسده كما لو كانت عضوا غريبا عنه ، وكان الألم يمزق صدره طول الوقت .

علت الابتسامة وجه ميغل عندما أحس بالسفينة تتحرك وراح في سبات عميق .

وفي مسينا رغم ازدحام الثكنات وخيام المستشفى ، إلا أن المكان كان مشرقا نظيفا كأنه الفردوس إذا قورن بالسفينة . . وتولى الدكتور جريجوريو لوبيث رئيس أطباء الجيش علاج ميغل بنفسه . وأسفر الفحص الطبي لميغل عن وجود ضلع مكسور كان سببا في الآلام المبرحة التي شعر



بها ، ولكن الأمر لم يكن خطيرا ، بل بدأ يلتئم • أما يده فقد وقف الطب أمامها عاجزا ولولا قوة بنيته لأصابته الغنغرينا •• وقد أساء الطبيب قائلا : « لتكن يدك لا نفع يرجى منها ، ولكنك محظوظ ان مازالت موجودة » •

مكث ميغل فى المستشفى حتى التأم ضلعه المكسور تماما • كانت ستة أشهر قد انقضت عندما أرسل تقريراً الى فرقته العسكرية يعلن فيه استعداداه لأداء واجبه • لقد صدرت الأوامر وهو طريق الفراش فى المستشفى بترقيته ، كما منح وساما • وعندما عاد الى الخدمة العسكرية أصبح دون ميغل دى ثريانتس ضابطا برتبة ملازم •

## - ٤ -

### ميغل فى قلعة نابولى

قال الفارس النبيل دون كيخوتى ، كما سيظهر لنا فى سنوات قادمة فى الرواية التى كتبها ميغل : « ألا بعدا لأولئك الذين يقولون لك ان الآداب أفضل من الأسلحة وتفوقها ذمعا ! » •

ان دون كيخوتى ، كما ستراه قديما بعد ، قد عده البعض غير مالك لقواه العقلية تماما •• كان قد جن افئتنا بموضوع القروسية • ومع ذلك كان يتحدث بكيفية جذابة ساحرة عن أى موضوع آخر تحت الشمس كمفكر عاقل منطقى فيترك سامعيه مشدوهين مذهولين •

لاشك ان أن دون كيخوتى عندما تكلم عن أمجاد الجندية فإنه كان يتحدث بإسنان المؤلف دون ميغل •

كان من الصعب على المرء أن تكون له يد عديمة النفع ، وأن يكون فى الواقع بيد واحدة فى سن الخامسة والعشرين • ولكن ميغل كشخص معوق تحمل عاهته بكبرياء قائلا : « ان الندوب التى يصاب بها الجندي •• ان هى الا نجوم ترشد الآخرين الى سماء الشرف » •

ومن أشق الأمور أيضا أن يزج بالمرء فى موقع عسكري بكل ما فيه

من رتبة وملا بعد هذه المعركة التي تفجرت لفترة قصيرة في ليدانتو .  
ولكن ميغل لم يتقدم من هذا الوضع .

كانت الحامية تقيم في قلعة قديمة معتمدة في نابولي ، وهي قلعة أثرية  
من أيام النورمانديين منذ ثلاثمائة عام مضت . كانت الحجرات والغرف  
شديدة الرطوبة على نحو مزعج ، والقلعة من الداخل عبارة عن متاهة  
معقدة محيرة من السلالم والدهاليز والسرايب .

أما أفراد الحامية من الجنود فقد كانوا خليطاً جمعهم المصادفة ،  
وأبعد من أن يكونوا رفقاء سلاح . أما الضباط فقد كانوا شباناً يصغرون  
ميغل ، وقد ازدهأهم الغرور ، يمرحون في صخب ، ويتبرمون من حياة  
الحاميات العسكرية ، ولم يكن لديهم أية فكرة معقولة عن ملء ساعات  
فراغهم . ولذا كانوا يرحبون بأي لهو أو انحراف ينتشلهم من رتبة حياتهم  
وملأها .

كان ميغل ينظر اليهم في فزع عندما شكلوا جماعات وعصابات  
راحت تتجول في الريف وتضايق الفلاحين وتزعجهم وتفتش بيوتهم ويعملون  
فيها نهباً وسلباً ويعودون درحين كأنهم صبية ظفروا بصيد ثمين . لم  
يكونوا أشراراً كأفراد ، ولكنهم كزمرة اجتمعت معا تملكهم روح سيئة  
خبثية وانتقلت عدواها بينهم .

لم يكونوا يتورعون عن تعليق فلاح في شجرة بعد أن يتراهنوا على أن  
الغصن لن يحتمله . وقد يخز أحدهم رجلاً بسيفه ليرى مدى رهاقة نصله .  
كانوا دائماً جوعى ، فقد سئموا طعامهم الرئيسي اليومى المتكرر داخل  
الحصن ، فانطلقوا في شراهة ونهم وراء الغذاء .

ومع البحث عن الطعام كانوا يسعون أيضاً وراء الفتيات الجميلات ،  
وكثيراً ما كانت المعارك تنشب بين شرانم الجنود ، تكون أحداها إسبانية  
والمجموعة الأخرى سويسرية أو ألمانية ، كذريعة لنجدة فتاة في محنة  
واغاثتها .

أما بالنسبة لميغل فكان لديه ما يفعله غير ما يرتكبونه من حماقات .  
ففي ساعات الفراغ كان يذهب إلى الأديرة ليستعير منها الكتب . وهناك  
وجد ميغل الفرصة ليتبادل الأحاديث والنقاش الجاد مع الرهبان كما كان  
يفعل في الماضي عبر الطرقات . ولكنه ميغل الذي لم يقصر حديثه على  
هؤلاء الرجال ، بل وسع دائرة خبراته فكان يتكلم مع كل من يقابله في  
الطريق . فیتجاذب الحديث مع الفلاحين عن محاصيلهم أو يثرثر مع  
أصحاب الأنزال والحانات .

وفي كل صباح كانوا يمارسون التدريب على المبارزة بالسيف داخل



قلعتهم • ولما كانت إحدى يدي ميغل لا نفع فيها ، كان التدريب صعبا شاقا بالنسبة اليه ، ولكنه كان يقف كالطود الشامخ فوق حلبة المبارزة بما لا يدع مجالا للشك في عراقته وثبالة أصله ومحتده • ورويدا رويدا أصبح بمثابة أب اعتراف لبعض الضباط • ان السنوات الطوال التي قضاها وهو يذرع الطرقات في الماضي ، حيث تعود أن ينصت ، ويوجه أسئلته ثم ينصت مرة أخرى ، جعل منه ذلك رجلا يلجأ اليه الآخرون باحساس فطري عندما يرغبون في التحدث عن أنفسهم وينشدون عنده النصيح • ان مشاكل معظم الرجال متماثلة : الديور ، المنازعات والمبارزات ، ومسائل الحب والعاطفة • كان أغلب المشاكل يمكن حلها بتفسير واضح صريح أو بالاعتذار لمن أخطأوا في حقه • فهذا الطريق السهل القصير ليس فيه أي أساس بشرفهم بل انه أكرم لهم • كانوا يتادونه بصاحب اليد الواحدة أو الأقطع ، فكان ميغل يستجيب لندائهم بكل فخر وكبرياء • « ان ما يحمله الجندي من ندوب ان هي الا نجوم .. »

تمر الأيام في القلعة لتصبح سنينا ، ويضيق ميغل ذرعا بهذه الحياة الرتيبة التي لا تنتهى ، وليس هذا بالجندي •

وفي غمرة قلقه وشقائه وتعاسته ، وجد ميغل عزاءه الوحيد في الشعر ، الذي حاول قرضه ذات مرة وهو في مدريد • وهناك وحده مع براعة وقرطاس وبعض الحبر يمكنه أن يكتب أشعارا • ولكن هيهات • فالحياة العسكرية لا تعطى الانسان وقتا كافيا ليفكر ويتأمل • فهي حياة يعيشها المرء في صحبة الآخرين •

استيقظ ميغل ذات صباح ليفاجأ بدهشة العمر ! كان هناك زائر ينتظره • • تفرس ميغل فيه غير مصدق ، والرجل يتقدم اليه بجسده الضخم وبنيته القوية ورأسه المستدير الذي أثار ذكريات قديمة • اندفع الرجلان يحتضنان بعضهما • لم يكن الزائر سوى رودريجو • الشقيق الأكبر الذي غاب عن ناظري ميغل وتلاشى نهائيا منذ ما لا يقل عن خمسة عشر عاما ! اصطخبت في قلبه موجة من الحب لرفيق الطفولة فطمرت الدموع من عينيه ، وتأثر رودريجو بالمثل رغم ما يتصف به من سوء وتحكم في انفعالاته • تلاحقت التحيات والايضاحات والتفسيرات السريعة • كان رودريجو جنديا صلب العود زادت الغزوات والحملات العديدة من خشونته ، واستطاع بنظرة واحدة أن يرى كيف تسير الأمور في حامية نابولي هذه ، وأنها غير واعدة بالنسبة لميغل ومستقبله وهو الذي أمضى بها خمسة أعوام والكولونيل يعده كل عام بمهمة في جهة أخرى أو بالترقية دون أن ينجز ما وعد • لقد خدم ميغل في جيش دون خوان وكان قائده الأعلى ! فهو لن يتوانى عن اعطائه خطاب للملك نفسه ، وبمثل رسالة التزكية هذه سيتمكن ميغل من اختيار المكان الذي يروق له •

لجأ ميغل الى الجنرال فيجويرا في مقر قيادته في مسينا ، وهو الذى خدم تحت امرته أيضا في ليبانتو وأثنى على شجاعته في المعركة ، وبمعاونته استطاع أن يحصل على خطاب التزكية من دون خوان النمساوى .

لم يبق أمام الشقيقتين سوى خطاب آخر . . شهادة بحسن السير عن المدة التى قضاها ميغل في نابولى وصقلية . وكان من السهل الحصول عليها من صديقه حاكم المنطقة دوق سيزيا . . دون كارلوس دى أراجون .

حصل ميغل على ثلاث رسائل ، وهى وثائق ثمينة ليقدّمها للملك عائدا الى أسبانيا ينشد الحصول على ترقية .

ودع ميغل زملاءه في حامية نابولى ، وصعد الأخوان الى السفينة « سول » ( الشمس ) في الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٥٧٥ . وهكذا بعد غيبة سبت سنوات يعود ميغل الى أسبانيا .

- ٥ -

## ميغل أسيرا في الجزائر

كان أقصر طريق للرحيل من نابولى بإيطاليا الى بالانثيا في أسبانيا هو الابحار غربا خلال مضيق بونيفاتشو بين جزيرتى كورسيكا وساردينيا . . غير أن قبطان السفينة الشمس ، ككل بحارة البحر المتوسط في تلك الأيام ، كان يعيش في خوف من القراصنة المغاربة ، ففضل أن يسير في طريق أكثر طولاً على امتداد السواحلين الايطالى والفرنسى . كما سره أن يكون في صحبة سفينتين آخرتين . وكانت السفن الثلاث تلجأ ليلا الى أحد الموانئ أو تلقى بمرساتها على مقربة من الشاطئ .

وبينما كانت السفن تقترب من جزر ايريس التى لا تبعد كثيرا عن طولون بفرنسا ، اذا بأسطول صغير من القراصنة الجزائريين يحاصرونهم ويستولون على السفن ، ويقع من فيها أسرى بعد أن جردوا قباطنتها وبحارتها وركابها من سيوفهم . وألقى رئيس القراصنة آرنوت مامى أوامره بالاتجاه صوب الجزائر .

قام القراصنة بتفتيش استعة كل راكب وفحصه كما لو كان حصانا



أو بقرة • كانوا يفحصون أسنانه وعضلاته ، وينعمون النظر بدقة في أوراقه • فالشبان الأصحاء الأقوياء يباعون كأرقاء بأثمان مغرية في الجزائر • أما إذا كانت أمتعة الراكب وأوراقه تدل على مركز أو جاه فمعنى ذلك الحصول على فدية كبيرة •

وعندما جاء دور رودريجو ليفحصوه ويختبروه راق لرئيسهم قوة عضلاته ومثانة بنائه رغم أنه لم يكن صغير السن • وحل دور ميغل فطلب رئيس القراصنة جبينه وهو يحدق في يده المشوهة المعوقة • • فمذله لا يساوى كثيرا في سوق النخاسة • فحص أوراقه وهو مازال يلوى سحنته فعثر على الرسائل المهوراة أحداها من الجنرال فيجويروا ، والأخرى تحمل توقيع دون خوان النمساوى ، ومعنونة لشخصية لا تقل عن ملك إسبانيا نفسه • انفرجت أسارير الرجل ، وأطلق صفير الاستحسان من بين أسنانه •

قيدوا الأسرى مع بعضهم البعض ، وحشروا في عنبر السفينة ، وأغلقوا الأبواب دونهم ، فعانوا يومين من دوار البحر ، ومن الجو الخانق ، والمياه المالحة التي كانت الريح تصبها عليهم • كان ميغل وشقيقه يعزيان بعضهما بأنهما سيهربان كما يهرب غيرهم • وأخيرا وصلت السفن إلى عاصمة الجزائر • قسم القبطان والقراصنة الأسرى إلى مجموعتين • • الأقوياء والضعفاء • غاص قلب ميغل في صدره وهو يراهم ينتزعون أخاه من جانبه ، ويدفعون به إلى مجموعة الأقوياء ، بينما تركوه بيده العاجزة مع فريق الضعفاء •

أخرجوا الأقوياء أولا لارسالهم إلى سوق العبيد • ثم جاء دور ميغل ليسوقوه مع فريقه إلى السوق • • حيث وجد منصة صغيرة في وسط المكان وقف فوقها رجل أسود في ملابس حريرية وبجانبه جزائري يعرضه في المزاد وتحلق حوله الناس • كانوا يجلبون العبيد من نواح كثيرة • • من رجال القبائل من داخل إفريقيا مثل الرجل الأسود الذي بيع من لحظة • وكان هناك رجال ونساء من المشرق ، وكثير من الأوروبيين ، مثل ميغل ورودريجو ، الذين أسروا من أعالي البحار •

كانت عينا ميغل تدوران في كل اتجاه على يرمق أخاه ، ولكنه لم يوفق • وحان دوره فأوقفوه فوق المنصة ، وتحدث القرصان بضع كلمات قصيرة سريعة • وكان يقبض بأحدى يديه على السلسلة الحديدية التي قيد بها ميغل ، وأمسك بخطاباته في اليد الأخرى • لم يفهم ميغل أية كلمة فاه بها الرجل ، ولكنه استطاع ادراك أن القرصان يزايد عليه محاولا أن يعادى يده المعاقة ملوحا بالخطابات ، وأعدا من يشتريه بثروة ضخمة تدفع له كفدية • كم هو مقزع مرعب مخيف أن يقف الانسان هكذا • • لا شيء غير سلعة تباع وتشتري • ان الخطابات ، ويد ميغل المعوقة قد

جذبته مصيرا أليما ، وهو ان يقضى بقية حياته كرقيق يعمل مجذفا على سفينة شراعية كبيرة . ان عذاب مثل هذا المصير فوق احتمال البشر .

تقدم من ميكل رجل جزائري بدين زايد عليه وهو يبتسم ابتسامة شرهة عريضة فقد أغرته الرسائل . وبعد بضع كلمات متبادلة أمسك أحدهما . اتباع دالي مامي بسلسلة ميكل واقتاده خلفه . كان دالي مامي الذي استترى ميكل من الأثرياء الذين جمعوا ثروتهم من استثمار البشر من أمثال ميكل . كان الرجل يحتفظ في فناء قصره بمجموعة كبيرة من الأسرى التعساء منكودي الحظ انتظارا للأموال التي تدفع فدية لهم من أصدقائهم أو أقاربهم في الخارج . وانضم ميكل اليهم . وسرعان ما أحضروا له ملابس نظيفة ووجبة شهية . ومن ثم اقتاده أحد الحراس ليمثل أمام دالي مامي الذي فحص رسائل الأسير بعناية . طالب من ميكل أن يكتب " إلى أسرته في إسبانيا طالبا خمسمائة من الدوكاتيات الذهبية . كانت فدية ضخمة لا يقدر على جمعها أراد أسرة ميكل وجميع أقاربه وأصدقائه . أعاده الحراس إلى الفناء بعد أن زودوه بأدوات الكتابة ، فشرع يكتب في يأس .

انغمس ميكل في الحياة الجديدة فكان يتناول غذاءه ويغتسل ويتجاذب الحديث مع غيره من الأسرى ويستمتع إلى قصصهم وحياتهم السابقة في أوطانهم . فرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا . . . وأنصت إلى مشاعرهم المتباينة من حب وحزن ، وكيفية أسرهم ، وآمالهم في المستقبل . كما عرفوا عنه كل شيء . الأيام تمر ، والرتابة والضجر تكتنفهم ، وأصبح كل منهم جزيرة من الوحدة والقنوط ، وقبع ميكل يتأمل في سخرية مصيره . فبعد خمس سنوات فترت فيها همته لما عاناه من الضجر في حامية نابولي بدأ المستقبل يبتسم أمامه ، وفجأة وئدت هذه الابتسامة ، وتحطمت آماله عندما أصبح أسير القراصنة . . . وهاهوذا قد عاد إلى سأم ويأس أشد وطأة مما لاقاه في نابولي قبل عودة رودريجي .

انقضت عدة شهور قبل أن يتلقى ميكل خطابا من والدته دونيا ليونور التي تصرفت كأمرأة من النبلاء . . . تناشده الصبر وعدم اليأس ، وأنها ستعمل المستحيل مع أبيه لتجمع له الفدية . أغلق ميكل عينيه وقد غمرته موجة من الحزن لما سيكبد أباه . . . فالرجل لامحالة سيبتلع كبرياءه ويقف أمام ذوى النفوذ سائلا المعونة ، ناهيك بشقيقاته اللاتي سيضحكن بما يملكنه من حلى قليلة عسى أن يقدمن المساعدة من أجل أمل بعيد المنال .

السجناء يتحدثون الآن عن الهرب . حاول ميكل أن يهرب هو وبعض زملائه آملين الوصول إلى حيث يقطن بعض الأوروبيين ليختبئوا لديهم حتى يمكنهم تأجير سفينة تقلهم إلى إسبانيا .

باعث محاولة الهرب بالفشل فقد اكتشفهم حراس دالي مامي في اليوم



التالى بعد أن غلبهم النعاس لما أصابهم من تعب ونصب • توقعوا عذابا اليمما وميتة شنعاء عندما دفعوا بهم أمام دالى مامى • خطأ ميكل الى الأمام وبدأ يتكلم على مهل مستعملا ما استطاع أن يتذكره من كلمات لغة الجزائريين ، وسأل الرجل أن يعاقبه هو ، فهو الذى حرّض زملاءه على هذا العمل الأحمق وناشده الرحمة بالرفاق •

• مرت فترة صمت رهيبية أصدر بعدها دالى مامى أمرا ، فأمسك الحراس بالأسرى المرتجفين واقتادوهم الى الفناء الذى غادروه الليلة الماضية • وقفوا فى ذهول غير مصدقين • ما هو سر ميكل - هذا الجندى الأسباني الذى بلغ التاسعة والعشرين من عمره ؟ كيف استطاع أن يؤثر على تاجر الرقيق الجشع القاسى ، ويجعله يعفو عنهم ؟ أهى حرارة صوته ، وصدق عينيه ووجهه ؟ أم أن دالى مامى قد أبقي على حياة ميكل آملا أن يحصل على الخمسمائة دوكانيات من ورائه ؟ لا أحد يعلم •• ربما كان الباعثان معا •• قليل من الشفقة مع بعض الطمع يكمنان وراء هذا الصفيح •

بعد أن هناك شيئا واحدا نعلمه ، فبعد انقضاء خمسة وعشرين عاما منذ ذلك الوقت ، كان ميكل ثربانتس يكتب الرواية التى قصصته كتب كثيرا مما رآه ، ومما جال فى فكره ، وخبره فى حياته ، وتسج لنا مضطرة من خبراته فى الجزائر • أن دون كيخوتى •• بطله فى الرواية لم يأسره أى قرصان ، ولكنه فى مشواره الطويل الذى سلكه ، وشق به طريق حياته كفارس جوال ، قابل رجلا كان أسيرا •

وعندما قص هذا الأسير حكايته على دون كيخوتى الذى افتنن بها وخلبت ليه ، فأننا نعثر على مفاتيح كثيرة لما كانت عليه حياته داخل سجنه ، ليس هذا فحسب ، بل إنها تلقى الضوء على ميكل نفسه وتشير شاهدة عليه • فبينما كان فى سجنه بمدريد يكتب روايته لم يستطع ثربانتس ذو اللحية الرمادية أن يقاوم النكته • أنه يبتسم ولسانه يدور فى فمه فيقول الأسير : « أن الشخص الوحيد الذى فهم سيدنا كان جنديا أسبانيا يدعى سابدرا • فرغم أن هذا الرجل قد أتى بأعمال ستظل محفورة فى ذاكرة هؤلاء الناس لسنين عدة قادمة ، وخاصة فى محاولاته للحصول على حريته ، إلا أن المغاربة لم ينالوه قط بأى ضرر ، ولم يضربوه أية ضربة ، ولم يأمرؤا بجلده •• وقد غمرنا الخوف جميعا من أن أقل ماسيناله سابدرا كجزاء على أفعاله الكثيرة هو وضعه على الخازوق ، وهو نفسه قد خشى ذلك أكثر من مرة » •

ومكذا يقدم لنا دون ميكل نفسه عندما كان شابا وهو يضحك فى شىء من السخرية • ونلاحظ أن سابدرا هو مؤلف رواية دون كيخوتى نفسه ، فاسمه الكامل : ميكل دى ثربانتس سابدرا •

أن المحاولة إلفاشلة التي قام بها للهرب من أسر دالى مامى قاداته الى أن يحاول مرة أخرى • ولكنه خاب فيها أيضا • وكما حدث من قبل « لم يناله المغاربة قط بأى ضرر » •

حدا به فشله الثانى الى التفكير فى خطة أخرى للهرب ، وكانت هذه المرة على نطاق أوسع بحيث تشمل عشرات من الأسرى الأوروبيين فى كل الجزائر لتمكينهم من الهرب فى سفينة تستأجر لهذا الغرض •

وفى رواية دون كيخوتى التى كتبها ثريانتس نجد الأسير يقص حكاية تتضمن كثيرا من العناصر التى كانت بلاشك جزءا من الخطة التى وضعها ميغل • وأخذ الأسير يسرد كثيرا من التفاصيل : كانت تطل على هاء السجن الذى زجوا به فيه ، نوافذ خلوية لبیت يملكه أحد المغاربة الأثرياء من علية القوم •• ووفقا لعادات هذه البلاد لم تكن النوافذ غير طاقات ضيقة عليها مشربيات غليظة ضيقة الفتحات • ومن هذه النوافذ كانت ابنة المغربى الجميلة ترقب الأسير ورفاقه • وتقع الصبية الحسنة فى حب الأسير الوسيم الذى شاهده فى الفناء ، وتلقى اليه بالرسائل من نافذتها مبشرة آياه بأنها ستتم له يد المساعدة هو وزملائه حتى يتمكنوا من الهرب • وذلك إذا أخذوها معهم • يجيبها الأسير فى رسالة التقطتها منه بعد أن ربطها فى خيط أدلته اليه بأنه جد سعيد ليتعاون معها • وتقف اليه بكثير من الذهب فى مديلتها المعقود ليستطيع أن يستأجر سفينة تنفيذا لخطة الهرب •

ولكن للأسف يبدو أنه لم تكن هناك عذراء مغربية مليحة ضمن خطة ميغل ، بل كما كان الحال فى محاولة هربه الأولى ، احتاج الى حليف يتعاطف معه ويناصره من أهل منزل دالى مامى • واعتمد أيضا على صداقة الحراس التى استطاع أن يعقدها معهم ، وخاصة ذلك الحارس الذى كان ميالا الى ميغل •• فهو الذى جاءه بالأنباء السارة عندما أخبره بأن رودريجو مازال حيا يرزق ، وفى حالة طيبة فى منزل آخر لأحد المغاربة فى الجزائر •

استطاع ميغل عن طريق هذا الحليف وبعض الحراس أن يبعث بالرسائل لبعض الأوروبيين المقيمين على امتداد الساحل الجزائرى يسألهم المعونة فى خطة الهرب • وزحفت اليه الوعود بالمال والمعاونة ببطم •• وانتشر الأمر بين السجناء الأسرى فى مدينة الجزائر • تقدمت الخطة وقام الأصدقاء الذين يقيمون بعيدا على الساحل باستئجار إحدى السفن التى ستخفى كسفينة تجارية تنتقل بحذاء الشاطئ ، وما أن يتجمع الأسرى فى المكان المحدد للالتقاء ، فإن السفينة سترفع مرساتها وتقلع بهم صوب إسبانيا •

كرس ميغل كل وقته ليضع التفاصيل بعزيمة لاتلين ودقة متنامية وهو



يستغل كل ما يمتاز به من صفات كانت ستؤهله ليصبح قائدا عسكريا لامعا متألعا نولا الحظ الذي مال به . الم يقل له الكاردينال جوليو أكوافيفا ذات يوم في روما منذ زمن بعيد : « ستصبح جنديا عظيما ، فأنت تتحلى بالشجاعة والذكاء والرزانة ، ولا ينقصك سوى الحظ » .

وميجل يحتاج الى هذا الحظ الآن . فقد كان كل شيء معدا ، ولم يبق على الخطة الا وضعها موضع التنفيذ . وبلغت الاشارة الى الأسرى في كل الجزائر . « هذه هي الليلة » .

وفي تلك الليلة أعطى ميجل الاشارة الى الرجال الذين تحلقوا حوله وقد حبسوا أنفاسهم ، فشرعوا يتسلقون الأسوار . وفي نفس اللحظة كان عشرات من الأسرى الآخرين يتسلقون الحوائط في صمت . وما أن تجمعوا حتى سمعوا أصدااء النفير تملأ الآفاق بدويته . وأخذت تقترب ، ومعها وقع أقدام الجمال المسرعة وهي تثير سحباً من الغبار تعلن قدوم جمافل الجنود الأتراك .

لا ريب أنه قد حدثت خيانة ، ولكن لم يكن هناك وقت ليتساءلوا في دهشة عن يكون ، وكيف ، أو متى . لقد أهدق بهم الفخ ! وأحاط بهم الجنود من كل جانب وقبضوا عليهم في غلظة وخشونة وأعادوهم الى مدينة الجزائر . لا الى من يمتلكونهم ، ولكن للممثل أمام حسن باشا ، الحاكم التركي للأقليم الذي سيتولى محاكمتهم بنفسه . كان الرجل يظهر سيطرته على هذه الأرض الخريبة وقاطنيها من الجزائريين والأوروبيين الذين كان يتوجس خيفة مذهبهم ، بأن سلك الطريق القسوة التي لا تعرف الرحمة .

وعندما تكلم الأسير في رواية ثريانتس وهو يحكي لدون كيشوتي عن ملك الجزائر فإنه كان يتحدث عن هذا الحاكم . « كان في كل يوم يشنق هذا الرجل أو يضع ذاك فوق الخازوق ، ويقطع أذن آخر . كل ذلك لأي هفوة صغيرة ، أو بدون سبب على الإطلاق ، ليروي ظمأه لسفك الدماء » .

كان هذا الحاكم بلا شك رجلا من ذلك الصنف ، رجلا صارت وحشيته أسطورية . ذلك الذي جرى بميجل ليحاكم أمامه . أفهمه الحراس أن عليه الاجابة عن ارتكابه لشيء لم يكن مجرد محاولة للهرب ، بل لقد وضع خطة واسعة النطاق جعلتها أقرب الى حركة تمرد وعصيان وثورة . انها مؤامرة استنهض فيها اقليما بأكمله من الجزائر . لقد علق حسن باشا كثيرا من الرجال في أعواد المشانق لمجرد أن راودهم حلم مماثل .

وقد فميجل أمام حسن باشا ليجيب عن جريمته ، فتكلم بهدوء . وكما فعل أمام دالي مامي لم يحاول أن يبريء نفسه والقسم العفو عن الآخرين الذين هربوا معه .

أيكم من سر ميجل في أنه وقف مجازفا معرضا نفسه للتهلكة غير هياب ولا وجل ، دون أن يرتعش من أجل الإبقاء على حياته ؟ أم أن حسن باشا لأول مرة يسمع رجلا يحدثه كما يتحدث انسان الى انسان مثله ؟ ان الرجل لم يصادفه طوال حياته كحاكم للاقليم الا الخضوع والاطراء والمدح والتملق والمداهنة والنفاق . أما الآن فهو ينصت الى رجل يتحدث جهارا في بساطة وأمانة دون لف أو دوران ، وقد أمتلأ قلبه بحرارة الانسانية .

وكيفما كان هذا السحر . . لم يستطع الباشا أن يقاومه كما كان الحال بالنسبة لدالي مامي . لقد حدثه ميجل وكأنه يعتقد أن الباشا انسان يعرف الرحمة ويحب السلام . . وفي لحظة انفعال وصراع داخلي حركت كلمات الرجل قلب الباشا فبق لها .

انتهى المشهد بالباشا يصدر أوامره بالاحتفاظ بميجل لديه ، وإعادة باقى الأسرى الى من كانوا في حوزتهم . وأيا كان الدافع وراء ذلك كما يحلو للعالم أن يضع له تفسيراً سواء سمي ذلك ضعفاً أو نزوة ، فهناك حقيقة ستظل باقية وهي أن الباشا قرر أن يبقى على حياة الأسباني . . ودفع الى دالي مامي الخمسمائة دوكاتيات . . قيمة فدية ثريانتس . . وأصبح ميجل منذ ذلك الحين عبداً لحسن باشا يعيش في السراية .



كان حسن باشا حاكم أو باي الجزائر يعيش داخل أسوار قصره الفخم الفسيح الأرجاء والذي يضم بيوتا ومساكنا تعرف بالسراية .

خطا ميجل داخل السراية كأنه يدخل عالما عجيبا غير حقيقي ، عالما بدا له ، بفخامته وزخارفه المعمارية ، مسحورا أي واقعا تحت تأثير السحر . . ذلك الذي سيستهوي في يوم من الأيام قارسه دون كيخوتي .

سبق لميجل أن شاهد من المعمار المغربي المنتشر في أسبانيا . . فكثر من مباني المغاربة في أشبيلية وغرناطة وقرطبة كانت من ذلك الطراز المغربي . . ولكنه كان يرمقها من الخارج ، أما الآن فإنه يعيش في قلب واحد من هذه القصور . وهو يقضى ساعات لا حصر لها من الفراغ وقد استيقظت حواسه التي ازدادت حدة بعد أن زال عنه التوتر والقلق والاثارة التي صاحبت هربه ثم القبض عليه . كان مسموح له بالتجول داخل السراية . يالشراء هذا الجمال الذي أبدع بعناية ودقة وصبر ، وكان أيضا جمالا ذا نفع . . فالبواكي الأنيقة تعطى ظلا يقي المرء من الشمس ، والنافورات المزخرفة ترطب الجو ، والخضرة اليانعة تريح العيون . وكانت هناك كائنات رقيقة رشيقة . . سمك ذهبي يسبح في هدوء . . غزلان وطواويس تتجول فتضفي حيوية على المشهد دون أن تعكر صفو هدوئه ، وتبعث الألوان البهيجة احساسا بالسعادة لناظرها .



ما أغرب هذا السجن الذى يعانى منه ميغل ، اذ لم يطلب منه عمل أى شىء . . . نفس الحال كما كان فى أسر دالى مامى . وهنا كان يسمح له بحرية الاختلاط بالحراس والأتباع . وسرعان ما أصبح واضحا أن حسن باشا معجب بعبده الجديد الذى دافع دفاعا مجيدا بليغا عن زملائه فى الأسر . ازدادت امتيازاته . . . فأصبح يتمتع بحرية الحركة داخل السراية وعبر حدائقها الشاسعة ، وكان يجاب الى كل ما يطلبه من الكتب والأوراق وأدوات الكتابة . حقا لقد كان سجنا مسحورا لم يشوّهه غير نشاز واحد . فعندما اشتراه الباي بخمسمائة دوكاتيات دفعها كفدية لدالى مامى ، فانه بدوره ضاعف فديته الى ألف من الدوكاتيات . انها فدية وصلت الى حد الاستحالة . ان دوكاتية واحدة كانت تكفى لشراء بقرتين فى وطنه أسبانيا ، واثنين أو ثلاث دوكاتيات خليفة بأن تقيم أود أسرة لمدة عام .

الزمن يمضى وميغل يعيش فى حلم . كان يسمع أحيانا موسيقى ذات الحان غريبة ، وتارة يستنشق عبيرا زكيا يعبق الجو حوله دون أن يعرف مصدره . . . أياكون ذلك بعضا من السحر ! وفى أحيان أخرى كان يجلس بجوار الزهور بالقرب من النافورة ، فيقترب منه بعض الخدم من ذوي الوجوه السوداء اللامعة وهم يسرون على أطراف أقدامهم ويشيرون اليه بترك تلك البقعة . ينتقل الى ناحية أخرى من السراية ، فلا يلبث أن يسمع من بعيد أصوات ناعمة ويلمح نساء الباشا اللاتى قدمن من بيت الحريم ، وهن يقتربن من النافورة للتريض بعضا من الوقت . انهن يسبحن ويغنين كما تنير الشمس ويعبق الزهر ، وينادين الطيور والغزلان ، وعلى حين غرة يقفلن راجعات بسرعة كما أتين .

كان ذلك حلما . . . الحراس السود المدججون بالسلاح ، الأصوات الناعمة ، الموسيقى ، التعبير الزكى ، النسمات الرقيقة . . . وهو نفسه وسط كل هذه المناظر . . . أكان هو أكثر حقيقة وواقعية من كل هذه الفاتنازية المتعددة الألوان ؟! أهو حقا ميغل . . . ذلك الرجل الذى يرتدى الملابس المغربية المزخرفة ؟ أكان جنديا من قبل أبحر على ظهر سفينة حربية واستنشق دخان البارود اللاذع ، وماهى الحقيقة والواقع ؟ أهى الشكل الخارجى ومظهر الأشياء . . . ولها من القوة ما تستطيع به أن تصيغ وتشكل روح الانسان فى أعماقه ؟ أم أن روح الانسان هى الأقوى وهى الواقع والحقيقة والأصل الذى لا يشوبه زيف مهما قوبل بالرفض من العالم الجامد ؟

وفى أعوام قادمة ، كان على فارس ميغل . . . دون كيخوتى أن يخوض المعركة فى طول أسبانيا وعرضها مسلما نفسه الى الجانب الروحى بعزيمة لا تقهر . كانت مغامراته هزلية مضحكة فى أعين من شاهدهوه ، وبالمثل لكل من قرأوا عنها . . . وهناك شىء أشد عبثا ولامعقولية أكثر من رجل ينازل قطيعا من الأغنام وهو مقتنع أنه يخوض معركة ضد جيش ؟ أ يوجد شىء أكثر جنونا من هذا الرجل وهو ينحنى أمام فتاة ريفية فظة مشاكسة



معتقدا أنها حبيته النبيلة دولثينيا (وهي نفسها من تلفيق واختلاق خياله) متخفية بقسوة تحت تأثير سحر خبيث ؟ لاشك أنها كانت أعمالا جنونية ، ولكن اخلاص الفارس وتفانيه من أجل ما يدور في فكره من مثل أعلى . وتكريس نفسه لتحقيق هذه المثالية في حب ووله شديدين بدا أكثر إشراقا وأشد سطوعا من حماقاته ، ففي النهاية هناك شيء آخر وراء كل الضحكات .. انه الاحترام أو الحب .. الروح ! انها الروح اذن ..

عندما ينتهي ميغل من كتابة الرسائل ، التي كان يبعث بها الى أسرته وأصدقائه في وطنه اسبانيا ، والى أخيه رودريجو الذي لم يكن يبعد كثيرا عنه ، ولكنه مازال أسيرا ، كان يسمح له بزيارة الحى الأوروبى فى مدينة الجزائر ، وحين تغلق أبواب القلعة وراءه كانت الشمس تغمره بأشعتها المحرقة ، بينما يسير الحراس خلفه على مسافة خطوتين أو ثلاث دون أن يلقى اليهم بالا فهم لا يشاركونه هذا الواقع ، اذ يمتون الى عالم آخر خلف الأسوار . انه يخطو داخل طرقات المدينة وسط الضوضاء الصاخبة وروائح الثوم والبصل والزيت المتزنخ ، وروث الجمال والأسماك التي تطرق اليها الفساد ، ودخان شحم الضأن الذي يتصاعد من المطابخ . انه يتدافع وسط الزحام والهرج والمرج وتصك آذانه أصوات نباح الكلاب. ونهيق الحمير ، وصرير عجلات العربات التي تجرها الثيران ، وصياح الباعة الجائلين ، ومطارق الحدادين . وهو مازال يغذى السير وسط أصوات الدجاج ، وصراخ الأطفال ، مارا بالجمال التي حطت عليها أسراب الذباب .

هذه هي الحياة الواقعية ، الحياة كما هي ، وهي ليست عالما جميلا، ولكنه يعشقها رغم ذلك . وفيما بعد عندما خلق ثريانتس فارسه دون كيخوتى .. رجالا تذر نفسه وكرسها من أجل الروح ، منحه تابعا أتى به من هذا العالم الواقعي .. وكان رجلا عمليا بدينا قصير القامة يدعى سانتشو بانثا . ان تجده من أذكى الناس ، ولا يميل الى التفكير المجرد ، ويدمن الأمثال . انه صلب جامد كالأرض يستند ويساعد ويؤيد كل خطط دون كيخوتى الطائشة الحمقاء ، ومشروعاته الوهمية . ويصنع الاثنان واقعا .. روحا تسمو وتحلق عاليا باحثة منقبة ، يشدها الى الأرض أواني الطعام وتيران مواقد الطهى والخبز الذى يشبع المعدة .

وفي إحدى زيارات ميغل لتاجر أوروبى عقدت بينهما أواصر الصداقة ، سمع منه أنباء مدهشة ! لقد وصلت ثلاثمائة دوكاتية من اسبانيا لتدفع فدية له . ان أسرته قد قامت بتضحيات جسيمة حتى جمعت كل هذا المبلغ ، ولكنها للأسف لا تكفى ما يطلبه حسن باشا لاطلاق سراحه .. ولكن بهذا المبلغ يمكن اطلاق سراح رودريجو .. وطلب ميغل الاسراع بحمل هذه الأنباء للبيت الذى يعيش فيه أخوه سجيئا . وأسعد ميغل أن تعود الى شقيقه حريته وكأنه هو الذى حصل عليها ، وخاصة أنه كان



يخشى على أخيه من قوته البدنية التي كانت تؤهله لأن يقضى حياته مقيدا  
بالسلاسل الحديدية الى المجازيف في قاع السفن .

عاد ميجل الى القصر ومرت الشهور وهو يتردد كثيرا على المدينة  
ليتابع الخطابات .

صار ميجل معروفا في احيى الأوروبي ، وأصبح له كثير من الأصدقاء  
من بين التجار ، وكذلك من القساوسة والرهبان . . اتحدوا جميعا  
لمساعدته . . كى يحصل هذا الرجل غير العادى على حريته . كما أن  
أسرته أرسلت مبلغا آخر من النقود غير الثلاثمائة دوكاتيات التي سبق  
ارسالها . لا أحد يعلم كيف استطاعوا ذلك . . ولم ينحصر الأمر في هذا  
المبلغ إذ أن الأوروبيين في الجزائر كانوا يجمعون الأموال من أجله ،  
ويتفاوضون مع الباي الذى كان متمسكا بعبده الاثير لديه . ولكنهم  
استطاعوا أخيرا أن يخفضوا فديته الى ستمائة دوكاتية . غير أن هذا  
المبلغ كان كبيرا بالنسبة الى ما أرسلته أسرة ميجل وما جمعه أصدقاؤه .  
وبينما كان الموقف قد وصل الى حافة اليأس قدم أحد الرهبان  
الفرانشييسكان لانقاذه باكمال المبلغ وكان يدعى الأب خوان خيل .

أطلق سراح ميجل ، فذاق طعم الحرية مرة أخرى فى تلك الليلة ،  
واستنشق الهواء بطريقة أخرى وكأنه امتلك الدنيا .

وأخيرا حلت اللحظة التي لا تصدق . . وأقلعت السفينة بميجل الذى  
وقف يلوح لأصدقائه الذين جاءوا لتوديعه . . وما أن أطل الصبح حتى  
اختفى الساحل الجزائرى وراء الضباب .

- ٦ -

## ميجل يجرب حظه مع المرأة والقلم

كان ميجل يبلغ ثلاثة وثلاثين عاما عندما أطلق سراحه من الأسر  
وأبحر عائدا الى وطنه الذى غاب عنه اثنا عشر عاما بدأت بسنتين  
أمضاها في روما مع الكاردينال أكوافيفا ، ثم خمس سنوات في الجيش ،  
تلتها خمس سنوات في الأسر .

ناقى للعودة الى الجندية ولكنه واجه الحقيقة : ملازم فى الثالثة والثلاثين من عمره شىء يدعو للضحك والسخرية . لابد أن كثيرا من زملائه السابقين قد وصلوا الى رتبة كولونيل وقد خاضوا غمار الحرب فى شتى المواقع ، وأصبح لديهم خبرة حقيقية بات يفتقر اليها . ولكنه اذا كان لا يستطيع أن يخدم وطنه ومليكه كجندى ، فلابد أن يخدمهما بأية طريقة .

وأخيرا لاحت له أرض الوطن فى الأفق البعيد . ووجد نفسه فى ثارب صغير مع جمع كبير من المسافرين ، ونزل على الشاطئ الأسباني . ومن هناك رحل الى مدريد التى وصلها بعد أيام قلائل . وقبل فى منزله بالترحاب ، والتفت الأذرع حول عنقه تطوقه . وسرعان ما رأى مدى الفقر المدقع الذى تعيش فيه أسرته نأمة وشقيقته يرتدين ملابس رثة مهلهلة ، وشاهد أحذية ممزقة . كما أن الأثاث لم يكن موجودا . لم تكن هناك حاجة لأن يقول شيئا . انه الثمن الذى تكبدته الأسرة لتدفع له الفدية هو وأخيه رودريجو . تمزق قلب ميغل من أجلهم . لقد عاد رودريجو الى الجيش الآن ، ويرسل لهم ما تيسر من مال . وماقد حان الوقت ليساعدهم ميغل . ان أباه قد تقدم سنه . ومازال حاد الطبع سريع الانفعال ، ويصحو مبكرا ليعود مرضاه . أما أمه ، التى أصبحت فى أواخر الخمسينات من عمرها ، فتنهك فى الأعمال المنزلية منذ الصباح الباكر حتى يجن الليل كعهده بها ، الا أن خطوط المرارة والتعاسة قد زحفت على وجهها . لا شىء مما كانت ترجوه فى حياتها قد سار كما ودت . لم تصل الى مستوى الذللاء ، ولا شىء غير الشقاء الذى لانهاية له . ولم تتزوج البنات فهما لا تملكان بائعة يقدمانهما . فأصبحت المسكينتان أندريا وماجدالينا عانستين تحت أمرة والدتهما بعد أن جردا نفسيهما من القليل الذى يمتلكانه لانقاذ ميغل الذى أحس بالألم للثمن الفادح الذى دفع من أجل حريته . ظل يسعى يوميا الى لقاء أصدقائه ومعارفه القدماء او أشخاص جدد لعلمهم يستطيعون مساعدته . لقد زار صديقه القديم الجنرال فيجوويرا الذى أصبح عمله فى مدريد ، وذكره بالترقية التى كان قد وعده بها منذ خمس سنوات . فقطب الجنرال جبينه وأطل من النافذة وهو يقول ان خمسة أعوام قد غيرت كثيرا من الأشياء ، والموقف ليس ملائما الآن للترقية ، ولكنه سيسر فيه ليجد وظيفة فى خدمة الملك . عانى ميغل كثيرا وهو يرى الجميع لا يحركون ساكنا ، ولا شىء غير تمنياتهم الطيبة .

مازال أصدقاء ومعارف المقاهى القدماء يتذكرونه ورحبوا به ترحيبا حارا . وراح كتاب الجماعة يلحون عليه ليكتب بعض ما قصه عليهم ، واستحثه الكتاب المسرحيون لكتابة مسرحيات . . فهناك دراما عجيبة ومثيرة للخيال فى كل هذه المادة التى جمعها . وأصر أصدقاءه على أن يكتب مسرحية تقع أحداثها فى الجزائر . ولكنه نهض من مكانه ليبدأ السعى المضنى من جديد بحثا عن وظيفة ، إذ أن الكتابة لن تحقق له



ما يرجوه • وفي غمرة يأسده استدعاه صديقه القديم الجنرال فيجويروا ليخبره أنه وقع الاختيار عليه لمهمة دبلوماسية في أوران على الشاطئ الأفريقي •

كانت هناك بعض العدالة الشعرية إذ يعود ميغل الى شمال افريقيا كرجل حر • فيرى في كل مشهد ، ويجد في كل مقابلة ، أبعادا جديدة كمبعوث ملك أسبانيا لا كعبد رقيق كما كان • الا أن هناك مشهدا لا يملك إزاءه الا الارتجاف ويقشعر بدنه عندما يراه • • عبد يساق الى سوق النخاسة أو جماعة من الأرقاء في طريقهم الى نفس المصير الذي عاناه من قبل أو أسوأ •

لم يكن عمله في أوران صعبا ، كما لم يستغرق منه وقتا طويلا لانجازه ثم عاد الى مدريد ، فأسرعوا يبعثون به في مهمة أخرى بالقرب من البرتغال اقتضته البقاء هناك لعدة شهور •

ثم انقطعت المهام ، وبدأوا يعتذرون له وهو في دهشة كيف لا يوجد ما يعمل به من أجل وطنه ؟ فالامبراطورية الأسبانية تمتد لتشمل نصف العالم • بدأ ميغل يكتب الالتماسات للمسؤولين من ذوي النفوذ من الذين يعرفونه أو لا يعرفونه ، واضطر أن يذكرهم بالتفصيل بكل ما خدم به أمته • • وعانى ميغل الأمرين • كان مجتمعا غريبا رآه ميغل في غرف الانتظار التي قد يقضى فيها يوما كاملا عليه يجد فرصة يقابل فيها أحد الذين يعملون في البلاط وحوله • لقد رأى المظاهر الكاذبة من انحناءات وابتسامات ومجاملات •

من الغريب أن سوء الحظ ظل ملازما ميغل مما حدا به في النهاية الى أن يعود موليا وجهه شطر الكتابة التي لن يجنى من ورائها الا القليل • • ففي تلك الأيام لم يكن الكتاب يعملون من أجل الكسب ، فمواهبهم يجب ألا تنتهك من أجل ربح مادي • فالكتابة لم تكن حرفة فنية مثل التصوير الزيتي الذي كانت سوقه رائجة • وأقصى ما كان يأمل فيه أحد الكتاب هو أن ينال كيسا من الذهب إذا أهدى عمله الى أحد الأمراء أو النبلاء • لم يكن ميغل يعرف أحدا منهم ، بيد أن الكتابة كانت تحمل اليه سرورا وسعادة ، ولم تكن تحتاج الى رأس مال • وطالما حثه عليها أصدقائه في المقاهي منذ زمن طويل • فماذا عساه فاعل لأزجاء وقت فراغه ؟ لقد بدأ ميغل يكتب •

في ذلك الوقت حوالي عام ١٥٨٠ لم يكن باسبانيا سوى بضعة مسرحيات ومعظمها كان من الفارصات البدائية • كما أن مسرحيات الآلام الدينية التقليدية كانت تمثل في الاحتفالات الكنسية ، وكلها كان عرضها يستمر عدة أيام مما يثير الضجر •

كان قلب ميجل منذ نعومة أظفاره ينبض شغفا بالمسرح • وكان المسرح هو الذى يود أن يكتب له الآن • الا أنه كان مثل القلة الذين بدوا يظهرن هنا وهناك ، أراد أن يخلق عمله من الحياة الواقعية - كما أراد أن تكون مسرحياته حبكة يمكن فهمها • وكان فى هذا ما يكفى لاثبات أنه واحد من أوائل مؤلفى أسابنيا العصريين • ومع ما كان يرغبه من التجريب فى الحبكة ، فإنه اختار أن يكتب بلغة المسرح التقليدية وهى الشعر •

وعندما شرع فى الكتابة وجد أن أصدقائه كانوا محقين حين حثوه على أن يستفيد من بعض المشاهد الغنية بالألوان والنباضة بالحياة التى التقى بها إبان الفترة التى قضاها أسيرا فى الجزائر • وسرعان ما أخذت مسرحيته تتشكل تحت عنوان : « تجارة الجزائر » • ولما انتهى ميجل من كتابتها قبلها مدير فرقة مسرحية صغيرة • ونقده فيها دوكاتية واحدة ، وأعطاه أيضا فرصة الاشتراك فى التمثيل • استيقظت فى ميجل موهبته الفطرية كممثل أمام هذا الاغراء • وسرعان ما وجد نفسه يخرج المسرحية أيضا فاكشف فى نفسه موهبة لم يكن يعلم أنه يمتلكها • فأسعده وأثج صدره أن يرى كلماته تدب فيها الحياة وتتحرك على المسرح • رأى ميجل أن مسرحيته لم تهز المتفرجين الذين لم يقابلوها بالابتهاج ولا بالاستنكار ، فأقبل على أعمال غيره من الكتاب بحماس محاولا إخراجها •

حين انتهى عرض المسرحية قررت الفرقة أن الوقت قد حان للسفر والترحال كعادة الممثلين فى ذلك العصر ، وسألوا ميجل أن يرافقهم كمخرج للفريق فوافق فى غبطة •

كانت مسئوليات ميجل كمخرج ومدير للفرقة متباينة ومتعددة • • فهو الذى يختار المسرحيات التى ستعرض ، وهو الذى كان يعيد كتابتها وصقلها وتغييرها حتى يشعر بأنها ستلقى نجاحا • وكان هو الذى يعد المسرح والملابس وقطع الاكسسوار • لم تكن هناك مسارح فى مدن أسبانيا الصغيرة ، وكان العرض يتم فى أى مكان تجمع - قد يكون فى غرفة رئيسية داخل إحدى الحانات أو مخزن محاصيل زراعية أو صالة طعام •

برزت قدرة ميجل القديمة على السيطرة على الناس • وكما كان الحال فى حامية نابولى أصبح محورا ينشده الكل معتمدين عليه • ويواصل أفراد الفرقة الصغيرة الترحال بعرباتهم من مدينة الى أخرى تحت وهج الشمس ، وأحيانا كانت الأمطار تبللهم •

لم يحس ميجل بالرتابة رغم تشابه الأيام والمدن ، الا أنها كانت تعلم ميجلا شيئا جديدا عن المسرح والكتابة له ، والناس الذين يكتب من أجلهم • والناس الذين يكتب عنهم • وكان هناك شيء آخر ملأه بفرح وسرور وابتهاج غريب لم يحس بمثله من قبل • • فهو لأول مرة يحب ! صحيح أنه كان يعجب بالحسنات وحاول وهو يتعثر أن يطريهن متوددا اليهن •



ولكنه كان خجولا حياء أمام النساء . انه يقدم لهن كل توقير واحترام ، ولكن مامن امرأة عرفها - والدته وشقيقتيه أو غيرهن - قد أعطته لمحة حنان ، أو الجمال المرتبط بالدفع العاطفى الذى يمكن أن يمنحه الحب .

والآن هاهى ذى حياته تنقلب رأسا على عقب ! كانت تدعى فرانشسكا دى لاروزا . سمرام مليحة حسناء ذات أنفة وكبرياء ، ذكية جذابة . انضمت الى الفرقة بعد مغادرتها لمدرسة بوقت قصير ، لم ير ميكل لها شبيها ولا نظيرا ، وهى تختلف عن بقية نساء الفرقة ، فبجانب أناقتها ورشاققتها كانت معتدة واثقة من نفسها ، مما يوحي بأنها ابنة احدى الأسر النبيلة .

كان هذا أمرا عسير الانصديق ! فإذا كان الاحتمال بعيدا أن نجد رجلا نبيل الأصل كدون ميكل مثلا يجوب الطرق ويجوس خلال القرى والساكن ، ويتنقل بين المدن مع فرقة متجولة من الممثلين ، فما بالنا بابنة عائلة نبيلة تصعد على خشبة المسرح ! لكانها قفزت من أعلى صخرة عاتية أو قذفت بنفسها أمام جياش شاردة جامحة ! انها فى هذه الحالة تكون قد انتحرت وماتت فى نظر الأسرة . ولكن فرانشسكا لم تعر الأمر التفاتا . قد يكون من الجنون فى تلك الأزمنة أن يفكر انسان أن امرأة لها حق الحرية ، وأن تشعر أن الحياة يجب أن يحياها المرء وفق ما تمليه عليه ارادته وليس خضوعا لشكليات التقاليد وأنماطها الرتيبة الجامدة . كانت على استعداد لتحمل مسئوليات ما تعتقده وفق ما صوره لها خيالها ، وأن تواجه المضايقات والمزعجات وأن تركب متن المخاطرات . كان ميكل يجلس مجاورا لفرانشسكا داخل العربة التى تهتز وترتج بهما فى أثناء سيرها خلال المناطق الريفية وهى تستمع اليه وقد سحرها بحديثه المثير وهو عن الجزائر وروما وليبانتو يحكى . ما أعذب أن يعمل فى احدى المسرحيات وهو يرى فرانشسكا . الشعلة السمرام تتألق مضيئة فى دورها الرئيسى . ما أمتع أن يخرج المسرحية وقد اندمجت روحاهما وهما يعملان معا لخلق شىء يفيض معنى وجمالا . ولكن كان شيئا عجيبا ورهيبا فى نفس الوقت أن المشاحنات لم تلبث أن دببت بينهما . شىء مخالف لما يعهده ميكل مع والدته وشقيقتيه وقلة من معارفه من النساء الأخريات فقد كانت الخلافات والمشاحنات تنشأ من « ماذا سيكون عليه الحال ، وماذا سيظن الناس » . ولكن فى هذه المرة نجمت المشاحنات عن اختلاف فى المبادئ ووجهات النظر وحقيقة ما يعتقد كل منهما فى أعماقه . فهى تخشى أن كل ماحدثها به عن مواهبها كممثلة سرعان ما سيتبخر اذا ما تزوجا حيث سيرغب فى اعتزالها المسرح عائدا بها الى مدريد فى ببت كئيب لتقبع بداخله الدونيا فرانشسكا لا تبارحه الا لحضور القداس !

ومع ذلك كانت الفترات بين مشاحنة وأخرى تمر حلوة عذبة حتى جاء صباح أغبر عندما لم يجدها من بين أفراد الفرقة الذين جلسوا فى الحانة ينتظرونه . وأخبره صاحب النزل بأنها رحلت فى ساعة متأخرة من الليلة البارحة . وناولته الرجل رسالة مختصرة لم يكن فيها أكثر مما فتئت تقول له . انها تهواه وقد تستمر فى حبه على الدوام . ولكنها تخشاه فهو يفوقها قوة واذا ظلت بجواره فانه سيكسب المعركة ان عاجلا أو آجلا

وسيصنع منها المرأة التي يود لها أن تكون • وعندما يتحقق له ذلك سيزهد فيها • ولهذا فإنها تتركه قبل أن تسنح له فرصة يقلب لها فيها ظهر المجن ويهجرها •

حاول ميجل أن يقتفى أثرها •• أن يعثر عليها ليعيدها ويتزوجها • أعياء البحث عنها وهو يستحث الخطى وراءها قلقا مضطربا بعد أن زانه هدوءه المعهود • ذهبته جهوده كلها أدراج الرياح إذ لم تترك فرانسسكا أثرا ينم عنها بعد أن فرت •

مرت الأيام وميجل يتقلب على الجمر لا يذوق النوم في لياليه إلا لاما •• أخذ يستعرض شريط حياته التي لم تستقم له وبدأ له أنه خسر كل شيء تمناه • لقد رغب أن تواته فرصة للقتال في شجاعة وبسالة كجندى ولكنه قاتل للحظات قصار في معركة ليبانتو • وعندما كان في طريقه للترقية ولعائده القتال مرة أخرى وقع في أسر القراصنة • حاول الهرب المرة تلو المرة فمضى بالفشل • حاول أن يخدم مليكة في أية وظيفة فعادته الفشل ثانية • وهاهو ذا أخيرا قد وجد امرأة يحبها •• امرأة بكل معاني الكلمة •• أبية النفس •• ذات أنفة وكبرياء •• تتوقد ذكاء والمعية •• ساحرة جذابة •• متقدة العواطف •• وقد فقدتها هي الأخرى •

عاد إليه الهدوء في تلكو وهو يمضي كئيبا حزينا في أطار من الانقباضية • ولكنه مع ذلك كان يبتسم ويضحك لما يصك مسامعه من هزل ومزاح • كانت الضحكات المكتومة تنبعث منه بينما يضيء وجهه عندما يضحج النظارة بالضحك أمام أحد مشاهده الكوميديا فوق المسرح ولكن لا يلبث أن يعود إلى وجهه الوجوم والحزن • فهو لم يكن سوى الفارس الحزين الطلعة الآن - كما سيطلق هذا الاسم ذات يوم على دون كيخوتي مستقبلا •

بأت السفر مع المجموعة لا يحمل إليه سحره القديم • انه لا يعدو أن يكون حرفة وتجارة • فبعد كل ليلة يحصى عائد المسرحية ، فإذا كان أقل مما يأمله ، كان يذهب إلى الممثلين ليخبرهم بالرحيل في صبيحة اليوم التالي • وكان أحيانا لا يجد من النقود ما يكفي لتوزيعه على أفراد الفرقة •

بدأ ميجل يراوده التفكير في تأليف كتاب • ولم يكن يدري عما إذا كان ذلك سيدر عليه مالا أكثر أم لا • ولكنه من المؤكد أنه سيحظى بمزيد من الشهرة والتقدير والاحترام إذا لاقى في عمله نجاحا •

لم تمض فترة طويلة قبل أن يتصادف وجود ميجل في مدريد لمدة وجيزة • وهناك قابل الناشر خيل روبلس الذي سأل ميجل إذا كان يروقه أن يكتب له رواية • وافق ميجل في الحال رغم أنه لم يكن يميل كثيرا إلى



ذلك النوع من الروايات الذى يبغيه الناشر . . فهو يريد رواية رعوية تتضمن مغامرات عجيبة وأن تكون حبكة ذات علو وسمو ويختلط فيها الآلهة والبشر . انه طراز من الكتب لا يعمل منه الناس . بينما ميجل لا يرى فى ذلك سوى نوع مستهلك من الروايات التى تدور أحداثها فى المرامى . غير أن روبلس كان واثقا من أن ميجل سينتج الرواية التى ينشدها حتى انه نقده مبلغا كبيرا من المال مقدما . كان ذلك تحديا لمهارة ميجل الأدبية . . انضم ميجل ثانية الى فرقة الممثلين وأمضى وقتا مودعا أياهم وقفل راجعا صوب مدريد ليشرح فى كتابة أول رواية له .



عاد ميجل الى منزل والده فى مدريد ، واتخذ من غرفته القديمة ملاذا له وعرينا يتحرك فيه بحريته . شعر ميجل بأنه أكثر التصاقا بوالده الذى رآه الآن بوضوح رجلا بالغ الكمال ، ومازال محافظا على شخصيته . . واذا كنا سنتحدث عن طبيب كرس نفسه لمساعدة الآخرين فى تفان وإخلاص فانتنا لن نجد أحق من دون رودريجو . فهو لا يعنى فقط بمرضاه ولكنه أيضا العالم الذى يريد أن يتعلم كل شئ عن الأجساد البشرية . . قبيما كان يبذل قصارى جهده لعلاج إحدى القروح ، فانه يلاحظ نموها باهتمام . وعندما يصطحب معه أحد تلاميذه ، فان حماسه يبلغ أشده وهو يشاهد الغنغرينا بعين رجل العلم .

وفى احوال نادرة قد يمر أحد زملاء دون رودريجو ويستصحبه معه تحت جناح الظلام الى أحد المنازل الغامضة للاستماع الى دروس فى التشريح يلقيها بعض الأطباء . وهذا يعنى تشريح جثة آدمية . . شئ محرم تماما . وكان الأطباء الذين يشتركون فى هذا العمل يشعرون كما لو كانوا من المجرمين . لاشك أنه لم يكن من السهل الحصول على المعلومات من الكتب التى لم يكن متوفرا منها غير القليل ، وكانت باهظة الثمن وغير دقيقة . وكان الكتاب الوحيد الهام هو الذى ألفه أندرياس فيزالديوس الذى ولد فى بروكسل عام ١٥١٤ وكان أبوه وأجداده من الأطباء . . التحق بجامعة لوفان ببلجيكا ثم درس فى جامعتى مونبلييه وباريس . وكان يعجب من جمود أساتذة الطب الذين ظلوا قرونا عديدة يدرسون آراء جالينوس ونظرياته دون تحويل أو تعديل . وكان فيزالديوس يتوق الى دراسة تشريح الجسم الأدمى دراسة صحيحة لمعرفة ما تسببه الأمراض لأجزائه المختلفة . ولكن الكنيسة فى ذلك الوقت كانت تعارض تشريح الجسم الانسانى معارضة شديدة ، وكان الموت جزاء كل من يجزئ على العبث بحثث الموتى . الا أن فيزالديوس كان جريئا مغامرا فاذا به يتسلل الى القلل خارج أسوار لوفان ويسرق جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الاعدام هناك ، وينقلها الى منزله ويعمل فيها مبضعه . وكان يرسم أجزاء الجسم المختلفة بدقة ، وعندما يحس بالخطر كان يجمع رسومه الثمينة ويلوذ بالفرار . وأخذ يتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الى ايطاليا حيث

كانت حرية العلم مكفولة في ذلك الوقت ، وعين أستاذا للتشريح بجامعة بادوا . وهناك أصدر كتابا في التشريح أسماه « تركيب الجسم الانساني » . وقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل مولد ميكل دي ثريانتس ببضع سنوات . ورغم وضوح هذا الكتاب عن تركيب الجسم الانساني الا أنه كان بعيدا عن أن يكون كاملا بسبب اغفال كثير من التفاصيل .

نعود الآن الى ميكل في منزل أبيه حيث بدا الزوج والابن غريبا الأطوار في نظر المسكينة دونيا ليونور . فأحدهما وهو الزوج كان يضيع وقته متلهفا على البحث والدراسة بدلا من السعي وراء المرضى الأثرياء الذين يجزلون له العطاء . والثاني وهو الابن عاد الى المنزل لا لشئ اللهم سوى الانكباب على الكتابة . وكانت تخشى ألا يمكث ميكل كثيرا ، وأن أي استدعاء - قد يكون الى المسرح أو لأي واجب آخر سيبعده عنها ليبدأ حياة التجوال والطواف مرة أخرى . ففكرت مليا في كيفية جعله يستقر ، فهي برغم أنه خيب أملها عدة مرات الا أنها مازالت متعلقة به ، وهي اذا ما عثرت له على زوجة فان الزواج لاشك سيقص أجنحته . . . وهذه الفكرة كانت تراودها منذ جاءوا الى مدريد سواء أكان ميكل قريبا أو بعيدا . كانت تريد له عروسا من عائلة نبيلة ، انها تعتبر ميكل رجلا غير عادي لأنه ابنها ، ولكنها لا تنكر حماقته في شئون الحياة العملية ، وأنه لا يستطيع كسب عيشه . وأخيرا وجدت ضالتها المنشودة في ابنة شقيق أحد القساوسة وتدعى كاتالينا دي بلانثيوس سالاثار بوسميديانو من اسكويبياس وهي قرية لا تبعد كثيرا عن مدريد . وأسرتها تعيش حياة الفلاحين الا أنها ذات طابع نبيل . العروس مليحة طاهرة عفيفة في الثامنة عشرة من عمرها . وكانت تعيش في عزلة .

كان ميكل منهمكا في تأليف روايته التي انتهت من وضع تخطيط لها ، وقرر أن يعطيها عنوانا : « لاجالاتيا » عندما سمع والدته تتحدث عن الزواج ، ولكنه لم يأخذ كلامها مأخذ الجد ، فقد سبق أن طرقت هذا الموضوع لعدة سنوات .

احس ميكل بصدمة من الفزع البارد عندما أدرك أن والدته كانت جادة هذه المرة في موضوع زواجه ، وأن الأمور وصلت الى الحد الذي يتطلب منه مقابلة عروسه المنتظرة كما أخبرته أمه . واذا به يرفض بشدة ، فلطالما سأل فرانشسكا أن تتزوج ، ولكنها ذهبت فلم يعد يفكر في الحب ولا في الزواج . غير أن دونيا ليونور أصدرت قائمة ان من واجب كل رجل أن يتزوج وأن يكون له أسرة . ألا يرغب في أن يكون له أبناء يحملون اسمه ؟ وزوجة ترعاه بعد أمه التي لن تخلد له ؟ وهكذا ظلت تتحدث وتلح حتى بدأ ميكل يلين تحسده رغبة في أن تعيش أمه في هدوء مهما كان الثمن . ثم أنها كانت محقة في كثير مما قالت . ومن أدراك أن هذه الفتاة الصغيرة قد تميد اليه قليلا من الدفء الذي ولى منذ فادرت فرانشسكا . . . ربما . وأخيرا وافق والدته .



وعندما سمح لميجل برؤية كاتالينا ، ذهب مترددا وقد ألحت عليه ذكريات قديمة • أنه لا يريد أن يتورط مرة أخرى في انفعالات مؤلمة • ليس من حقه أن يقدم لفتاة صغيرة بريئة قلبا تمزق وأصبح باردا • ولكنه عندما رآها ، من خلف قضبان نافذة الطابق الأول من بيت المزرعة ، شاهد صبية جميلة ناصعة البياض وجذابة تفيض بالحيوية والثقة فلم يسع ميجل إلا أن يقدم لها بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد هادئا وهو يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يعترض ؟

حل يوم الزواج في الثاني عشر من ديسمبر عام ١٥٨٤ ، ولابد فيه من مظاهر الفرح والسعادة والغبطة • كان كل واحد يعلم جيدا لماذا يتزوج هذان الاثنان ، ومع ذلك كان هناك وهم وخيال يعيش فيه الناس • فهل كان حقا ما يجمع عليه الناس والكتب والشعر والمسرحيات من اطراء ليوم الزفاف كقمة السعادة في حياة الانسان ؟ أم أن الواقع نفسه ما هو الا وهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا يكون الوهم ؟ ومهما كان ما يدور في ذهن ميجل من أفكار خفية ، فإن الزواج تمت مراسمه • ومن الطريف أن بائنة كاتالينا ، كانت مكونة من منزل وبعض الأراضي المزروعة بالكروم والفاكهة ، وأربع خلايا نحل • هذا غير الاثاث وبعض الملاعق الفضية ومقلاة ، وخمس وأربعين دجاجة ، وديك واحد •

عاش الزوجان في الفترة من ١٥٨٥ حتى عام ١٥٨٧ في اسكويبياس، وكانا يترددان في اثنائها على مدريد لشئون تتعلق بكتابات ثريانتس •

وتمضى الأيام وميجل مستمر في كتابة روايته حتى انتهى منها وبعث بها للناس • وبدلا من أن يسر ويبتهج لذلك كان يشعر باعتلال مزاجه وبالحزن يتسرب الى نفسه يوما اثر يوم • وكلما ازداد تقبل نساء أسرته لكاتالينا كلما زهد فيها وبدت بعيدة عنه • ماذا دهاه عندما وافق على الزواج ؟ ربما كان مستغرقا في كتابة روايته حتى أنه لم يكن يفكر على الإطلاق • ولكن هاهي ذى الأمور تتضح أمامه عندما انتهى من روايته • ماله والزواج • يبدو أن قرانثسكا كانت تعرفه أكثر مما عرف نفسه • • فهو حين يظن أنه يريد الزواج ، ويتحقق له ذلك فإنه سيشعر بوقوعه فريسة في الشرك ، يطارده استبداد وطغيان الزواج بما فيه من رقابة وسيور على وتيرة واحدة وتمسك بالشكليات •

لم يبتهج ميجل ولم ترتفع معنوياته عندما نجحت روايته «لا جالاتيا» - لقد تردد على المقاهي ليجد أصدقاء يأخذون الأمر مأخذ الجد ، وشعر بخرج أكثر مما يحتمل • «ألا يستطيعون رؤية أنه لم يكن هو الكتاب الذي يريده ؟ ألم يفهموا أنه لا يتعمى كونه تمرين أدبي سيق اليه وفرض عليه ؟ وهو لا ينكر أنه قام بهذا العمل بطريقة أفضل مما يتوقع ، ولكنه لم يخرج عن كونه رواية رعوية ، زادت تلك الروايات واحدة بمناظرها غير الواقعية وحبكاتها التي تترك قارئها يحار اعياء • إلا أن الرواية لم تكن تخلق من

الخيال الجامح والطرافة ، رجاءت لغتها أرقى من معظم مثل هذه الروايات  
• • غير أنها لم تكن تحوى شيئاً من نفسه وذاته •

وبعد أن مارس الكتابة ووجد للنجاح طعماً مسطماً لا نفع فيه ،  
عأودته فكرة الالتحاق بالجيش أو العثور على وظيفة تابعة للحكومة •  
لم يكن مثل هذا التفكير غريباً الآن إذ أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد  
أن في إمكانه أن يجد شيئاً مناسباً لسنة وقدراته • فقد عمت البلاد روح  
جديدة ، ودب فيها النشاط وانتشرت الأنباء بأن أسبانيا تبني أسطولا  
ضخماً لمهاجمة إنجلترا •

## - ٧ -

### الـسـكـاـرـة

اجتاح الغضب أسبانيا من أدناها الى أقصاها ، وامتلات بالعداء  
نحو إنجلترا وخاصة اليزابيث الملكة العنيدة التي كانت تقول عن نفسها  
انها تمتلك جسد المرأة الضعيف ، ولكن لها عقل الرجل ومعدته • وقد  
أكدت كل أفعالها ذلك الحكم الذي أصدرته على نفسها •

وقبل أن ترتقى ابنة هنري الثامن وآن بولين العرش ، كانت إنجلترا  
تتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية • وعندما أصبحت اليزابيث ملكة  
إنجلترا بدأت قسوتها تزداد نحو الكاثوليك ، وصارت تؤيد البروتستانت  
ضدهم •

كانت أسبانيا تحكم الأراضي الواطئة ولكن البروتستانت كانوا دائمي  
التمرد هناك ، الأمر الذي استدعى وجود الجيوش الأسبانية • ولم يزل  
رودريجو شقيق ميغل يقاتل هناك مواصلاً المعارك التي خاضها لعدة  
سنوات مضت •

وأمدت اليزابيث المتمردين بالسلاح والمؤن • ليس هذا فحسب ، ولكن  
كانت ، بنفسها في أعالي البحار تهاجم الفرقاطات الأسبانية العائدة من  
المكسيك ، وتقوم بسلب ونهب ما تحمله من كنوز • وكان قباطنة هذه السفن  
رجال من أمثال دريك ورالي وهوكنز قراصنة في نظر العالم ، ولكن في  
إنجلترا كانت الملكة تغدق عليهم الألقاب ، وتكافئهم بنصيب من الغنائم •



هذا عدا بعض المغامرين الانحليز الذين كانوا يرسون على البر في بعض أنحاء أمريكا الشمالية ، ويحتلونها باسم الملكة اليزابيث . وتمادت الملكة في مناوأة أسبانيا فأمرت بإعدام ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا . وكانت الملكة اليزابيث قد زجت بها في السجن بتهمة التآمر ضدها . واحتز الجلاذ رأسها عام ١٥٨٧ . وتجاهلت أسبانيا أى أسباب سياسية بررت بها اليزابيث فعلتها . لقد قتلت ماري بسبب عقيدتها الكاثوليكية . وغلت مرجال الغضب في عروق الأسبان ، وذاق كل فرد منهم آلاما مبرحة كما لو كانت أخته هى التى سيقن الى الموت .

ووسط هذا الهياج الشعبى لما اعتبروه اغتيالا ، أبحر السير فرانسيس دريك الى ميناء قانس حيث كان أسطول أسبانيا التجارى الرئيسى راسيا هناك . واستطاع دريك أن يحرق ويغرق أكثر من نصف سفن الأسطول . وقبل أن يتمكن رجال المدفعية فى استحكامات الميناء من احكام تصويب مدافعهم ، استدارت سفن دريك مسرعة الى أعالى البحار مرة أخرى .

اشتعلت أسبانيا كلها بالغضب العنيف . وكان فيليب يعد أسطولا ضخما . . الأرمادا كأقوى أسطول حربى لم يشهد له التاريخ مثيلا حيث سيبعث بجيوشه الى انجلترا للاطاحة باليزابيث .

وفي أثناء هذا النشاط والثوران الذى عم أسبانيا عاد ميغل يقدم طلباته ماتهسا وظيفه فى أى مكان لخدمة مليكه . ولم يلبث أن توفي أبوه الذى تجاوز السبعين عاما فى الثالث عشر من يونيو عام ١٥٨٥ فترك ميغل يعاني من فقدته كثيرا إذ كانا متفاهمين ، ويحترم كل منهما الآخر ، ولهما نظرة مماثلة فى الحياة .

كان على ميغل أن يقسم وقته بين زوجته وبين أسرته .

جاءت الفرصة التى ينتظرها ميغل حيث عين فى بداية عام ١٥٨٧ فى وظيفة محترمة اتيح له استخدام ذكائه فى خدمة ملك البلاد كضابط امدادات وتموين ووكيل مفوض لتوريد الزاد والمؤن للأرمادا . . الأسطول الذى يبنى على وجه السرعة . انه دائما يحلم بأن يكون جنديا . وضع ميغل شعار النبالة على سترته ، وكان عليه أن يمتطى صهوة جواده يتبعه بضعة جنود وعربة لتحصيل المؤن من الأغنياء والفقراء الذين وجبت عليهم التضحية من أجل نصرة أسبانيا . ولما كان عمله يقتضيه كثرة السفر فقد وجد ميغل أنه من الأفضل له الإقامة فى أشبيلية . أما زوجته فقد ظلت وحدها بمنزل اسكويبياس فى انتظار المبالغ الهزيلة التى يرسلها لها الشاعر ضابط الامدادات والتموين .

ذاق ميغل مرارة الفشل فى زواجه وترك زوجته فى نهاية عام ١٥٨٧

وأمضى عشرين عاما في السفر والترحال سعيا وراء لقمة العيش .

اتسعت منطقة عمليات ميغل لتشمل تلال سييرا مورينا والمناطق  
المقاومة لها في جنوب أسبانيا . سر ميغل لهذا النجاح الذي حققه، فها هو  
ذا سوء الحظ الذي لازمه كثيرا قد ولى . ولكن مهلا . . . ففي عام ١٤٨٨  
بينما كان يتجول في المنطقة الجديدة وصل الى دير في اثيخا . ولكنه قوبل  
بالمقاومة والتحدى من رئيس الدير ورهبانه وأبوا أن يرشدوه الى مخابىء  
أطعمتهم وصبوا عليه لعناتهم كما لو كان هو المسيح الدجال . وذهبت كل  
فصاحة ميغل أدراج الرياح ، فما كان منه الا أن أمر جنوده بتفتيش الدير  
بحثا عن مخازنه وأقبيته للاستيلاء على جزء عادل من المؤن والمواد  
الغذائية . وعندما امتطى ميغل جواده راحلا شيعوه بما يشبه المناحة وهم  
يتوعدونه مهددين .

وبينما كان يسير مع جنوده في أشبيلية بعد عدة أيام لحق به رسول  
وسلمه طلبا باستدعائه للمثول أمام محكمة التفتيش الرهيبة الشهيرة  
بتطرفها في العقوبات من مصادرة للأموال وحرق للضحايا .

وقف ميغل أمام ديوان التفتيش وتليت عليه عريضة الاتهام باللغتين  
اللاتينية والأسبانية . انه لم يقترب سحرا أو يرتكب هرطقة ضد الكنيسة . .  
انصب الاتهام على ما فعله في أثيخا وما استولى عليه من مؤن الدير،  
وكان عليه أن يعلم أن الأديرة مستثناة من هذا الأمر . أو لم يدرك من  
تلقاء نفسه كمسيحي أنه من الواجب احترام اعتراضات الرهبان وعدم  
المساس بقديسية الدير وحرمة . ولدهشة ميغل كان القصاص أخف ما  
صدر من عقوبات . . انه انذار مصحوب بالحرمان الكنسي لعدة شهور .  
كان يشق على الكاثوليكى الزمن أن يحرم لاي فترة مما تنجيه له الكنيسة  
من نعمة وعزاء وسلوى وبركات وامتيازات . ولكن ميغل ما زال حيا يرزق  
متمتعا بحريته ولم يفقد وظيفته . وغادر المحكمة ليواصل رحلاته في طرفي  
الأندلس يحمل العربة بشحنة وراء شحنة من المؤمن من أجل الأرمادا .

وفي ربيع عام ١٥٨٨ سمع ميغل بأن الأسطول على أهبة الاستعداد  
كان مكونا من غلايين ضخمة وهي سفن شراعية عملاقة لم تشهد لها  
البحار مثيلا من قبل ، والعديد من السفن الشراعية الكبيرة ذات المجاذيف  
والتي كانت تسمى الواحدة منها باسم القادس . أطلق الملك الحذر على  
الأرمادا لقب الأسطول الذي لا يقهر والذي سيحمل جيشا يغزو أراضي  
انجلترا عقابا لاليزابيث التي ستسحق لا محالة .

بقى ميغل في أشبيلية الآن متلهفا على الأنباء . وبينما كان الأسطول  
على وشك الاقلاع مات قائده الماركيز دي سانتا كروث ، ومرت بضعة  
أسابيع قبل أن يعين بدله . ثم غادر الأسطول الميناء فأحدثت به عاصفة  
هوجاء مما اضطرت معه السفن الى العودة لأئذة بمرقا لاكروونا .



انقضت أسابيع عديدة انتشرت بعدها الأنباء في أشبيلية عن اقلاع الأسطول . كان الوقت ضيقا ، ومع حرارة شهر يوليو لم يكن هناك غير الصمت الذي دهش له ميجل مع رفاقه وهم يجلسون في المقاهي وكلهم شوق ولهفة لسماع الأجراس وهي تصلصل معلنة النصر . في ذلك الوقت كان الرسل يعملون مهماتهم في جوانب جيادهم وهي تنهب الأرض ، يحملون التقارير للملك من الشساطيء الأوروبية ، غير أن أحدا لم يكن يعرف ما تحويه . خيم الصمت على البلاد ، وبدلا من دقات أجراس الكنائس اقيمت الصلوات داخلها من أجل الذين لقوا حتفهم في البحر . وبينما رياح الخريف تزمجر في خليج بسكاي كان الناس ينتظرون وهم يتعلقون في يأس بحدوث إحدى المعجزات . ثم عادت السففن . . في مجموعات صغيرة تلهث لأثذة بموانئ أسبانيا . انتظر الناس بقية السففن . ولكنها لم تعد .

صاح ميجل مع كل أسبانيا : « ماذا حدث ؟ » . وأخيرا بدأت تفاصيل الكارثة تجيء . لقد اجتمع سنوء الحظ ، ورداءة الطقس ، والاستخفاف بقوة العدو . . فحلت الكارثة . هذا بالإضافة الى عامل آخر هو الاستراتيجية . لقد استعمل الأسبان السفن لتحمل جيشا عبر البحر ليقاتل معركته فوق الأرض . وحتى اذا جاورته سفن الأعداء جنبا لجنب فإن الخطة مازالت تقضى بالاستعانة بسطوح السففن كأرض للمعركة يحارب من فوقها الجنود . لم تهتم أسبانيا ولم تكن على وعى ، بالدور الذي يلعبه البحارة في الحرب . كانوا يمجدون الجندي مستخفين بالبحار ويرون فيه رجلا يحتاجونه لايصال الجندي الى وجهته . أما الانجليز فقد كانت لهم فكرة مغايرة . أن سفنهم محتشدة بالبحارة لا الجنود . . وكانت سفننا صغيرة سهلة الحركة تجيد المناورة . كما أن الانجليز من ذوي المهارة الفائقة في البحر .

لقد سبق أن خاض ميجل معركة ليبانتر . . فلماذا اذن لم ينتصروا هذه المرة ؟ ولكن انى له أن يعرف ذلك .

ان التاريخ يحدثنا عن أن معركة ليبانتر كانت آخر معركة بحرية كبيرة وقعت بالأسلوب القديم الذي يستعمل السفن لحمل الجنود الى مكان المعركة . وسواء حاربوا فوق الأرض أو أسطح السفن فانهم يقاتلون على طريقة الجيوش البرية . ولكن المعركة الكبرى التي دارت رحاها في القنال الانجليزي بين الأرمادا والأسطول الانجليزي كانت أول معركة بحرية بالأسلوب الحديث حيث تستعمل السفن كسفن وليسست كمنصات أو أرضية ، مع الاعتماد على دقة التصويب عند اطلاق النار ، والمناورة والمدورة والمناورة وسرعة الحركة .

ومكذا لم تستطع السفن الأسبانية الاقتراب من شواطئ انجلترا لتحاول انزال الجنود الى البر ، وتبعثر الأسطول ومضى بالهزيمة . وكان

هناك جيش، يقف على أهبة الاستعداد فوق الأراضي الهولندية ، ولكنه كان في حاجة الى السفن . فظل محبوسا عند مصب أحد الأنهار لم يبارحه جندي واحد .

حاول الأسبان أن يتجمعوا مرة أخرى ، ولكن الوحدات الانجليزية كانت لهم بالمرصاد . فآدى ذلك ، مع الرياح المضادة ، الى ابعاد الأرمادا الى بحر الشمال . ولتفادى الأسطول الانجليزي ، دارت السفن الاسبانية حول الجزر البريطانية الى شمال اسكتلندا محاولة الإبحار الى الجنوب مرة أخرى عبر البحر الأيرلندي . انتشرت الأمراض بسبب رداءة المياه وفساد اللحوم . عربد الموت بين الجنود والبحارة من جراء تفشى التيفوس والكوليرا . واكتسحت الأمواج الهائجة والرياح العاتية الكثيرين من فوق ظهور السفن وألقت بهم الى البحر . لم يعد من السفن سوى النصف ، وبقي جزء صغير من بحارتها في صحة سليمة . ونقل الجرحى والمرضى الى الثكنات والمستشفيات للعلاج . وهكذا أقل نجم أسبانيا ، وانتهى مجدها ، وضاعت سيطرتها على البحار ، وفقدت حكم الأراضي الواطئة ، وزالت عنها السيطرة على العالم .

لم يكن كل هذا واضحا لميجل ولا لأصدقائه ومعارفه . شىء واحد كان واضحا وهم جلوس مثقلى النفس حول المناضد في المقاهى محاولين أن يتقبلوه وهو أن الأرمادا . . الأسطول الذى لا يقهر قد لاقى الهزيمة وتحطم ، ولم تعد له قائمة رغم ما بذلوه من جهود ، وماداعب أحلامهم من آمال ، وما أدوه من صلوات . اللهم لا اعتراض على مشيئته ، ومازالت أجراس الكنائس تصلصل مختلطة بأصوات المصلين وهم يسبحون بحمد الله . وركع الملك لساعات طويلة وهو يؤدى الصلاة .

نم تعد هناك حاجة الى ضباط امداد ولا لمتعهدي توريد المؤن لأسطول أو جيش . ولكن ميجل مازال اسمه مدرجا فى قائمة العاملين . واستمر يقدم التماساته للاحاقه بأى عمل يتاح له ضمن العديد من الوظائف الحكومية . كان يتوق الى الحصول على أحد المناصب من التى لا يقوم أصحابها بأى عمل فى المكسيك أو بيرو . . وهما من الأسماء التى كان يطرب لسماعها الناس لما يرتبط بهما من اغراء وثراء . ولكن حلمه تبخر وعين في عام ١٥٩٤ جابيا لنضرائب . . وهى وظيفة شاقة ، وظل مركز الادارة الدابع له فى أشبيلية بعضا من الوقت .





## ميجل في السجـن

اقام ميجل في اشبيلية في غرفة صغيرة بسيطة في نزل يمتلكه أحد أصدقائه ، كان يعمل ممثلاً وتعرف به من أيام المسرح .

واصل ميجل طوافه وتجوّاله فوق سهوة جواده عبر جبال الأندلس الوعرة . وخلال مهمته الشاقة رأى القحط يستشري في كل مكان ، وأذل الفقر أعناق الرجال . هل يعلم الملك ذلك ؟ نعم . . وكانت النتيجة مزيداً من الضرائب .

اختلط ميجل بالفلاحين والتجار وأصحاب الحرف والنبلاء في القرى والمدن الصغيرة واستمع لحكاياتهم كما استمعوا لما كان يقصه عليهم من أنباء وقصص . وتعلم أيقاع حياة الناس في الأندلس ولغتهم . وهكذا عرف أسبانيا التي تحيا بعيداً عن الشكليات التقليدية من طقوس المراسم والتشريفات ، وسلوك المنافقين في مدريد وأشبيلية . نعم . . لقد رأى أسبانيا من خلال أبنائها الذين يفلحون أرضها وظلوا محتفظين بقلوبها مستمرا في نبضه .

ظل ميجل سنينا عدة يواصل عمله لا في الأندلس فحسب ، بل أحيانا في قشتالة أيضا أو ليون أو لامانتشا .

انه الاسم الذي سيجعله ذات يوم شهيرا تدوى أصداءه في كل أنحاء العالم ، فقد اختاره من بين أقاليم أسبانيا كلها ليكون موطناً لقارسه العبقري النبيل دون كيخوتي . فهل كان هناك شيء خاص بإقليم لامانتشا جعل هذا الاسم يظل حيا في عقل ميجل ؟ لا نظن لأنه في لامانتشا كان هناك نفس الفقر الذي وجدته في كل مكان ، وكانت هناك نفس الشكاوى ، ولكنه وجد وراءها نفس الناس عندما سبر ما تحت السطح . . متلهفين قلقين مشغولي البال من أجل المستقبل يتشدون فيه أملا وفجرا جديدا .

الأعوام تنقضي وميجل يراقب ويلاحظ . . فهناك من يخدمونه فيظهرون مالا يبطنون ، وهناك من يطلبون منه الرحمة والشفقة كما لو كان جلادا ، بينما يتعاون معه آخرون بحثا معه عن حل مناسب لمشاكلهم . وكان هذا من ميجل فهما لروح القانون لا حرفيته . . وهو ما درج عليه في مهنته هذه . ورويدا رويدا وجد أنه يمكنه الاعتماد على حكمه وقراسته عندما يمنح أحد الرجال ثقته ، فلم يخيب ظنه أحد . .

واكن في عام ١٥٩٢ جاء الوقت الذي لم تكن فيه ثقة ميجل في محله!

٠٠ لقد أقسم له أحد التجار بيمين مغلظة أنه سيدفع ما عليه في اليوم التالي . صدقه ميغل واستأمن جانبه وخاصة أنه في ذلك المساء كان عليه أن يسوى دفاتره كما اعتاد ذلك ، فدون دين التاجر على أنه دفعه .٠٠ وعندما توجه ميغل الى التاجر في اليوم التالي لتحصيل المال وجده قد اختفى ولم يعثر له على أثر . ولسوء حظ ميغل كان الوقت قد حان لتقديم دفاتره في أشبيلية للفحص الدوري ، وهناك اكتشفوا المخالفة ، ولم يجد الشرح والايضاح فتبلا أمام أولئك الموظفين الصغار الذين لا يعلمون شيئا عن السنين الطويلة التي خدم فيها ميغل أمته وأدى عماله من أجلها في أمانة . هزوا أكتافهم ولروا أعناقهم مستنكرين ما وقفوا عليه . وأخبروه أنه حتى يتم التحقيق والبحث والتحري عن هذا الموضوع ثانه لابد أن يزجوا به في السجن . واقتيد ميغل خلال ممرات طويلة وصعد درجات كثيرة ، وهبط أكثر منها حتى أوصلوه الى أحد الأبواب التي تنبعث من خلفه جلبة وضوضاء . فتح الباب ودفعوا بميغل في قسوة الى داخل غرفة معتمة حيث استقبل بصياح أشبه بالنباح ، ورمقه النزلاء بنظرات عدائية وأطلقوا صفيرا عاليا استهزاء به . كان الهواء عفنا فاضطر ميغل أن يمسك شهيقه وهو يدير عينيه خلف الجدران باحثا عن مكان يجلس أو يرقد فيه فإذا به يلاحظ أن الغرفة كانت مرتعا للفيران . استطاع ميغل بعد بضعة أيام أن يكتسب ثقة النزلاء واستمع اليهم في صبر وأناة وثقة . ولو أن القصص التي سمعها كانت من نشالين ولصوص وقطاع طرق وقتلة ماجورين . استمع ميغل اليهم دون أن يستطيع لهم نصحا أو قولا أو فعلا ماعساه يغير من المصير الذي ينتظرهم .٠٠ كانت المشائق تنتظر ظامئة أعناق القتلة . ملأت حكاياتهم قلبه حزنا . فبرغم كل ما شاهده وعرفه من بؤس وشقاء وفزع ، لم يكن يعرف رجالا يمكن أن يهبطوا الى هذا الدرك من الخسة والاجرام ، وفساد الأخلاق . ولكن رغم كل هذا الانحطاط والفحش والشناعة فقد كانوا لا يزالون بشرا مثله يرتجفون خوفا أمام المجهول ، يبحثون عن العزاء والسلوى في التعاطف الانساني معهم وأن يلاقوا قبولا لدى الآخرين .

قام موظفون كبار ، في مرتبة أعلى من مستوى الموظفين المحليين ، بفحص دفاتر ميغل وأثبتوا أن كل ما أدلى به كان صدقا وكتبوا تقريرا عن كفاءته كجانبى ضرائب ، ومهما كانت طريقته فقد أثبتت نجاحها بعد أن اكتشفوا أنه استطاع أن يحصل الضرائب من نبلاء وقلاحين على السواء كانوا قد أسقطوهم من الحساب كحالات ميثوس منها .

أطلق سراح ميغل ، ومنحه موظفو الملك ثقتهم فضموا الى دائرة نفوذه عقارات هامة وحالات تتضمن مبالغ ضخمة .



مرة أخرى جلس ميغل فوق السرج وحصانه يركض به عبر الفياض والقفار متقللا من مكان الى آخر ، وتمضى خلفه العربى يحف بها الجنود



من الجانبين لحراسة ما تحمله من عملات معدنية يسيل لها لعاب اللصوص .

لم يكن لدى ميغل وقت للكتابة . ومرت أربعة عشر عاما وهو مازال يتجول فوق صهوة حصانه في مهمة من أجل الملك بينما حالة أسبانيا المالية تجرى من سوء الى أسوأ . فكان ميغل في بدء تعيينه قد رأى الفضة ، والآن لا يرى شيئا غير النحاس . وحتى ذلك المعدن كان ممتزجا بالقصدير . ان الضرائب المدفوعة بهذه العملات المعدنية كانت تثقل صناديقه . وكان نقلها من منبع الدفع الى حيث تسلم يكلف أحيانا أكثر من قيمة المال المنقول الأمر الذي أقلق ميغل حتى وجد للمشكلة حلا ، فاختار بذلك سيمون فريير بمدينة أشبيلية ليودع فيه المبالغ المتحصلة باسم صاحب الجلالة . وأثبتت الخطة نجاحها ، فقد أصبح ينجز عمله على وجه أسرع . وذات يوم لم يصدق ما حدث عندما وجد أن صاحب المصرف قد اختفى فضاغت عليه الأموال التي أودعها من عدة أشهر مضت ، والتي بلغت ثلاثة ملايين مارابيديس . جاءت الأوامر الى ميغل للعودة فورا الى مدريد لعدم انتظامه في دفع ما يحصله من ضرائب . وقف ميغل أمام قضاة كانوا يطبقون حرفية القانون ، فبسبب إهماله خسرت الدولة كمية من الأموال ما كان أشد حاجتها اليها . وأنه من تلقاء نفسه وعلى مسؤوليته ودون أن يرجع الى رؤسائه لجأ الى صاحب مصرف خاص كوسيط . وهو بفعلته هذه يكون قد تجاوز سلطته وتعداها .

وهكذا دخل ميغل السجن مرة أخرى . انه رجل لازمه سوء الحظ . . . رجل أصبح الآن معتادا على السجن . فقد كان سجينا في الجزائر ، سجين أحساسه في قلعة نابولي ، سجين ديوان التفتيش ، سجينا في بلاده منذ ست سنوات مضت .

وهناك من وراء قضبان سجن أشبيلية ، ومضت فكرة دون كيخوتي في ذهن ثربانتس أن نراه يقول في مقدمة روايته أنها نبعت في سجن موحش حيث يعيش البؤس والشقاء ، وتردد الجدران أصوات مفعمة بالأحزان والآلام . وهاهو ذا يطلب ورقا وريشا قلميا وحبرا ويجلس الى منضدته الكسيحة وبدأ يكتب :

« في قرية من قرى المانتشا ، لا أريد أن أذكر لها اسما ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش تبيل ممن في معلف دوابهم رمح ، وترس عتيق ، وقرس هرم هزيل ، وكلاب سلوقي للصيد » .

كان القلم في يده يسرع تارة ، ويتردد تارة أخرى ، ويتوقف أحيانا ثم يعود فيسرع مرة أخرى . « وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا مولعا بالصيد . وكان يقال انه يلقب كيخادا أو كيسادا . . . » .

اذن فقد بدأت الرواية ، رواية كيخادا أو كيسادا . . هذا الذبيل الذى سمي نفسه باسم دون كيخوتى !

وهكذا نبضت الشخصية بالحياة وأصبحت ذات اسم وتمتلك جوادا وصارت على أهبة الاستعداد لامتطاء صهوته .

لم يكن ميغل كاتباً سريعاً ، وهو كثيراً ما يجلس الى المنضدة فى وضع رصفه بنفسه فى مقدمة روايته فنراه يقول : « الورق أمامى ، والقلم على أذننى ، ومرفقى على المنضدة ، ويدي على وجنتى ، أفكر فى ماذا أقول . . » .

واكذه كان فى جعبته الكثير الذى يريد أن يرويهِ الآن . فطوال خمسة عشر عاماً لم يكتب شيئاً ، وهى تعتبر ثغرة فى سيرته الأدبية . . كان فقط يتجول ويستمتع ويستوعب ما عند الناس من أحاديث . حان الوقت الذى تكس لديه كل ما سمعه ولاحظه يلح على ذهنه باحثاً عن منفذ . وحتى المجرمين والأوغاد الذين التقى بهم فى السجن ظهروا فى روايته وصور سلوكهم ولغتهم تصويراً واقعياً .

— ٩ —

## ميغل بفلت من طوفان الزمن

قضى ميغل ستة أشهر فوق المقعد المتمايل يكتب فوق المنضدة الصغيرة . ثم برئت سراحته وأطلق سراحه فى عام ١٦٠٣ حيث بلغ السادسة والخمسين من عمره ، وأصبح سنده غير مناسب للعمل فى خدمة الملك ، ومنح معاشاً ضئيلاً يبعث على السخرية . أما روايته فلم ينته منها بعد . عاد الى منزل الأسرة ممزقاً رث الثياب وقد وخط الشيب شعره بعد غيبة طالت الى خمسة عشر عاماً ، فوجد والدته قد انتقلت الى العالم الآخر . أصبح ميغل هو الرجل الوحيد فى الأسرة ان أخاه رودريجو قد خر صريعاً فى ساحة الوغى بالأراضى الواطئة فى عام ١٦٠٠ .

وفى عام ١٦٠٤ رحل مع شقيقتيه وابنته غير الشرعية ايسابيل وابنة عم له ليعيش فى باليادوليد حيث أقام فيليب الثالث قصره هناك . وقد



أنجب إيسابيل قبل زواجه بعام أو عامين كثمرة لعلاقة غرامية مع صديقة له تدعى آنا فرانكا دي روخاس أو آنا دي بيافرانكا • ولم ينجب ميجل أطفالا من زوجته كاتالينا •

وينسب بعض كتاب السير إيسابيل إلى سيدة برتغالية كان ميجل على علاقة غرامية بها عندما كان في لشبونة عام ١٥٨٢ إذ عاد والتحق بالجيش الإسباني مرة أخرى في تلك الفترة • ولم تلبث هذه السيدة البرتغالية أن تزوجت تاركة هذه الابنة لميجل ليتولى رعايتها وكانت الأخيرة تطلق على نفسها اسم إيسابيل دي سابدرا •

ولكن هناك وثائق محفوظة في سجلات البروتوكول بمدرسة تشير إلى أن هذه الغراميات كان من ثمرتها إيسابيل التي جاهرت في تقرير مهور بتوقيعها أنها « ابنة ميجل دي ثريانتس و آنا دي روخاس » •

وهناك إشارة إلى إيسابيل هذه في باليادوليد في عام ١٥٩٩ - أنها تعيش مع ثريانتس وشقيقته ماجدالينا ، وأنها خادمة لهذه الأخيرة • وهذه الحيلة لا تخفى على أحد يعرف تماما كيف ينظر المجتمع الإسباني في تلك الحقبة إلى الفضائح • كما أن ثريانتس نفسه أثر تجنب المشاكل التي لا طائل منها فكان أبا كريما لابنة يبدو أنها سببت له كثيرا من المتاعب • وعندما تزوجت حدثت مشاكل ، وبعد وفاة هذا الزوج عادت إلى منزل والدها الذي قرر أن يخصص مبلغا كبيرا من المال كبثينة لها يغري به الراغبين في الزواج حتى يتخلص من متاعبها •

وقد انتهى المطاف بإيسابيل في أحد الأديرة ، وهو نفس الدير الذي طلب والدها أن يدفن فيه •

وأخيرا أتم كتابه في مخطوط يدوي ضخمة عنوانه :

« النبيل العبقري دون كيخوتي دي لامانتشا » •

وقد وجد ميجل ناشرا في مدريد هو خوان دي لاكويستا • وظهرت الطبعة الأولى من الكتاب في يناير عام ١٦٠٥ وكان ميجل وقتئذ قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره •

خالجت الريبة والشك باعة الكتب ، فقد وجدوا في الرواية جرأة وغرابة فاقت الحد ، وكانوا يفضلون أن يروا بطلا وسيما حسن المظهر على الأتل • فالأبطال من ذوي الشخصيات الجذابة لهم سوق رائجة • • ولكن حدثت معجزة • • فعلى عكس ما توقعه خبراء السوق ومعرفتهم لذوق الجمهور ، وبرغم المظهر الحزين للبطل لاقت الرواية نجاحا باهرا • ولم تستطع المطابع في مدريد وبالأندلس أن تلاحق الإلحاح في طلب الرواية ، وتوالى الطباعات وهي مقياس النجاح الساحق في ذلك الوقت • ولم يناق

المؤلف من الناشر الا الفتات التي كانت لاتكاد تكفى لمساعدته على مواجهة ديونه الفادحة .

ولم يكف سوء الطالع عن ملاحقته ففي السابع والعشرين من يونية عام ١٦٠٥ أصيب أحد النبلاء وهو جاسبار دى اثبليتا بجراح بالغة خارج منزل ثربانتس ومات بعد يومين من الحادث دون أن يفصح عن اسم القاتل . وتبين من التحقيق أن القاتل كانت له علاقة غرامية باحدى السيدات المتزوجات اللواتي تسكن في بيت ثربانتس . ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذي جرح اثبليتا في مبارزة بينهما بعد تراشق بالمعبارات . واتجهت الظنون الى ايسابيل ابنة ثربانتس ، ولهذا حام الشك حول ثربانتس نفسه وأنه هو المتعارك مع اثبليتا فصدر الأمر باعتقال ثربانتس وابنته وآخرين . وبعد تحقيق طويل تبين أن اثبليتا كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة ويدعى جلفان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلفان هذا . وبرغم تبرئة ثربانتس وعائلته الذين أطلق سراحهم ، الا أن الحادث جر عليه الويلات ، إذ كان ينظر الى العائلة بعدم الاحترام والتوقير الكافي ربما بسبب ابنته ايسابيل التي لم تكن حياتها مثالية .

وفي عام ١٦٠٩ انتقل ميجل الى مدريد بعد أن عاد اليها فيليب الثالث . واستقر ثربانتس هناك بقية حياته .

وفي عام ١٦١٣ صدر له « قصص نموذجية » .

وفي عام ١٦١٤ أنتج مجلدا شعريا بعنوان : « رحلة الى بارناسو » .

وبينما ثربانتس يعمل بجد في الجزء الثاني من روايته روع في نفس عام ١٦١٤ بمؤلف مازال مجهولا حتى الآن ينشر تكملة مزيفة لمغامرات دون كيخوتي ووقعها باسم مستعار : آلونسو قرناندث دى أبيانيدا ، ونشر هذا الجزء الثاني لحسابه مستغلا نجاح ثربانتس في روايته دون كيخوتي . وبرغم جراءة وصفاقة هذا المؤلف المجهول وقلة حياته الا أننا قد نكون مدنيين له بأن الجزء الثاني من الرواية قد كتبه ثربانتس بعد أن حفزه ماحدث الى اتمام روايته ليثبت أنه المؤلف الحقيقي لدون كيخوتي . وظهر الجزء الثاني وعرض للبيع في مدريد في السنة التالية .

ونحن نجد رد الفعل لدى ميجل ازاء أبيانيدا الذي كتب دون كيخوتي المزيف واردا في المقدمة التي استهل بها ثربانتس الجزء الثاني من روايته الذي ظهر عام ١٦١٥ ، وفيها يقول :

« كان الله في عونى ! بآية لهفة أيها القارىء لابد أنك تنتظر هذا المقدمة ، متوقعا أن تجد فيها انتقاما من مؤلف دون كيخوتي الثاني ، وهجويا عليه وصبا للشتم فوق رأسه . . . أنت ربما وددت أن أقول عنه انه حمار ، أحمق ، وقح ؟ لكن هذا ليس في نيتي . وليكن في خطيئته عقابه ، وليلزمها في علقه ، وليهنا بها » .



وكم حزن في نفس ميجل ما غيره به أبيانيدا من أنه عجوز وبذراع واحدة ، ونحن نجد صدق لذلك في قوله في نفس مقدمة الجزء الثاني من دون كيخوتي :

« لكن أشد ما ألم نفسي هو أنه يقول عني أنني عجوز وبذراع واحدة، وكأنه كان في مقدوري أن أقف عجلة الزمان فلا تدور بالنسبة الي ، أو كأن يدي تحطمت في حالة من الحانات ، لا في أعظم عمل يستحق الخلود عرفته القرون الماضية ، وتعجب به القرون الحاضرة ، ويمكن أن تحلم برؤيته الأجيال المقبلة . وإذا كانت جراحى لأقلمع في عيون من يرونها ، فهي على الأقل موضع تقدير ممن يعرفون كيف أصيبت بها . ومخاطر الجندي في المعركة تشرفه أكثر من السلامة التي يجدها في الهرم » .

ثم يقول :

« ان الجراح التي يحملها الجندي هي بمثابة تجوم تهديه وتقويه الى سماء الشرف » .

وقد قص ميجل بعض المرح والنكات يغمز بها رغبة أبيانيدا في أن يظل مجهولا . وختم تلك المقدمة قائلا :

« وإن أطيل عليك أيها القارئ العزيز . وإنما انبهك الى ان الجزء الثاني من دون كيخوتي الذي أقدمه اليك الآن ، قد فصل على نفس نموذج الجزء الأول ومن نفس قماشه . وفيه أقدم اليك قدمة مغامرات دون كيخوتي حتى وقاته ودقنه ، كيلا يخطر ببال أحد أن يتسبب اليه أفعالا جديدة . ان أفعاله القديمة تكفي ، وحسب رجل شريف أن يكون قد أفضى اليك بتبا حماقات دون كيخوتي العاقلة ، دون أن يأتي انسان فيحشر نفسه فيها . فوفرة الأشياء الجيدة تدخس من قدرها ، أما ان كانت رديئة فإن ندرتها قد تعطي له بعض التقدير » .

وكان بقية رده على المقلد المزيف هو تأليفه لذلك الجزء الثاني من الرواية والتي فاقت الجزء الأول في عمق النظرة ، وما يفيض به من عذوبة ، ونضج القيم ، والتي تعطي له قوة وفكاهة تبعث بهجة خالدة .

وفي أثناء حياة ميجل ظهرت روايته في فرنسا وإيطاليا وإنجلترا والمانيا وهولندا وبولندا والسويد ثم انتشرت ترجمات أخرى لا تعد ولا تحصى .

وقد أصبح دون كيخوتي رمزا يجسد عصرا انتقاليا ، زد على ذلك أن أبطال الرواية أصبحوا مرآة لكل من يقرأهم ، ولهذا خلدوا حتى أيامنا هذه .

وظهرت لميجل مجموعة من المسرحيات بعنوان : « ثمان كوميديات وثمانية فواصل هزلية جديدة لم تعرض أبدا » .

طبقت شهرة كاتبنا الآفاق كعلم بارز من أعلام الأدب في الأعوام الأخيرة من حياته إلا أنه ظل يعاني من الفقر وشظف العيش حتى آخر نسمة له . لقد أته الشهرة متأخرة . . فقد أنجز عمله وانتهى مشواره .

واستمر ميجل الذي بلغ التاسعة والستين من عمره يعمل كعبدنا به دائما رغم أنه كان طريح الفراش بعد أن ساءت صحته وتساقطت أسنانه . وذات ليلة خفت ضوء الشموع المحترقة دون أن يلحظ ذلك . وما جاء فجر الثالث والعشرين من أبريل عام ١٦١٦ حتى أسلم الروح وحيدا في ساعاته الأخيرة كما كان خلال حياته التي لم يذق خلالها السعادة إلا لمحات خاطفة . . ومع ذلك لم يخرج انسان هذا القدر من البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثريانتس .

وقبيل وفاته ببضعة أيام كان قد انتهى من رواية « أعمال برسيليس وسيجيسموند » والتي نشرت فيما بعد في عام ١٦١٧ .

ويقال انه يوم شيع جثمانه سار خلفه حشد هائل من الناس وازدحمت الطرقات بالرجال والنساء وقد ركعوا أمام المشهد الجليل . . وتجاور الأمراء والنبلاء والدماء والمطارنة والرهبان جنبا الى جنب وقد آخى الحزن بينهم جميعا .

وعندما توقفت أجراس الكنائس عن ارسال دقاتها الحزينة ، تفرقت الجموع وغابوا في زحمة الحياة .

ومن العجيب أن قبر ثريانتس غير معروف ، وهو الرجل الذي كرمته اسبانيا اليوم . . ففي معظم المدن والقرى والساكن يوجد ميدان وشارع هام يحمل اسمه ، وأقيمت له مئات من النصب التذكارية ، بعد أن ظل منسيا رديحا طويلا من الزمن .

واذا كان مثنوى ميجل مجهولا ، ومنبت رأسه غير معروف تماما ، فان دون كيخوتي مازال عائشا ، ومن خلاله أفلت ميجل من طوفان الزمن وسطر اسمه في سجل الخالدين . وكما قال ثريانتس في خاتمة الجزء الثاني من روايته ، على لسان سيدي حامد بن النجيلي ، موجهها كلماته الى قلمه :

« أي قلمي الصغير . . ابق معلقا في هذا المسمار بهذا السلك النحاسي . وستبقى قرونا طويلة اذا لم يتزعجك مؤرخون لصوهم ليدنسوك . لكن قبل أن يفعلوا ذلك قل لهم بأعلى صوتك . . كفوا أيديكم أيها الأوغاد . . »

ثم يقول :

« قمن أجلى أنا ولد دون كيخوتي ، وأنا ولدت من أجله . وكان عليه أن يعمل ، وكان على أن أكتب . . فنحن الاثنان واحد . . وداعا ! »



## الفصل الثالث

### سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ في حياة ثريانتس

١٤٥٧

ولد ميغل دي ثريانتس بن رودريجو دي ثريانتس وليونور دي كورتيناس • وكان الرابع بين سبعة أبناء • عمد في التاسع من أكتوبر •

١٥٦٤ - ١٥٦٥

درس في أشبيلية لدى اليسوعيين ؟

١٥٦٨ - ١٥٦٩

نشرت أشعار ثريانتس في ذكرى وفاة ايزابيل دي فالوا الزوجة الثالثة لفيليب الثاني • وقد أعدها للطبع والنشر لوبيث دي أويوس • وكان ثريانتس تلميذا له •

١٥٦٩

في روما في خدمة المونسنيور أكوافيفا الذي رقى الى كاردينال في ١٧ مايو عام ١٥٧٠ •

١٥٧١

بطولة عسكرية فوق سطح الماركيزا في معركة ليبانتو في السابع من أكتوبر ، التي انتصر فيها دون خوان النمساوي ، الابن غير الشرعي لشارل الخامس عاهل اسبانيا ، على الأتراك • وفي هذه المعركة فقد ميغل استعمال يده اليسرى •

١٥٧٥

بعد اقامة مستمرة في ايطاليا ، أبحر على ظهر السفينة « الشمس » مع أخيه رودريجو •

أسرهما القراصنة ورحلوهما إلى الجزائر ضمن عبيد دالي مامي  
 • يوناني اعتنق الاسلام •

١٥٧٥ - ١٥٨٠

السير في الجزائر حيث دبر أربع محاولات للهروب مع رفاقه من  
 الأسرى الأوروبيين بسعة حيلة ودهاء وبطولة إلا أنها باءت بالفشل •

١٥٧٧

إطلاق سراح رودريجو بعد أن دفعت أسرته فديته ، وغادر إسبانيا  
 ليدير عملية إنقاذ شقيقه بالقوة من السجن ، ولكنها فشلت •

١٥٨٠

دفع فدية ثريانتس بوساطة الراهب الثالوثي خوان خيل •

١٥٨١ - ١٥٨٧

بعد القيام بمهام سرية في البرتغال وأوران ، حاول السير في ركاب  
 الأدب في مدريد ككاتب مسرحي فلم يلق إلا نجاحا ضئيلا •

علاقة غرامية مع آنا فرانكا دي روخاس والدة ابنته غير الشرعية  
 • إيسابيل دي سابدرا •

١٥٨٤

طبع «لجالاتيا» وهي رواية رعوية •

تزوج كاتالينا دي سالاثار بلاثيوس • فتاة تبلغ من العمر ثمانية  
 عشر عاما ، وكانت تصغره بما يوازي نصف عمره تقريبا •

١٥٨٥

١٢ يونيو : وفاة والد ثريانتس •

١٥٨٧ - ١٥٩٥

عين مأمورا للتعيينات في الأرمادا ثم جابيا متجولا للمؤن والأقوات  
 وأمضى معظم وقته في الأندلس •

تورط في مشاكل قانونية ومالية بخصوص حفظ حساباته •

١٥٩٣

١٩ أكتوبر : وفاة والدة ثريانتس

١٥٩٧

سجن في أشبيلية على زعم أنه أساء استعمال وظيفته •

١٥٩٨

وفاة آنا فرانكا دي روخاس •



١٥٩٩

التهمت ابنته ايسابيل بخدمة شقيقته ماجدالينا .

١٦٠٠

مصرع رودريجو شقيق ثريانتس في ساحة الوغى .

١٦٠٢

ربما دخل السجن مرة أخرى بسبب حسابات قديمة .

١٦٠٤

بدأت كلمتا دون كيخوتي تنتشران . فقد ذكرت عرضا في خطاب بعث به الأديب الشهير لوي دي بيجا في ١٤ أغسطس الى صديق له قائلا : « ليس هناك شاعر أسوأ من ثريانتس ، ولا شيء أسخف من أن تمتدح الدون كيخوتي » . وكان دي بيجا يبغض ثريانتس ولا يرى فيه الا دعيا على الأدب . ولم تكن الرواية طبع بعد ، ولكن يبدو أن الأيدي تداولتها مخطوطة .

منحت الرواية حق الطبع في ٢٦ سبتمبر .

١٦٠٥

نشرت رواية دون كيخوتي ( الجزء الأول ) وبيعت حقوق الطبع الى الناشر .

ظهرت طبعات مسروقة في البرتغال . وظهرت الطبعة الثانية في مدريد مؤخرا في نفس العام .

تفجرت فضيحة مغممة في باليادوليد توحى بأن شقيقتيه وابنته غير الشرعية يعشن حياة سائبة . ولكن ثريانتس كان بريئا .

١٦٠٨

تزوجت ايسابيل زوجا ثريا ، ولو أن ذلك كان مشوبا بظروف من الخداع والجشع .

١٦٠٩

ثريانتس ينضم الى جمعية عبيد القربان المقدس في مدريد . وقد انضم بعض افراد أسرته اليها .

وفاة أندريا الشقيقة الكبرى لثريانتس في التاسع من أكتوبر .

١٦١١

وفاة ماجدالينا الشقيقة الصغرى لثريانتس في الثامن والعشرين من يناير .

١٦١٣

نشرت « قصص نموذجية » .  
أصبح ثريانتس عضوا من الدرجة الثالثة في رهبنة الفرانشيسكان

في الكالا دي أناريس • وعضو الدرجة الثالثة يشارك في حياتها الدينية ولكنه غير ملزم بما يلزم به أفرادها أنفسهم •

• معاش تقاعد من كونت ليموس

١٦١٤

• نشرت « رحلة الى بارناسو »

ظهرت رواية دون كيخوتي المزيف وهي بتمة مقلدة كاذبة للجزء الأول من رواية ثريانتس ، طبعت في تاراجونا بوساطة شخص مجهول ، وربما تحت الاسم المستعار ألونسو فرناندث دي آبيانيدا •

١٦١٥

نشر الجزء الثاني من دون كيخوتي الذي طبع في ديسمبر • وأيضا نشر في نفس العام « ثمان مسرحيات وثمانية فواصل هزلية جديدة لم يسبق عرضها من قبل » •

١٦١٦

لفظ ثريانتس أنفاسه الأخيرة في مدريد يوم السبت ، الثالث والعشرين من أبريل ، تاركا أرملته وأحد الأخوة الرهبان كمنفذى وصيته •

١٦١٧

• طبعت بعد وفاته « أعمال برسيليس وسيجيسموند » •



## **الباب الثاني**

### **دراسة تحليلية لنص الرواية**

**الفصل الأول : العناصر الرئيسية للرواية**

**الفصل الثاني : شخصيات الرواية**

**الفصل الثالث : عرض آراء الكتاب والنقاد في العمل**





## الباب الثاني

بلغ عدد الشخصيات ستمائة وتسع وستين شخصية وردت في رواية « الذبيل العبقري دون كيخوتي دي لامانتشا » التي صاغها ميغل دي ثريانتس في أربعمائة وواحدة وستين ألف كلمة ، فضلا عن أن ثريانتس كان ولوعا بالتلاعب بأسماء شخصياته فرأيناها يسمى تابعه سانتشوس باسم بيرنخينا ، وكذلك يستخدم أسماء أصدقائه ووالديه . وليس هذا فحسب ، بل وصل التلاعب الى اسمه نفسه فأطلق على مؤلف رواية « دون كيخوتي » اسما عربيا هو ابن النجلى . وفي هذا ما قد يبعث على حيرة الباحث والناقد والمحلل ، إذ لو تصورنا أننا كتبنا صفحة واحدة لا غير عن كل شخصية لوصل عدد صفحات الباب الثاني في هذا الكتاب الى ٦٦٩ صفحة !

وقد اكتفينا في دراستنا التحليلية لنص الرواية بمناقشة العناصر الرئيسية لها في الفصل الأول من هذا الباب . ووقع اختيارنا في الفصل الثاني على الشخصيات الرئيسية التي رأينا أنها ذات أهمية ، ولها دلالتها ومغزاها ، فتناولناها بالتحليل .

وأوردنا الفصل الثالث لعرض آراء الكتاب والمعلقون والشراح والنقاد في العمل ، والذين وجدوا كل أنواع المعاني في الرواية رغم أن مؤلفها ميغل دي ثريانتس نفسه يحدث القارئ في مقدمة روايته على لسان صديق له بأن ألفاها بسيطة صافية أمينة حسنة السبك ، وفواصيها رنانة ، ومعانيها مفهومة خالية من العبث والغموض ، وحكايتها مسلية ،

وقراءتها تثير الضحك في الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البسطاء ، وتدعو الى اعجاب الحاذقين بأبداعها ، ولا يرى الحكيم مذوحة من اطرائها • ويعترف مؤلف « دون كيخوتي » بأنه لم يقصد من روايته سوى شجب هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية وما فيها من عبث وهوس خيالي •

ولم نقتصر في عرض آراء الكتاب والنقاد على أسبانيا فحسب ، بل حرصنا على انتقائهم من شتى البلدان والدول لعل الصورة تصبح أوضح وأكمل •



## الفصل الأول

### العناصر الرئيسية للرواية

- ١ -

#### هذه الرواية

« دون كيخوتي » هي قصة نبيل ريفي عجوز يدعى دون ألونسو كيخادا أو كيسادا قضى عمره متعطلا كسولا في قرية صغيرة بأقليم المانتشا . وكانت تسليته الوحيدة قراءة كتب الفروسية ومغامرات الأبطال . . . وقد امتلأ خياله منذ صغره ، كما امتلأ خيال ثريانتس الذي أبدعه ، بكل ما قرأ في قصص الفروسية ، وجن جنونه شغفا بها حتى باع أرضه ليشتري كتباً ، وامتلات نفسه خيالات وأوهاما ، وألحت عليه صور المعارك ومشاهد الحب والغرام .

وفي أثناء هذه القراءات يفقد الإدراك السليم ، ويتخذ من الخيال حقيقة .

رقة دفعه جنونه الى تنفيذ ما تصوره في خياله ، فترك منزله ، ويختار لنفسه اسم دون كيخوتي دي لمانتشيا ، وقرر أن يجوب هذه المقاطعة ممطيا صهوة حصانه الهزيل الأعرج العجوز مثله ، وقد ارتدى زى فارس متجول ، وأمسك رمحا طويلا ، وعلق السيف في حمائله . . . خرج ليلقى الظالمين وقلبه عامر بما خلقت من أجله الأقدار ، وهو اصلاح ما في العالم من شرور .

وتقص الرواية كل ما حدث لبطلنا خلال هذا المشوار الطويل ، وتتكون من مائة وأربعة وعشرين فصلا وتنقسم الى جزأين :

## الجزء الأول :

ريمتد حتى الفصل الثاني والخمسين • وقد كتب في السنوات ما بين ١٥٩٨ ، ١٦٠٤ •

## الجزء الثاني :

وينكون من اثنين وسبعين فصلا • وقد كتب فيما بعد ، وطبع عام ١٦١٥ •

وفي مقدمة الجزء الأول الذي نشر في مدريد عام ١٦٠٥ يؤكد ثربانتس على أنه ليس الا مترجما للقصة التي وجدها في كتاب باللغة العربية ينسب تأليفه الى رجل عربي يسميه سيدي حامد بن النجيلي • ولكن هناك أمثلة عديدة لما أجأ اليه ثربانتس لاضفاء صفة الغموض على الرواية ، وليخلع على كتابه طرافة وأصالة • الا اذا عثرنا على أدلة ووثائق تثبت ما يقوله مستقبلا •

ويؤكد ثربانتس في المقدمة نفسها الحقيقة التاريخية لشخصية بطله •• دون كيخوتي ، ويقول ان جميع سكان مقاطعة المانتشا يذكرون عنه انه كان « عف عاشق وأشجع فارس شوهد في هذه المنطقة منذ زمن طويل » •

وحتى نفهم هذا المديح والاطراء ، يجب أن نعرف، أن روايات الفروسية في أسبانيا في القرن السادس عشر كانت هواية جماعية وفكرة قومية متسلطة أكثر مما تكون نوعا أدبيا • ان بطل هذه الروايات هو خليفة عالم الفروسية كما كان موجودا في عهد الصليبيين • وكان ذلك انطلاقا الى عالم الأحلام الجميلة ، وخروجا من الجو الذي كانت تمرقه الأزمات السياسية والدينية التي شغلت عهد فيليب الثاني • فهؤلاء الفرسان الشجعان الذين وهبوا أنفسهم للرب والوطن كانوا محبين الى عامة الشعب •

وكانت أسبانيا تتمثل في هذا الفارس الذي يستطيع أن يهزم المخلوقات الخرافية ، وأن يتسلق أعلى القمم ، ويواجه أعمال السحر والشعوذة ، وينجو من الأرض أخطر أعدائها لنصرة الحق والعدل •

وقد أدت هذه الهواية الى ظهور الكثير من قصص المغامرات التي كان الناس يتخاطفونها • ولم يسلم أحد من جاذبية هذا الأدب رغم تنبيهات الكنيسة التي لم تكف عن التذكير بتأثيرها الخطير على الشباب •

نقد أدرك ثربانتس ما تحمله هذه الهواية في نفس الوقت من تفاهة وتأثير ضار ، فأراد، أن يضع روايته في قالب من السخرية اللاذعة ، فقدم لنا مغامرات بطله كما أمكن لخياله أن يقدمها ، ونراه يقول في مقدمة



الجزء الأول من الرواية : « أيها القارئ الخلى ! تستطيع أن تصدقني دون أن تستحلفني اذا قلت لك اني كنت أود لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلي، أن يكون أجمل وأروع وأظرف ما يمكن تخيله . بيد أني لم أقو على مخالفة نظام الطبيعة الذي يقضى أن يلد الشيء شبيهه » . بينما كان الكتاب الآخرون يكتبون قصص الفروسية بحماس وعن اقتناع : « أن الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجى السموات وخرير الينابيع ودعة الروح — كل أولئك ترد عقم ربوات الوحي خصباً بالغاً ، وتهب الدنيا ثماراً مملوءة رضى وأعجاباً ، » .

شكنا سرح لذا ميجال دى ثريانتس الظروف التي ولد فيها دون كيخوتي .

ودون كيخوتي مخلوق غريب الأطوار لم يكن فارساً ولكنه يريد التشبه بواحد من الفرسان كأنه مثل أعلى يصعب الوصول اليه ، وقصة حياته هي قصة الكفاح الذي ينبغي على الانسان أن يخوضه اذا أراد التوفيق بين المثل الأعلى وبين تفاهة الحياة اليومية الواقعية .

ولزيادة هذا التباين والتناقض خلق ثريانتس شخصية سانتشو بانثا السائس الذي يجمع بين البلاهة والتعقل ، الذي يجيب بصوت أرضي على خيالات سيده ، ويختتم ثريانتس مقدمته بهذه الكلمات : « أريد منك أيها القارئ أن تشكرني عندما تتعرف بسانتشو بانثا وفيه ستري فيما اعتقد ، كل مناقب المهنة مجتمعة بعد أن كانت مشتتة في هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية » .

— ٦ —

## مولد قيسارس

تبدأ المغامرة بكلمة عن دون ألونسو كيخادا أو كيسادا ، أحد النبلاء الريفيين الذين يعيشون في ناحية من نواحي إقليم المانتشا . وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكراً ، مولعاً بالصيد ، وهو ممن في مسلحتهم رمح ، ولهم ترس عتيق وبرذون ضامر وكلب سلوقي . ويقضى الأوقات التي لا عمل فيها ، أعنى طوال

العام تقريبا في الانكباب على قراءة كتب الفروسية بلذة ونهم يبلغان حدا جعله يكاد ينسى الخروج للصيد وإدارة أمواله .

وغرق في قراءاته ، وامتلا خياله بكل ما قرأ في هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدى والمعارك والجروح ولفترات المجاملة، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ، وامتلا وهمه يقينا بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها .

وأخيرا وقد فقد صوابه ، استبدت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه الدنيا : فقد رأى من اللائق بل من الضروري ، سسوا لتألق مجده ولخدمة وطنه أن يصبح فارسا جوالا ، فيسعى في مذاكبتها ، يفرسه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه : فيصالح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار في كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحى أبدا .

وحتى نرى مدى امتلاء خياله بقصص الفروسية ، سنستمع الى ما قاله ردا على سؤال عن معنى الفرسان الجواله وجهه اليه سيد يدعى فيقلدو قابله في الطريق :

« أولم تقرأوا بإسادة أخبار انجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة ، والذي نسميه في لغتنا الأسبانية باسم أرتوس ، وما يقال عنه في السنة القديمة المروية في مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمت أيضا ، وإنما تحول بفعل السحر الى غراب ، وأنه سيأتى ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه .

نعم ! في عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة المسماة « المائدة المستديرة » وجرت الوقائع الغرامية بين لونسوت وبين الملكة جينفيرا .

ومنذ ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر في شتى أصقاع الدنيا ، ففي أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أمايس الغالى بفضل مغامراته ، هو وابناؤه جميعا وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركاني ، ذلك الآخر انذى لن يبالغ المرء مهما أطنب في مديحه ونعنى به تيرانتى الأبيض ، وأخيرا وفي عصرنا هذا تقريبا ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذى لا يقهر دون بليناس الرومى . هذا ياسيدى معنى أن يكون المرء فارسا جوالا ، وتلك هي طريقة الفرسان التى حدثتك عنها ، واليه انتسبت وان كنت محملا بالخطايا ، مؤمنا بكل ما آمن به أولئك الفرسان الذين أثبت على ذكرهم . ومن أجل هذا أسعى في هذه القفار الموحشة ، باحثا عن المغامرات ، عاقد العزم على المخاطرة بذراعى وحياتى في أخطر ماعسى .



أن يلقى بى فيه المصير ، مادام فى سبيل اغاثة الملهوفين واسعاف المحتاجين » .

وراح صاحبنا النبيل ،نشوانا بهذه الأفكار الحلوة وما فيها من اغراء لا يقاوم ، راح يبادر الى وضع هذه الأمنية موضع التنفيذ . فكان أول شىء عمله هو أن ينظف مشكا ( مجموعة من الأسلحة ) كان ملكا لأجداده ثم ظل قابعا فى ركن من الأركان منذ قرون فريسة للصنادير والرتوبة ، فغسله وحكه وأصلحه بقدر ما تهيأ له . ثم راح يفتش عن برذونه . . . وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء ، فانه قرأى له أن فرس الاسكندر المدعو بوكفالموس لا يدانيه . وظل أربعة أيام يتخيل أى اسم يعطيه لهذا البرذون . وكان العقل يقضى بأنه مادام سيده قد غير من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسما فخما رنانا حسبا يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التى اتخذها . وهكذا بعد أن استعرض أسماء ألفها ثم محاما ، وقضما ثم زادهما ، وركبها وحلها فى ذاكرته وخياله ، توصل أخيرا الى تسميته باسم : روثينانتى .

ولما أعطى فرسه هذا الاسم الذى وافق مزاجه ، ود أن يعطى لنفسه اسما ، فأنفق ثمانية أيام أخرى فى هذا الأمر ، توصل فى نهايتها الى أن يسمى نفسه باسم دون كيخوتى ! .

ثم تذكر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يلقب باسم « أماديس » فحسب ، بل أضاف الى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلقب بلقب : أماديس الغالى ، فشاء أيضا ، شأن كل فارس حقيقى ، أن يضيف اسم بلده الى اسمه ، ولهذا تسمى « دون كيخوتى دى لامانتشا » وخيل اليه بهذا أنه دل بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة اليه .

حين لدون كيخوتى أن المشك ينقصه شىء مهم وهو أنه لم يكن عليه خوذة كاملة بل بصلة فحسب ، والخوذة غطاء حديدى للرأس مستدير نصف كروى يلبسه المقاتل ، أما البصلة فكانت بيضا مرتفع الجوانب . وقد عالج دون كيخوتى الأمر بمهارته بأن أتى بورق مقوى وصنع منه شبه نصف خوذة عشقها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة . وأراد أن يجرب اذا كانت ستصمد لحد السيف فأهوى به عليها بضربتين كانت الأولى كافية لأن تحطم فى لحظة عمل أسبوع . فتضايق من سهولة تمزيقها ، ولكى يطمئن على هذا الخطر شرع فى عملها من جديد ، وبطنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ، وأعتقد أنها خوذة من أنقى الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى .

ولما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسما .

اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم الا البحث عن سيدة ليعشيقها .  
 وغلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب عندما وجد من سيعطيها اسم  
 سيدته . ان يقال ان هذه كانت فتاة فلاحه مليحة الوجه تسكن في قرية  
 مجاورة لقريته ، وكان يعشيقها حيناً من الزمان ، وان كانت هي لم  
 تعرف عن هذا الأمر شيئاً ولم يكن يعنيها في قليل أو كثير . وكانت تدعى  
 الدونثا لورنثو ، ناستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التي سيطرت  
 على أفكاره . فبحث لها عن اسم لا يبعد كثيراً عن اسمها ، اسم يشتم منه  
 ويمثل السيدة العظيمة والأميرة ، فلقبها بلقب : دولثينيا دل توبوسو ،  
 لأنها كانت من قرية توبوسو ، وقد بدا له اسماً موسيقياً نادراً ممتازاً ،  
 لا يقل عمقا في التعبير عن سائر الأسماء التي أطلقها على نفسه وعلى  
 أشياءه .

ولما تجهز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفيذ ما  
 انتواه . ودفعه الى الاسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير اذا تأخر ،  
 فكم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء ، وأن يعالج  
 من اهانات ، وأن يصحح من اساءات ، وأن يسدد من ديون ! ولهذا ،  
 ودون أن يسر لأحد بما انتواه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم حار  
 شديد القيظ من أيام شهر يولبر قبل أن يمد الفجر لسانه الدقيق ، وتسليح  
 بكل سلاحه ، وامتطى صهوة روثنانتي ، وارتدى خوذته الغريبة ، وأمسك  
 برمح ، وخرج الى الحقول من باب خلفي ناحية فناء الدواجن فرحاً جداً  
 إذ شعر بالسهولة التي استهل بها تنفيذ غرضه النبيل وهو في طريقه لبدء  
 مغامرته العجيبة .

والرواية تسلك في سردها ثلاثة طرق متشابكة في تناسق منتظم :

### الطريق الأول :

يتابع مغامرات دون كيخوتي مع شيء من انحرافات بعض مغامرات  
 الشخصيات التي يقابلها فارسنا .

### الطريق الثاني :

يشمل مجموعة من اللقاءات التي من أهدافها إبراز صفات بعض  
 الشخصيات ، والتي تنتهي بالأسلوب الأدبي الساخر .

### الطريق الثالث :

عبارة عن القصص التي تقوم شخصيات مختلفة بسردها في أثناء  
 فترة راحة أو في إحدى السهرات .



## عالم الطواحين الهوائية

ان تصفة مغامرات دون كيخوتي الشخصية تقع في خمسة وعشرين فصلا من الجزء الأول ومثلها من الجزء الثاني ، وهي مليئة بالخيال تحكي أحداثا في منتهى الغرابة وأساس كل هذه الأحداث الجنون ، وهو جنون من نوع خاص تحدوه الرغبة في اصفاء رداء من النبالة والجمال على عالم تافه خشن فقط .

ارتفعت الشمس في كبد السماء ، واتقدت أشعتها وظل فارسنا سائرا اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق الذكر ، حتى اذا ما وافى المغيب كان هو وحصانه يتساقطان اعياء ويموتان ظمأ . فراح يتفرس في المكان من كل ناحية على يجد المأوى والعلاج ، فلمح غير بعيد من الطريق الذي كان يسير فيه فندقا فحث الخطى حتى بلغه ، وحط رحاله أمام فندق ريفي عادي . وتصادف أن وقفت امرأتان من بنات الهوى عند الباب ، وكانتا في الطريق الى أشبيلية مع بعض البغالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة . وعندما اقترب من الباب وشاهد البنيتين ، بدتا له آنستين فانتنتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان . ولكنهما ما كادتتا تبصرانه هذا القادم المسلح بالرمح والبرس حتى أسرعتا الى داخل الفندق وقد روعهما منظره . فاذا به يرفع حافة الخوذة الكرتونية ، ويكشف عن وجهه الجاف الأغبر ، قائلا في رقة : « لاتراعا يا صاحبتى العصمة ، ولا تهربا ، فان نظام الفروسية الذي انتسب اليه يقضى بعدم اهانة أحد ، خصوصا ان كان مثلكما آنستين من ذوات الحسب » . ولكنهما عندما سمعتاه يدعوهما باسم « آنستين » وهذا أمر بعيد جدا عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك الأمر الذي جعل دون كيخوتي يغضب ويقول لهما بلهجة جادة : « الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ، غير انى لا أقول لكما هذا لأضايقكما أو أعكر صفو سروركما ، فسرورى انما هو بخدمتكما » .

فزادت هذه اللهجة التي لم يفهماها وعبوس وجه دون كيخوتي من ضحكاتهما ومن غضبه ، غير أن صاحب الفندق ظهر في تلك اللحظة ، وكان رجلا بدينا وديعا ، فقال : « أى سيدى الفارس ! ان كنت تبحث عن مأوى ، دون فراش فستجد سائر ما تبغى موفورا جدا » . وأجاب الفارس : « أى شىء يكفينى يا صاحب القصر » .

وهنا يظهر خيال دون كيخوتي بأن يحول كل شىء ويخلق ما ليس موجودا كما توحى به قوة خياله ، فالفندق المتواضع يصبح قصرا لا ينقصه شىء ، وخاله قصرا له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ،

ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفاصيل توصف بها أمثال،  
تلك القصور على غرار ما ترا .

أعدت لدون كيخوتى مائدة عند باب الفندق ، وأحضر له صاحبه  
قطعة من سمك البكلاه رديئة الطهى . ولكن الأمر الذى كان يقلقه هو أنه  
لم يسلح فارسا ، أن خيل اليه أنه لاحق له شرعا فى المغامرة قبل أن يتلقى  
مراسم الدخول فى نظام الفروسية ، فعجل بالفراغ من عشاءه الهزيل ،  
والتمس من صاحب القصر ( الفندق ) أن يسلحه فارسا .

يكتشف المحيطون بدون كيخوتى جنونه ، وكان صاحب الفندق  
خبثا الى حد ما ، فقرر أن يتابعه على هواه لكى يهيم زادا من الضحك  
تلك الليلة . وأجاب دون كيخوتى بأنه على حق قام فى أمنيته هذه ، وأن  
هذا القرار طبيعى ، وأردف قائلا انه كان فى سننى شبابه يزاوول هذه المهمة  
الشريفة ، فطاف بأرجاء الدنيا سعيا وراء المغامرات ، وفى النهاية جاء  
الى قصره هذا يعيش معتزلا ، ويستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من  
أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشيء الا لأنه يحبهم حبا جما . وأسرع  
صاحب الفندق بإجراء المراسم والطقوس ليمنح دون كيخوتى رتبة فارس،  
فأمر هذا الأخير أن يجثو على ركبتيه ، ثم راحل يتلو من دفتره ، الذى  
سجل بهيهما أعطاه من تبن وشعير اللغاليين ، كأنما يتلو صلوات ، وفى  
أثناء القراءة رفع يده وصنعه على قفاه صفقة قوية ، ثم ضربه بسيفه  
ضربة أخرى على كتفه ، وأمر احدى السيدتين بأن تمنطقه بالسيف  
ففعلت ما أمرت به برشاقة وحشمة بالغتين حتى تتمالك من الضحك فى  
كل نقطة من نقاط هذه المراسم ، متمنية له من الله أن يجعله فارسا سعيدا  
وافر الحظ فى المعارك . ووضعت السيدة الأخرى المهماز فى قدميه .

ولما انتهت هذه المراسم ، شد دون كيخوتى السرج على روثينائتى  
فى عجلة ، ووثب ممتطيا صهوة جواده واحتضن صاحب القصر ( الفندق )  
وأسرع راحلا بحثا عن المغامرات .

وهكذا تعود أسباب تعاسة الفارس الى رغبته فى عدم رؤية الواقع  
رؤية سليمة ، ولكن حسب خياله ، وكما يريد هو أن يكون .

رى الطريق اكتشف حشدا من التجار ، وكانوا ستة يحملون  
مظلاتهم ، ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسيرون  
على أقدامهم . ولم يكد دون كيخوتى يلمحهم حتى خيل اليه أنه بأزاء  
مغامرة جديدة ، فوقف فى وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرسان  
الجوالين كما حسبهم . ولما وصلوا الى مرمى السمع والبصر صاح دون  
كيخوتى بلهجة ملؤها العجرفة : « فليقف كل فى مكانه ، اذا لم يعترف  
بأنه لا يوجد فى الدنيا بأسرها فتاة أجمل من امبراطورة المنتشا العديمة  
النظير دولثينيا دل توبوسو ! » .



ولما رفضوا أن يمتدحوا جمال فتاة أحلامه ، وجه لهم السساب  
واندفع مرخيا رمحه في وجه أحدهم ، وكان مهذارا تمكن من اغاظته  
واثارة غضبه ، ولولا أن روئينانتي كبا لأصاب التاجر ضرر بالغ . .  
وعندما هوى الفرس على الأرضلقى بسيده يدور بعيدا فوق التراب .  
وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع أبدا لأنه كان مثقلا بالرمح والترس  
والمهازين والبصلة وسلاحه العتيق . وفي خلال محاولاته اليائسة للنهوض  
وجه حديثه اليهم قائلا : « لا تهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس  
انتظروا ، فما بسببي ولكن بسبب فرسى وقعت » .

غير أن أحد خدم البغال من أتباع التجار ،الذين تبينوا من وجهه  
دون كيخوتي وكلماته جنون دساحبها ، لم يستطع أن يتحمل هذه الكلمات  
المليئة بالتحدي والغطرسة ، فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو  
أربع قطع ، وأهوى باحداها على دون كيخوتي وانهال عليه بالضرب  
المبرح في شدة وقسوة دون أن يستمتع لنداء أسياده له بألا يسرف في  
الضرب وأن يدعه وشأنه . ولكنه لم يشأ أن يخلى عنه قبل أن يصب عليه  
جام غضبه . ثم جمع سائر قطع الرمح ، وكسرها الواحدة بعد الأخرى  
على جسم هذا الراقد المسكين الذي ظل طوال هذه العاصفة من الضرب  
المتهاوى عليه فاغرا فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ، إذ خالهم  
كذلك .

وأخيرا تعب البغال من الضرب ، وتابع التجار سيرهم ، وهم  
يحملون في جعبتهم ما يصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا  
المجنون المسكين الذي شبع ضربا . ولما رأى هذا نفسه وحده حارل  
النهوض دون جدوى . . وأنى له أن يستطيع ذلك وقد طحن ومزق . .  
ورغم هذا كان مسرورا راضيا ، إذ رأى في هذه المحنة أمرا شائعا لدى  
الفرسان الجواله ، ونسب الخطأ كله الى فرسه .

وشاء القدر في تلك اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضسيعته وكان  
جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . واستطاع الرجل  
بمشقة بالغة أن يركبه على حماره إذ بدا له ركوبة أكثر وداعة . وبعد  
ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها فوق روئينانتي  
. . وأمسك هذا من عنانه وحماره من مقوده وسار في اتجاه قريته الى  
أن بلغها ساعة المغيب . انتظر الفلاح حتى يكتمل الظلام كي لا يرى الناس  
هذا السيد المحطم على هذه الحال البائسة . فلما أرخى الليل سدوله  
دخل القرية وأوصل دون كيخوتي الى منزله .

استدعى دون كيخوتي أحد جيرانه وكان فلاحا طيبا يدعى ساندش  
بانثا يعيش في فقر ، وراح يقص عليه ويحاول اقناعه بأذلا له الوعود  
المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيرا أن يرحل معه وأن يعمل سائسا  
له وحاملا لسلاحه . ومن بين ماقاله له أن يستعد لمصاحبته بقلب سليم ،

انذ قد تقع له مغامرته فيستولى في لحظة على جزيرة ، يعينه حاكما لها مدة حياته . فأغرت هذه الوعود وأمثالها سانتشو بانثا فترك زوجته وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره . عندئذ احتال دون كيخوتي لكي يحصل على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغا ضئولا . وتجهز بترس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصبح ما استطاع خوذته المحطمة . ثم أخبر حامل سلالته سانتشو باليوم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود بما يراه ضروريا . وأوصاه أن يحمل معه خرجا ، فوعد سانتشو بذلك وأضاف مستأذنا في أن يسير خلفه على حمار . فراح دون كيخوتي يفكر ليتذكر ما اذا كان أحد الفرسان الجواله قد استطاع معه حامل سلاح بركب حمارا . لم يقرأ فارسنا أن تابعي الفرسان يركبون حميرا ، وشعر أن في ذلك مهانة لمقام الفروسية الجليل ، وبعد لأي وافق على السماح لسانتشو بالخروج معه على ظهر الحمار ، مقترحا في نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى وافت الفرصة ، وذلك بأن يندزع الفرس من أول فارس سىء الأدب يعترض طريقه . ودون أن يودع أى منهما أهل بيته ، خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد . وغذيا السير طوال الليل حتى اذا ما أقبل الضيغ كانا على يقين من أن أحدا ان يكتشف أمرهما ويلحق بهما حتى لو عدا في أثرهما .

وتبدأ المغامرة المأمولة ان يصادفهم جبابرة عتاة فقد اكتشفوا ثلاثين أو أربعين عملاقا ، لم يكن دون كيخوتي يراها حتى قال لحامل سلالته :

— ان الحظ يسوق أدورنا خيرا مما تستطيعه رغبتنا . انظر يا صديقي سانتشو بانثا : أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة او يزيدون ، أرى أن أنازلهم وأسلمهم الحياة جميعا بلا استثناء . وبأسلابهم تبدأ ثورتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفي سبيل الله ابادة هذه العصاة الشريرة من وجه الأرض .

نسأله سانتشو بانثا قائلا :

— أى مردة ؟

فأجابه دون كيخوتي :

— أولئك الذين تبصرهم هناك بأنزعتهم الطوال ان منهم من يبلغ طول ذراعه قرابة فرسخين .

واذا بسانتشو يقول محدثا :

— انتبه جنابك ، فذلك التى ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين



هوائية ، وما يبدو أنه أذرع ليس الا اجنحتها التي تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة .

فأجابه دون كيخوتى :

- هذا يدل تماما على أنك لست خبيرا بشئون المغامرات ، هذه مرده ، أقول لك . وإذا كنت خائفا فاذهب عنى وأقم الصلاة بينما أنازلها أنا فى معركة رهيبه غير متكافئة .

ولكن فرسه روثينانتى دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سانتشو الذى صرخ مؤكدا له أن هذه طواحين هوائية وليست مرده تلك التى راح يهاجمها . أما هو فقد رسخ فى ذهنه أنها مرده الى حد جعله لا يسمع صراخ حامل سلاحه سانتشو ، بل ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب . على عكس هذا راح يعدو وهو يصيح بصوت مدو :

- لا تهربى ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسه ، فان من يهاجمك ليس الا فارسا واحدا .

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دولثينيا ، داعيا اياها أن تعينه فى هذه المعمة الخطرة ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشرعا رمحه ، يركض بأقصى ما يستطيعه روثينانتى فى وجه أول طاحونة صادفته ، بيد أنه فى اللحظة التى خرق فيها الجناح بضربة قاصصة من رمحه ، دفعته الريح بعنف حطم الرمح . وجذب الجناح الفارس وفرسه ليقذف بهما ، ويرميها شر رمية وتدحرج دون كيخوتى على التراب فى أسوأ حال .

- ٤ -

## فى الطريق الى الفندق المسحور

بعد هذا الحادث الذى نجا منه دون كيخوتى وتابعه سانتشو يعثر الاثنان على مرج مغطى بالعشب النضير ينساب فيه جدول عذب ، فيغريهما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك لأن وهج القيط فى الظهيرة بدأ ينتشر ويعنف . فترجلا وتركيا روثينانتى والحصار يرعيان على مواهما العشب الغزير فى المرج النضير ، ثم انثيا الى الخرج يصبيان منه طعاما تناولاه بلا كلفة فى هدوء وطيب صحبة .

وكأذت قرعى فى هذا الوادى سساعتئذ بعض من الأفراس الاناث يسرح بها قائدو بغال من ينجواس ، كان من عادتهم القيلولة مع دوابهم فى الأماكن التى يوجد بها عشب وماء ، فكان الموضع الذى نزل به دون كيخوتى مناسباً لهم . اقترب روثينانتى من اناث الأفراس وراح يغازلها ، ولكنها كانت فى حاجة الى تناول الكلا الأخضر أكثر من أى شىء آخر ، فأعملت فيه رفساً وعضاً وأسرع قائدو البغال بهراواتهم ، وانهاهوا عليه ضرباً حتى رضوا عظامه .

وفى تلك الاثناء شاهد دون كيخوتى وسانتشو ما حل بروثينانتى فأسرعاً اليه يلهثان ، وقال دون كيخوتى لحامل سلاحه : « يخيلى الى يا صاحبي سانتشو أن هؤلاء القوم ليسوا فرسانا ، بل رعايا سفلة أخساء . لهذا تستطيع وأنت مطمئن الضمير ، أن تساعدنى على الانتقام العادل للاهانة التى الحقوها بروثينانتى أمام أعيننا » . فینصحه سانتشو بعدم التعرض لهم لأنهم أكثر من عشرين . فيرد عليه دون كيخوتى قائلاً : « اننى أساوى مائة مثلهم ! » . وأمسك بسيفه وانقض عليهم وفعل سانتشو مثلاً فعل مقتدياً بمولاه . وفى الهجمة الأولى ضرب دون كيخوتى أحدهم بسيفه ضربة شقت صدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف ، ولما كان قائدو البغال عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا الى هراواتهم فأهوا بها عليهما فجندلوا سانتشو فوق التراب ، وسقط دون كيخوتى ، رغم شجاعته ومهارته ، عند أقدام روثينانتى الذى لم يكن قد نهض من كبوته بعد . ولما شاهد قائدو الدواب آثار فعاتهم السيئة أسرعوا بدوابهم يرحلون ، تاركين المغامرين فى أسوأ حال .

ويعلل دون كيخوتى ما أصابه من جزاء قاس بأنه عقاب من السماء لعدم اتباعه قوانين الفروسية حيث خالفها عندما شاهر سيفه فى وجه أناس لم يسلحوا فرسانا .

يتوجه الفارس وتابعه بعد ذلك الى فندق قريب فيبلغاه بششق الأنفس . وهناك سيكون لجبرته عواقب وخيمة . فقد تخيل أن الخادمة ماريتوريس هى ابنة سيد القصر . وكان هناك صاحب بغال من بين النزلاء قد اتفق معها على أن يقضيا ليلة مريحة معا اذ وعدته أن تأتى اليه بعد أن يأوى النزلاء الى فراشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل ما يطلب من ملذات . ولما حانت ساعة اللقاء أقبلت بقميصها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهى تتسلل على أطراف أصابعها فى العنبر الذى كان يرقد فيه النزلاء الثلاثة . دون كيخوتى وسانتشو بانثا وصاحب البغال . ولم تكد تجتاز عتبة الباب متجهة الى صاحبها ، حتى احس بها دون كيخوتى فنهض جالساً على سريره ، رغم ما به من جراح مضمدة وضلوع موجوعة ، ومد ذراعيه لاستقبال ابنة صاحب القصر التى قهرها لطفه فالتهبت غراماً به . وأقبلت الخادمة جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويدها الى الأمام تتلمسان حبيبتها ، فوقعت بين



ذراعى دون كيخوتى فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها اليه دون أن تجرؤ على التفوه بكلمة • ثم أجلسها على سريريه ، وتحسس قميصها - وكان من الخيش - فبدأ له من أفخر الديباج ، وكانت فى ذراعيها أسورة مؤلفة من خرز زجاجى فبدت له كاللؤلؤ المنضود ، وكان شعرها يضرب الى لون الوبر وطبيعته فحسبه من غداثر من أنفاس ذهب بلاد العرب ، يفوق بريقه لمعان الشمس ، أما أنفاسها - ولم تكن رائحتها الا من رائحة سلطة الثرم ذات التوابل والخل المصنعة من الأمس - فقد حسبها تنشر شذى زكيا • وأخذ يرسمها فى خياله بالمحاسن والمفاتن التى كانت لتلك الأميرة التى قرأ عنها فى كتبه أنها جاءت لزبارة الفارس الجريح ابان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام • ولكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذى لم يستطع أن يبدد أوهامه شىء : لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التى تميز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استقراغ أحشاء أى انسان غير هذا البغال • ولكن دون كيخوتى حسب أنه يحتضن بين ذراعيه الالهة حبه ، فضمها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبة وحنانا : « بودى لو استطعت أيتها السيدة الجلييلة الفاتنة. أن أجازى هذه النعمة السابغة التى أنعمت بها على برؤية جمالك الفائق •• لكن الحظ ، الذى ما فتىء يضطهد الأخيار ، قد شاء أن يقذف بى فى هذا السرير حيث أرقد الآن محطما منهوكا ، فلو شأئت ارادتى أن تكون كفاء ارادتك لما استطاعت يضاف الى هذه الاستحالة أخرى أشد منها ألا وهى العهد الذى قطعته على نفسى قبل المنقطة النظير دولثينيا دل توبوسو ، فهى وحدها سيدة أفكارى وفتاة أحلامى • ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلالة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمر وقد أتاحها فضلك العميم ! » •

كانت ماريتورنس فى أشد الجزع من ضم دون كيخوتى لها بهذه الشدة ، وبذلت كل جهد مستطاع للتخلص منه ، دون أن تغير كلماته أدنى اهتمام وانتباه • وكان البغال الساذج - وقد أبقتة شهواته الخبيثة ساهرا - قد سمع هو الآخر وقع دخول خليلته لما اجتازت عتبة الباب • فأرھف أذنه ليستمع الى كل ما قاله دون كيخوتى • ودبت فى نفسه عقارب الغيرة لأن الفتاة لم تف بوعدها واستبدلت به رجلا آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوتى ، وأخذ يراقب وهو هادىء الجأش ليرى الى أى شىء تفضى هذه الكلمات التى لم يفهمها • ولكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تحاول التخلص جاهدة ، بينما دون كيخوتى يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على طول امتداده وأهرى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابته فكية حتى سال الدم مدرارا من فمه • ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضربا أسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل • ولم يحتمل السرير ثقل البغال لضعف فى تركيبه وفى قوائمه ، فاندك وهوى الى الأرض • فاستيقظ صاحب الفندق على قرعة السرير وتدخل لفض المعركة •

« يفسر دون كىخوتى تلك الأحداث لسانتشو بأن القصر مسحور ، وأن هذا هو سبب متاعبهم . وبعد أن استحلفه بأن ماسيقوله له سيظل سـمـرا الى مابعد وفاته قال : « قلتعلم أذن أنه وقعت لى فى هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التى أفخر بها ، ولأقص عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول انه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قائمة نحوى ، وهى أفتن والطف ، تاة توجد على شطر عظيم من الأرض . وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفى لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتى أصبـون عهدى لـسيدتى دولثينيا دل توبوسو ! واذنا أود أن أقول لك فقط ان السماء حسدتنى على النعيم الغامر الذى أرسله الحظ الى ، أو - وهذا أقرب الى اليقين - لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فانه فى اللحظة التى كنت أجاذبها أعذب وأرق وأحر حديث ، انقضت على كف لم أرها ، كف مار ، رهيب ، فضربنى بقبضته على فكى خربة قاضية ولايزال الدم ينزف منهما بسببها . »

وقال سانتشو : « لكن قل لى ياسيدى كيف نسميها جميلة ونادرة تلك المغامرة التى تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الآذى الذى أصاب سيادتكم لم يكن كبيرا ، لأنك حملت بين ذراعيك تلك الفاتنة المنقطعة النظير . . . أما أنا ، فماذا لقيت يا الهى غير أبشع اللكمات التى تلقيتها طوال حياتى ؟ ياالشقائى وشقاء أمى التى ولدتنى ! لست فارسا جوالا ولا أحسب أبدا أنى سأكونه ، ورغم ذلك فان النصيب الأوفر من المصائب يكون نصيبى ! »

وفى الطريق شاهدا قطيعا من الخراف تخيلها دون كىخوتى جيشا . وقال لسانتشو : « أو لاتسمع صهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبول ؟ » . ولم يلبث أن همز روئينانتي وأشرع رمحه وانقض كالصاعقة من أعلى الرابية . وعبثا حاول سانتشو أن يثنيه ان صاح فيه بصوت جهورى : « على رءىك ياسيد دون كىخوتى ! أقسم بالله انها أغنام رخراف تلك التى ستهاجمها . »

لم يكثرث دون كىخوتى لهذا كله ، وانقض بين النعاج وبدأ يقطعنها بالرمح غاضبا هائجا متحمسا كأنه يضرب فى الك أعدائه . فصاح فيه رعاة القطيع أن يمسك عن هذه الدواب المسكينة . فلما رأوه لم يستمع لنصحهم حلوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بالحجارة التى أنهالت عليه كالطر ، ولكن دون كىخوتى لم يحفل بذلك وظل يجرى هنا وهناك حتى دكت أحداها ضلعين من أضلاعه ، واقتلعت أخرى ثلاث أو أربع أسنان من فمه ، وسقط الفارس المسكين من على فرسه . فاقبل عليه الرعاة وظنوه مقتولا فأسرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت ما بين ست وثمان ، وأسرعوا يلونون بالفرار .



نزل سانتشو من أعلى الرابية التي كان يتأمل منها حماقات سيده واقترب منه فوجده على أسير حال ، وإن لم يكن قد فقد الشعور وقال له : « ألم أقل لك أنك إنما تهاجم قطعانا من الخراف لا جيوشا ؟ » . فأجابه دون كيخوتي بأن عدوه الساحر قد رآه على وشك الظفر بالكليل المجد في تلك المعركة فدبت في قلبه عقارب الحسد منه ، وإذا به يحول كتائب الجنود إلى قطعان من الخراف .

بعد قليل يظهر حلاق القرية وكان يضع على رأسه شيئا يلمع وهو يركب حمارا رماديا . فظنه دون كيخوتي فارسا يمتطي صهوة فرس أغبر أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب وقال لسانتشو أن الشيء الذي يلمع هو خوذة ممبرينو . بينما الواقع أنه كان في هذه النواحي بلدان متجاوران . أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلى ولا حلاق ، والآخر أكبر وفيه كلاهما . وكان حلاق البلد الأكبر يعمل أيضا لأهل البلد الأصغر فيفصد هذا ويحلق لحية ذاك . ولأداء هاتين المهمتين كان يذهب حاملا صحن حلاقة من النحاس الأصفر . وقد فاجأته الأمطار في الطريق . فلكى بحمى قبعته وضع عليها صحن الحلاقة وكان مصقولا فكان يلمع من بعيد . ولهذا ظن دون كيخوتي أنه أبصر فارسا أغبر أرقط وفارسا وخوذة من ذهب . لأن جميع ما يلفت نظره كان يرقبه بسهولة ومقا لهذيانه الفروسي وخواطره الشاردة . واندفع منقضا عليه بكل ما في وسع روئينانتي من قدرة على الركض ، ورمحه مصوب ، وفي اللحظة التي أوشك أن يبلغه صاح فيه : « دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو سلم إلى عن طيب خاطر ما استحقه بجداره » .

وشاهد الحلاق هذا الشبح ينقض عليه ، فلم يجد وسيلة للاحتماء من ضربة الرمح إلا أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتى نهض وأطلق ساقيه للريح نازكا صحن الحلاقة على الأرض . وكان هذا كل ما يريده دون كيخوتي ، فأمر سانتشو بالتقاط الخوذة ، فلبى السائس الأمر ، وناول الصحن لمولاه فوضعه على رأسه في الحال . وبخيله الخصب يعطى بطلنا تفسيراً يبدو منطقياً تماماً عندما قال لسانتشو : « هل ترى ما أتصوره ؟ أنى لاتخيل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة المسحورة لابد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، في يد من لا يعرف قيمتها ولا يقدرها حق قدرها ، فلما رآها من الذهب الخالص فكر في صهر نصفها للأفادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقى النصف الآخر على هذه الصورة التي تجعله يشبه صحن حلاقة ، كما تقول . » ومهما يكن من أمرها ، لكنى وأنا أعرفها لا أهتم بما جرى لها ، بل سأصلح من أمرها عند أول حداد نلقاه في أول قرية نمر بها . »

ويعود دون كيخوتي إلى هذا الموضوع عندما يتوغل مع سانتشو في جبال سيرا مورينا فنراه يقول لسائسه : « أو لم تدرك منذ الوقت الذي صحبتنى فيه أن جميع أمور الفرسان الجواله تبدو كأنها خيالات وتهاويل . »

وأساطير وأنها تبدو كأنها مقلوبة ؟ السبب في ذلك ليس أنها كذلك في الواقع . بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائماً شذمة من السحرة تقلب أمورنا . وهذا هو السبب في أن هذا الشيء الذي يبدو لك صحن حلاقة يبدو لي أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئاً آخر » .

وسكذا يقلب دون كيخوتي كل الموازين . فالمجانين هم الذين لا يلاحظون الحقيقة التي لا تتضح إلا للفارس اليقظ والمتفتح الذهن .

— ٥ —

## الأميرة المزيفة

عندما وصل دون كيخوتي وسانتشو الى قاعدة جبل شاهق من جبال سيرا مورينا توقفوا عند سفحه حيث يجري جدول رقيق حواليه مروج خضر وأشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار برية . كلف دون كيخوتي سائسه بحمل رسالة غرامية الى حبيبته دولثينيا وطلب منه أن يعود إليه برد حبيبته .

وعند قيام سانتشو بمهمته قابل أصدقاء لسيده : القسيس والحلاق اللذين أرادوا مقابلته لاقتناعه بالعدول عن هذه الحياة المليئة بالأخطار . وتقدمت فتاة تدعى دوروتيا مبدية استعدادها لمعاونتهما . ففكروا في حيلة لاقتناع دون كيخوتي بالعدول عن هواجسه والعودة الى داره .

استقر الرأي على أن تقوم دوروتيا بدور الأمير ميكوميكونا ويقوم الحلاق بدور السائس وكان كل منهما يركب جوادا ، ويتنكر الحلاق في دور السائس بأن وضع لحية مستعارة من ذيل البقرة .

ويتم اللقاء فتنزل دوروتيا الى الأرض بخفة ورشاقة ، وتلقى بنفسها جائية عند قدمي دون كيخوتي ، وعلى الرغم من محاولة انهاضها رفضت وتحدثت قائلة : « كلا لن أنهض من مكاني هذا أيها الفارس الشجاع المروع ، الا اذا ثناء فضلك السابغ أن تمنحني فضل يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد آنسة أهيت أبلغ اهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فان كانت قوة ذراعك التي لا تقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فانك



مضطر الى أن تهب لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصى الدنيا اقتفاء لصيكتك الذائع لتجد لديك علاجاً لمصائبها » .

فقال دون كيخوتى : « أيتها السيدة الحسنة النبيلة ! لن أجيب بكلمة ولن أسمع شيئاً مما جرى لك قبل أن تنهضى من الأرض » .

فقالت الأنسة : « وأنا لن أنهض قبل أن يتعطف على أدبك فتمنحني ما أنا طالبة » .

فاجابها دون كيخوتى : « منحك سؤالك ، بشرط الا يكون فى تحقيقه ما يضر أو يسيء الى شرف ملكى ووطنى وتلك التى بيدها مفتاح قلبى وحرىتى » .

عندئذ قالت الأنسة المذكودة : « كلا ، لن يضر أو يسيء الى شرف أحد ممن ذكرت » . ثم استطردت قائلة : « ان ما أسألك هو ان يتفضل شخصك العظيم فيأتى معى قورا الى حيث اقتاده وأن يعدنى بعدم الدخول فى أية مغامرة ولا يتدخل فى أية مشاجرة قبل أن يثار لى من خائن اغتصب ملكى ، بغير حق من حقوق الأرض والسماء » .

فقال دون كيخوتى : « ياسمو الأمير الجميلة ، ان عظمتك الآن فى مأمن ولا تخشين الطاغية المستبد الذى اغتصب سلطتك واضطهدك » .  
وأكد أنه بعون السماء ، وبفضل ساعدى هذا ، ستستردين مملكتك » .

وهنا تظاهرت الأنسة الراجية عونه بالرغبة فى تقبيل يده ، ولكن دون كيخوتى - وكان فى كل مناسبة فارساً نبيلاً مهذباً - لم يوافق على هذا أبداً . بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سانتشو بشد السرج على روثينانتي وأن يحضر له سلاحه فى الحال . فانتزع تابعه الأسلحة وكانت معلقة كالغنيمه على فروع شجرة سنديان . وبعد أن رتب السرج على الدابة لبس موله سلاحه ، وعندئذ صاح دون كيخوتى : « هيا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة - بعون الله » .

رقد حدث أن الحلاق كان يركب بغلة بالأجرة ، أى أنها بغلة رديئة . وعندما نزل منها عارضا على القس أن يركب قمصت ورفست رفستين هزته بعنف فسقط على الأرض بشدة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر . . فيخترع تفسيرات غريبة لدرجة أن هؤلاء الأصدقاء يبدون أكثر جنونا من دون كيخوتى . أما فارسنا فقد كان متحمسا للمهمة الجديدة التى هبطت اليه من السماء ، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى صحة ما سمعه . وهكذا تعود القافلة متجهة نحو منزل دون كيخوتى . ويتوقفون فى الطريق فى فندق صغير ويشاء سوء الحظ أن يدخل دون كيخوتى فى حجرة بها قرب ملأى بالنبيذ الأحمر مرصوفة عند رأس سريريه . وفجأة سمعت ضجة فى حجرة دون كيخوتى الذى

كان يصيح : « كف أيها اللص ، الصعلوك ، الخسيس ، أنت في قبضة يدي ، وسيفك لن يفيدك شيئا » . وكان يمسك في يده اليمنى بسيفه مسلولا ملوحا به مهددا وكأنه يحارب ماردا من المردة . والطريف في هذا أن عينيه كانتا مغمضتين ، لأنه كان ناعسا يحلم بأنه يصارع المارد وتسلطت المغامرة على خياله حتى راح ينفذها ، وخيل إليه أنه قد وصل فعلا إلى مملكة ميكوميكون ، وأنه صار في مواجهة عدوه . وفي اندفاعه سدد إلى قرب النبيذ طعنات متواليات وهو يعتقد أنه يسددها إلى المارد حتى فاضت الغرفة كلها بالنبيذ المنسكب ظانا أنه دم عدوه .

وخلال اليومين التاليين يقع فارسنا ضحية تخیلات وأوهام فيهيئ له أنه في قصر عجيب . وقررت الجماعة الرحيل ووضع حد لقصة الملكة ميكوميكونا ليجنبوا دوروتيا مشقة إعادة دون كيخوتي إلى قريته ، فبحثوا عن وسيلة يتمكن بها الحلاق الأسطى نيكولا والقسيس من إعادته إلى بلده كما أرادا ، ابتغاء محاولة علاجه . فتفاهموا مع سائق مربية لإعادة دون كيخوتي وطلبوا منه صنع نوع من القفص ، مؤلف من قطع من خشب معشقة ، بحيث يوضع فيه وضعا مستريحا . ولما تم صنع هذا القفص دخلت الجماعة في صمت ، بعد أن تنكروا بأشكال مختلفة ، إلى غرفة فارسنا وكان نائما مستريحا من متاعبه . وأمسكوا به وأوثقوا قدميه ويديه بشدة ، فلما استيقظ لم يستطع التحرك وظل حائرا عندما رأى هذه الوجوه الغريبة العجيبة . ففكر فيما صور له خياله المجنون باستمرار .

لقد اعتقد أن هذه الوجوه هي أشباح القصر المسحور ، وأنه هو نفسه مسحور ، لأنه لم يستطع التحرك ولا الدفاع عن نفسه . وهكذا تم كل شيء كما قدر القسيس الذي دبر الأمر بمكر ومهارة . ووضع دون كيخوتي في القفص ، وسمر القفص بشدة حتى لا يستطيع أن يزعرعه ، ثم حملوا القفص على أكتافهم . ولما أخرجوه من الغرفة نطق صوته رهيب ، هو صوت الأسطى نيكولا ، بهذه العبارات : « أيها الفارس الحزين المطلعة ! لا تحزن على أسرك . أنه ضروري لوضع حد في رقت مبكر ، للمغامرة التي حملتك عليها شجاعتك العظيمة ، وستنتهي حين يصبح أسد المانتشا الرهيب وحمامة توبوسو البيضاء شخصا واحدا ، بعد أن يحنيا رأسيهما الشاهخين تحت نير الزواج العذب الرقيق . ومن هذا الاقتران الذي لانظير له سيخرج ويلمع على نور الدنيا الأشهبال الشجعان الذين لن يقلوا إثارة للرغبة عن أبيهم الشجاع الباسل » .

وقد واست وعود الوحي هذه دون كيخوتي خير مواساة . . . وأدرك معناها تماما ، ورأى أنهم يراودونه بأمل الارتباط بالروابط المقدسة لزواج شرعي من حبيبته دولثينيا دل توبوسو ، وأنه من هذا الزواج سيولد أشبال ، هم أولاده ، في سبيل مجد إقليم المانتشا العظيم .



رفعت الأشباح القفص ووضعوه على عربة تجرها الثيران • وهكذا  
بعد أن أدخلوا في روعه أنه يجب أن يظل بهذا الشكل للانتصار على عمل  
سحري - وأمام هذا التفسير الذي لا يتطرق إليه الشك يعيدون دون  
كيخوتى إلى منزله •

وهنا ينتهى الجزء الأول من الرواية •

## - ٦ -

### فسدية دولثينيا

يبدأ الجزء الثانى من الرواية بمشهد دون كихوتى مريضاً وتعالجه  
مربية عجوز وابنة أخته بوسساسة أنواع مقوية من الغذاء مفيدة للقلب  
والخ الذى منه جاء كل الداء •

وبعد انقضاء أكثر من شهر على هذا العلاج نرى صاحبنا الفارس  
من جديد على ظهر حصانه مدججا بالسلاح يتبعه سائسه الوفى سانتشو  
على أهبة الاستعداد للملاقاة أعظم مغامرات الفروسية • وهى تبدأ الآن في  
طريق توبوسو ، كما بدأت الأولى فى سهل مونتيل • وقد قرر دون  
كيخوتى أن يذهب إلى توبوسو قبل أن يخوض أية مغامرة ليتلقى بركة  
دولثينيا التى لا نظير لها ويودعها ، وبهذا التوديع يتأكد أنه سيفلح فى  
إنجاز أية مغامرة خطيرة ، لأنه كما قال لسانتشو : « لا شئ فى العالم  
يجعل الفرسان أكثر بسالة من أن يشعروا بعطف محبوباتهم » • ثم  
يستطرد قائلاً : « لنذهب إلى هناك ، ومادام شعاع من شمس جمالها  
سيبهر عيونى ، وينير عقلى ، ويقوى قلبى فسيبقى متفرداً لا نظير له فى  
الحكمة والشجاعة » •

وفى اليوم التالى ، عندما وافى الليل ، شاهدنا مدينة توبوسو العظيمة  
التي أتعش مرآها نفس الفارس وأحزن سانتشو ، لأنه لم يكن يعرف أين  
بيت دولثينيا ، ولم يره أبداً من قبل ، لا هو ولا مولاه : حتى كان كلاهما  
مضطرباً • أحدهما لرغبته فى رؤيته ، والثانى لأنه لم يره قط ، وسانتشو  
لم يتخيل ماذا يستطيع أن يفعل لو بعث به مولاه إلى توبوسو • وعلى بعد  
ميلين من القرية وجدا غابة اختبأ فيها دون كихوتى بعد أن أمر سانتشو  
بالعودة إلى المدينة ، وبألا يرجع إلا بعد أن يتكلم باسمه مع سيدته دولثينيا

ليرجوها أن تتفضل فتسمح لعبدها الفارس أن يراها ، وأن تباركه بعد ذلك ، حتى يمكنه الرجاء في النجاح في مغامرته الخطرة العسيرة .

ولم يكذ سانتشو يخرج من الغابة حتى أدار رأسه ، ولما لم يشاهد دون كيخوتي بعد ، نزل من فوق حماره ، وجلس عند جذع شجرة ، وراح يحدث نفسه قائلاً : « هيا . هيا . لكل داء دواء يستطب به الا الموت الذي لا مفر منه ، شئنا أو لم نشأ ، في نهاية أعمارنا . ان مولاي مجنون ، وأنا لا أقل جنونا ، بل أنا مجنون أكثر منه ، أنا الذي أخدمه وأتبعه ، اذا صح المثل الذي يقول : أخبرني من تصاحب ، أخبرك من أنت . فمولاي مجنون بحيث يعتقد الشيء مكان الشيء الآخر ، الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، كما فعل حين قال ان الطواحين الهواء مرده ، وبغال الرهبان جمال ، وقطعان الماشية جيوش معادية ، وأمور أخرى كثيرة مشابهة ، ولهذا لن يكون من العسير أن تجعله يعتقد أن أية فلاحه تمر من هنا هي السيدة دولثينيا ، فان لم يشأ أن يصدق ، أقسمت له ، فان أقسم هو بدوره ، كررت القسم من جديد ، وان أصر ، زدت أنا في اصراري . وبهذه الطريقة تكون لى دائماً الغلبة عليه ، وليكن ما يكون . أو ربما يظن ، كما يخيّل لى ، أن ساحرا خبيثا ، من أعدائه ، قد غير وجه سديته على هذا النحو لاثارة غضبه . »

هدأت هذه الفكرة من خاطر سانتشو ، وبدأ له أن المسألة قد سويت، ولكنه بقى مع ذلك وقتاً طويلاً في المكان الذي كان فيه ، حتى يعتقد دون كيخوتي أنه كان لديه الوقت الكافي للذهاب والعودة . وأفلح كل شيء دبره حتى أنه حين نهض ليركب حماره شاهد ثلاث فلاحات يمتطين ظهور الحمير . فهرع للحاق بمولاه ، فوجده يتنهد ودار بينهما الحوار الآتى :

— ليس على سيادتك الا أن تهمز روئينانتي ، وتخرج الى السهل لتشاهد السيدة دولثينيا بل توبوسو التى قدمت لزيارتك مع اثنتين من وصيفاتها .

— ما أعظم فضل الله ! ماذا تقول لى يا صاحبي سانتشو ؟ حذار من التفرير بى ومن جلب حزنى بسرور زائف .

— وماذا أفيد من التفرير بك وأنت على وشك اكتشاف الحقيقة ؟ اركض يا مولاي وتعال لرؤية الأميرة سيدتنا ، مزينة بما يليق بها .

خرج سانتشو مع مولاه من الغابة فأبصرا بالقرب منهما الفلاحات الثلاث . فقال دون كيخوتي :

— انى لا أرى يا سانتشو غير ثلاث فلاحات على ثلاث أتانات .



— اسكت يامولاي ، لا تقل مثل هذا الكلام . . افتح عينيك ، وتعال  
لتحيي سيدة أفكارك ، فهي قادمة .

ولما قال هذه الكلمات تقدم للقاء الفلاحات الثلاث ، وترجل ، وأمسك  
بخطام حمار احداهن ، وجثا على ركبتيه وقال لها :

— يا ملكة . . يا أميرة . . يادوقه الجمال ، لتتنازل سموك وعظمتك  
فتتلقى بالقبول والرحمة هذا الفارس ، عبدك الذي صار مثل تمثال من  
المرمر ، لا حراك فيه ولا نبض ، لما أن صار في حضرتك الفخيمة . أنا  
سانتشو باثا ، سائسه ، وهو الفارس الجوال دون كيخوتي دي لامانتشا ،  
الملقب بالفارس الحزين الطلعة .

وفي نفس الوقت جثا دون كيخوتي على ركبتيه بجوار سانتشو . . . .  
وراح يتطلع بعينين زائغتين مضطربتين في تلك التي سماها سانتشو سيدة  
وملكة ، ولكنه لم ير غير فلاحه قبيحة فطساء منتفخة الوجه ، فارتج عليه  
دون أن يجرؤ على أن يفتح فيه . ولم تكن الفلاحات أقل دهشة لما أبصرون  
هذين الرجلين المختلفين كل الاختلاف راكعين يمنعانهم من المرور . وأخيرا  
تحدثت تلك التي أمسك بخطام حمارها ، فقالت غاضبة : « ابتعدا عن  
طريقنا ، ودعانا نمر فنحن متعجلات » .

فقال سانتشو : « يا أميرة توبوسو وسيدتها ، لماذا لا يتعطف قلبك  
الرحيم وهو يرى راكعا أمام حضرتك السامية عمود الفروسية الجواله  
وسندها ؟ » . وإذا بأحدى الفلاحتين الأخريتين تصيح قائلة : « انظري  
يا حماره صهري كيف يسخر هذان السيدان من الفلاحات كما لو كنا  
لا نستطيع أن نكيل لهما الصاع صاعين . سيرا في طريقكما ، ودعانا نسير  
في طريقنا ، ومساء الخير » . فقال دون كيخوتي : « انهض ياسانتشو ، اني  
أتبين تماما أن الحظ لم يرض بعد تماما عن بلايانا . لقد أغلق كل الطرق  
التي يمكن أن يأتي منها السرور لهذه النفس الهزيلة التي يضمها جسمي .  
وأنت يا أعظم كمال يمكن التطلع اليه ، باغاية اللطف الانساني ، أنت الدواء  
الوحيد لقلبي الحزين الذي يعيدك اومادام ساحر خبيث يطاردني ، ويفشني  
على عيني بالغيوم والسحاب ، حتى حول جمالك المنقطع النظر الى مظهر  
فلاحه مسكينة ، اذا لم يعطني ملامح تنين لأصبح كريها في نظرك ، فتنازلي  
وانظري الى برقة وغرام ، واطلعي ، في الخضوع والاحترام للذين أكنهما  
لجمالك المشوه . الى تواضع هذه النفس التي تعبدك » .

فقالت الفلاحه : « يا الجدى ! هل أنا هنا اذن لسماع هذه الأباطيل ؟  
ابتعد من هنا ، ودعني أمر ، أرجوك » .

هابتعد سانتشو وتركها تمر ، وكان راضيا عن تخلصه من المشكلة  
بهذه الطريقة . ولم تكن القروية التي أريد لها أن تلعب دور دولثيندا

تتخلص ، حتى نخست ألتانها بمسلة موضوعة في طرف عصا ، فانطلقت  
تجري في المرج ، ولكن الدابة التي نخست أكثر من المعتاد ، أخذت ترفس  
وتقمص حتى ألقت براكبتها على الأرض . فأسرع دون كيخوتي  
لأنهاضها ، بينما أصلح سانتشو البرذعة التي استدارت حول بطن  
الحمارة . ولما أعيدت البرذعة الى مكانها ، أراد دون كيخوتي أن يأخذ  
بين ذراعيه سيده المسحورة ، ليركبها على البرذعة ، ولكنها أعفته من  
هذه المهمة . . لأنها بعد أن قامت ، تراجعت بضع خطوات ، ثم استعدت  
للوثوب ، ووضعت كفيها على مؤخرة الحمارة ، ووثبت على البرذعة  
وهي أخف من الصقر ، وركبت كل رجل في ناحية مثل الرجال . فصاح  
سانتشو : « سيدتنا أخف من الطائر . . انها تستطيع أن تعلم الركوب  
على الخيل أبرع السواس في قرطبة أو المكسيك ، لقد استقرت بوثة  
واحدة فوق قبر السرج ، وبدون مهماز جعلت دابتها تركض كحمار  
الوحش ، ووصيفتاها لا تقلان عنها براعة ، لأن ثلاثهن يعدون عدو  
الريح » .

انطلقت الثلاث بسرعة هائلة ، ولم تكفن عن العدو ، دون أن  
تلتفتن ، طوال أكثر من نصف فرسخ ، وتابعهن دون كيخوتي بنظره حتى  
غبن من أعينه ، فالتفت الى سانتشو وقال : « ماذا ترى ياسانتشو ؟  
ألا يسيء السحرة معاملتي ؟ أنظر الى أي مدى يذهب خبثهم وحقدهم  
على ، ماداموا يحرمونني من لذة رؤية سيدتي كما هي . ولدت لأكون  
نموذجاً وقدوة للبائسين ، وهدفا يرمى بسهام النحس . وهؤلاء السحرة  
الخونة لم يكتفوا بتحويل دولثينيا ، بل غيروها الى شكل دميم ممسوخ  
دنىء مثل تلك الفلاحة ، وانتزعوا منها خصوصاً ما هو من شأن السيدات  
العظيمات ، وهو أن تنبعث منهن رائحة عطرة ، لأنهن دائماً وسط العنبر  
والأزهار ، لأنني حين تقدمت لراكبها ، انبعثت منها نايحي رائحة ثوم  
نييء كادت منه روجي تخرج من بدني » .

فصاح سانتشو : « أيها الرعاع الملعين ! أيها السحرة الأشرار  
الأنجاس ! » .

سار دون كيخوتي مشغول الفكر بالمكيدة التي دبرها له السحرة  
بتحويل سيده دولثينيا الى فلاحه كريهة . أن بليتها ومحدثها نشأتا عن  
الحسد الذي يحمله الأشرار ضده . ثم قال لسانتشو : « اذك رأيتها  
في كل جمالها ، والسحر لم يحجب عنك وجهها ولا مفاتنها . . فضدي أنا  
وحدى وضد عيني تفعل قوة السحر » .

قرر دون كيخوتي أن يحرر سيده من السحر . . وعندما سمع فيما  
بعد من أحد العابثين الذين كانوا يحاولون السخرية منه والهزء به أن  
سانتشو بانثا هو المسئول عما حاق بدولثينيا ، وأن يزول عنها السحر  
إلا إذا عاقب سانتشو بانثا نفسه بثلاث آلاف وثلاثمائة جلدة بالسيف



على ردفه الكبيرين ، وهما عاريان في الهواء . وأن هذا هو ما قرره كل الذين أسهموا في صنع محنتها . ويشكو سانتشو قائلاً : « انى لا أرى العلاقة بين الضربات وسعادة السيدة دولثينيا » . ولكنه غير رأيه ووافق عندما عرض عليه دون كيخوتى أن يجزل له العطاء لقاء هذا الجلد . صنع سانتشو من خطام حماره سوطاً ، ودخل الاثنان الى دغل قريب ، ووقف دون كيخوتى في ناحية ، بينما اختبأ سانتشو خلف مجموعة متشابكة من الشجيرات ، وتعرى من خصره حتى قدميه ، وبدأ يضرب نفسه . وبعد ست أو ثمانى ضربات كف عن جلد نفسه ، وأخذ يسدد ضرباته الى الشجيرات ، وهو يتأوه بشدة عقب كل ضربة . أما دون كيخوتى فقد كان ينتفض شفقة على سائسه النبيل الذى ينزل بنفسه ذلك العذاب .

ويختتم سانتشو بانثا ضربات السياط بوابل من الأمثال .

- ٧ -

### هزيمة دون كيخوتى على يد قارس القمر الأبيض

تقابل دون كيخوتى مع فرقة ممثلين يركبون عربّة تجتاز الطريق ، وكانوا يرتدون ملابس التمثيل لأن هذه الفرقة التمثيلية المتجولة كانت ستمثل نفس المسرحية في هذا المساء ، في قرية أخرى قريبة جداً ، فوفروا على أنفسهم عشاء خلع ثم ارتداء تلك الملابس . وكان أحدهم يمثل الموت ، وآخر يمثل ملاكا ، وثالث يمثل امبراطورا ، ورابع يمثل جنديا ، وخامس يمثل شيطانا ، وسادس يمثل الاله كيوبيد بغير رباط على عينيه ، ومعه قوسه وجعبته وسهامه ، وكانت معهم سيدة هى زوجة مدير الفرقة وتقوم بدور الملكة . ( وكان عنوان تلك المسرحية « محاكم الموت » ) . ظن دون كيخوتى أنه أمام مغامرة خطيرة جديدة ، فوقف أمام العربّة مستعداً لمجابهة الأخطار ، وسأل السائق الذى يمثل الشيطان وهو يصيح بصوت عال مهدداً : « قل لى بسرعة من أنت ، والى أين هؤلاء الناس الذين تحملهم في العربّة ؟ » . فأجابه الشيطان بصوت رقيق ، وهو يقف بالعربة بأنهم ممثلون كوميديون ، وشرح سبب ارتدائهم للباس التمثيل . فقال دون كيخوتى : « قسما بشرف الفارس الجوال انى حين رأيت هذه العربّة ظننت اننى أمام مغامرة عظيمة ، وهانذا أرى الآن أنه ينبغى مس الظواهر بطرف البنان ، اذا شاء المرء الا يخدع ، اذهبوا في سلام . وانى على

استعداد لتقديم أية خدمة عن طيب خاطر • منذ نعومة أظافري كنت أحب  
المساحرة ، وكانت الملهاة ( الكوميديا ) هوايتي المفضلة » •

ولكن لم يكد سانتشو يترك حماره حتى ركبته ممثل يرتدى لباس  
مهرج وأخذ يضربه بشدة بأذياب ثلاث منفوخة كان يحملها على طرف  
عصا وهو يدق شخاشيخه • ولكن الحمار كبا به ، فمضى الشيطان  
صاحب الأنايب على قدميه ، وعاد الحمار الى سانتشو • فأراد دون  
كيخوتي أن يعاقب الرجل على وقاحته • ولكن لحسن الحظ استجاب دون  
كيخوتي لتوسلات سانتشو بعدم التعرض للممثلين الذين كانوا على وشك  
قذفهما بالحجارة بعد أن نزلوا من العربّة واصطفوا للمعركة • فقال له  
سانتشو : « لاحظ أن كل هؤلاء الناس الذين تراهم ، وان بدوا ملوكا  
أو أباطرة أو أمراء ، لا يوجد بينهم فارس جوال واحد » • فقال دون  
كيخوتي : « ياسانتشو ! لقد حسست النقطة التي ستجعلني أعدل عن  
قراري •• اذ لا يجب ولا يمكن أن أسحب سيفي على من لم يسلحوا  
فرسانا ، كما قلت لك من قبل مائة مرة » •

ركب الممثلون عربتهم وتابعوا رحلتهم • ولكن دون كيوخوتي يغتنم  
الفرصة عندما يلتقي بعد قليل بفارس المرايا الذي قص عليه أنه انتصر  
في مبارزة فردية على الفارس الشهير دون كيوخوتي دي لامانتشا وأرغمه  
على الاعتراف والاقرار بأن صاحبه كاسلديا دي ونداليا أجمل من  
دولثينيا فقال دون كيوخوتي : « ان دون كيوخوتي هذا الذي تتكلم عنه هو  
أعز أصدقائي - وهو رجل له أعداء كثيرون من بين السحرة • وقد اتخذ  
واحد منهم شكله ليترك نفسه يهزم ، حتى يشوه بهذا سمعته التي اكتسبها  
بأعماله الجليلة في طول المعمورة • وكدليل على ما أقول لك عن خبث  
هؤلاء السحرة ، أقول لك انه منذ يومين حولوا دولثينيا الجميلة الى  
فلاحة تبيحة حقيرة •• فلابد أنهم حولوا أيضا دون كيوخوتي • فان لم يكف  
كل هذا الذي قلته لأقناعتك ، فهاهو ذا أمامك دون كيوخوتي هذا بعينه ،  
يؤيده لك السلاح في يده ، راجلا أو راكبا ، على أي نحو تريد » •

وفي الصباح اتخذ فارس المرايا المسافة التي حسبها ضرورية ،  
وأدار عنان فرسه ، ولم يكن أحسن ولا أخف من روثينانتي ، بينما لكن  
دون كيوخوتي جانبى حصانه بشدة هيجته فركض مقبلا على فارس المرايا  
الذي كان يحاول عبثا أن يغرز المهازين في بطن فرسه دون أن يستطيع  
أن يحركه من المكان الذي وقف فيه مبهور الأنفاس • فارتبك على ركوبته ،  
وارتبك من رمحه ، فلم يستطع أن يصوبه في وضع القتال • صدم دون  
كيخوتي خصمه بقوة كبيرة حتى أنزله عن سرجه وألقى به على الأرض  
بعنف ، حتى لم يحرك هذا يده ولا قدمه •

لم يكن فارس المرايا هذا الا حائز الاجازة سانسون كاراسكو من  
نفس قرية دون كيوخوتي الذي تنكر في هذا الزى لمحاولة هزيمته وارغامه  
كما تقضى قوانين الفروسية الى متابعته حيث يريد ، ولم يكن ينبغي غير  
إعادته الى منزله •



ولما باءت محاولة كاراسكو بالفشل عاد دون كيخوتى الى الطريق بحثا عن المغامرات فيجد منها الكثير التى تجلب له المتاعب • فنراه يواجه أسودا فى أقفاصها كانت محملة على عربة حيث أهداها حاكم أوران الى الملك فيسيب • هدد دون كيخوتى حارس الأسدين بأنه سيسمره بالرمح فى العربة أن لم يفتح القفصين فى الحال • فلما شاهد السائق عناء هذا الشبح المسلح قال له : سيدى ! سأطيع أمرك ، لكن بالله دعنى أحل البيغال ، وأنجى بها قبل أن يخرج الأسدان • وقف دون كيخوتى وحده يقطع الى الأسد داخل القفص الأول الذى فتحه الحارس على مصراعيه • انتظر دون كيخوتى خروج الأسد من قفصه لئلا يثقا من أنه سيمزقه اربا اربا فى سهولة ويسر وكان ذلك منه قمة الجنون المطبق • وطلب دون كيخوتى من الحارس أن يضرب الأسد بعصا لاهاجته واخراجه •

فقال الحارس : أنا لا أجرؤ على هذا ، لأنى لو فعلت ذلك كنت أول من يمزقه الأسد • ياسيدى الفارس ، صدقنى واقنع بما فعلت ، وهو أقصى حدود الشجاعة • أن الأسد فتح عليه الباب وله أن يخرج أو لا يخرج ، ومادام لم يخرج منذ قليل ، فإنه لن يخرج طول اليوم وعظمة شجاعتك تجلت فى وضوح النهار وقد سمعت أن المحارب الشجاع ليس ملزما الا بتحدى خصمه وانتظاره فى مكان مكشوف فان لم يأت ، فالعار ينصب عليه ، ومن تحداه ينال النصر • ووعد الحارس برواية هذه المغامرة الباسلة للملك نفسه حين يصل الى البلاط •

فقال له دون كيخوتى : « وإذا سألك من قام بها ، فقل له انه فارس الأسود ، لأنى أريد من الآن فصاعدا اتخاذا هذا اللقب ، وأستبداله بلقب الفارس الحزين الطلعة • وفى هذا أنا أتابع العرف القديم الجارى بين الفرسان الجواله ، فقد كانوا يغيرون القابهم حين يشاؤون ، أو حين تسنح الفرصة • واستأنفت العربة مسيرها ، وكذلك تابع دون كيخوتى وسانتشو طريقهما •

توالى المغامرات فتارة يدخل دون كيخوتى مغارة سحرية ، وأحيانا يتدخل لحل مشكلة عويصة بين قريتين ، وتارة يبحر على ظهر سفينه مسحورة ، ومرة ينزل ضيفا على دوق ودوقة ثم يخاطر بالذهاب الى مدينة برشلونه ويخوض معركة غريبة مع شخصية جديدة هى شخصية فارس القمر الأبيض •

ولكن كما رأينا فضلت الأسود النوم داخل أقفاصها من أن تهتم بدون كيخوتى ، وفى كهف مونتسينوس تحدث له حكايات غير معقولة ، ومحاولاته فى التوفيق كادت تنتهى بكارثة ، والسفينة التى حملته كانت قاب قوسين أو أدنى من الدخول بين عجالات طاحونة مائية لطحن القمح لولا أن الطحانين هرعوا بعصى طويلة فاستطاعوا تحويل اتجاه السفينة • • وسقط دون كيخوتى وسانتشو فى الماء تحت تأثير الصدمة ، ولكن

الطحانين نزلوا في الماء وأنقذوهما . وفي القصر الذي استضافه فيه الدوق والدوقة يصبح أضحوكة الجميع . ومن أمثلة سخيرية الدوق والدوقة منه هو وسانتشو أن أركبهما فرسا سحريا كبيرا من الخشب ( يسمى كلابيخو ) ليطير بهما في الفضاء . كما أنهما جعلتا سانتشو حاكما على إحدى الجزر التي لم تكن غير إحدى القرى في ممتلكات الدوق .

غير أن أشد مغامراته تعاسة هي الأخيرة التي التحم فيها مع فارس القمر الأبيض . فبينما دون كيخوتي كان يتريض ذات صباح على الشاطئ، مدججا بالسلاح من قدمه إلى رأسه ، رأى فارسا مسلحا مثله مقبلا عليه ، وكان على ترسه رسما لقمر باهر . ولما اقترب هذا الفارس صاح : « أي دون كيخوتي دح لامانتشا المغوار ، أيها الفارس الشهير الذي لا يفقه الثناء حقه ، أنا فارس القمر الأبيض ، الذي ربما بلغت مسامعك أخبار أعماله المجيدة . وقد أتيت لامتحان قوة ساعدك ومنازلتك لأرغمك على الاقرار بأن سيدتي ، أيا من كانت ، أجمل من دولثينيا دل توبوسو صاحبتك فان أقررت بذلك عن رضا ، أفلت من الموت ووفرت على مشقة أصابتك به ، أما إذا شئت القتال ، فهذه هي شروطي . . إذا انتصرت أنا ، فاني لا أطلب منك غير أن تلقى سلاحك ، وتتوقف عن الجري وراء المغامرات ، وأن تعزل في بيتك طوال عام ، حيث تعيش في سلام وراحة دون أن تمسك بسيف . وأن انهزمت أنا ، فان حياتي بين يديك ، وأسلحتي وعرسي ملك لك ، ومجد أعمال العظيمة ينسب اليك . فانظر ما تختار ، وأجبنى في الحال ، إذ لا وقت عندي للانتهاء من هذه المسألة غير اليوم » .

دهش دون كيخوتي من صلف فارس القمر الأبيض وموضوع تحديه ، فأجاب بلهجة جادة قاسية : « أي فارس القمر الأبيض الذي لم تصل إلى مسامعي أخبار أعماله ، سأجعلك تقسم بأنك لم تر أبدا دولثينيا الشهيرة ، لأنك لو كنت رأيتهما ، لما كنت طلبت هذا الطلب ، وسستدرك غلطتك ، وأنه لا جمال يعدل جمالها . ولهذا لا أقول أنك كذبت ، بل أقول أنك على خطأ ، وأنا أقبل تحديك بالشروط التي اقترحتها ، ولا استثنى منها إلا مجد أعمالك التي تريد أن تنسبها الي ، لأنني لا أعرف ماهي مغامراتك هذه ، واكتفى بمغامراتي أنا كما هي . وأوافق على أن يتم القتال في الحال ، حتى تسرى هذه لمسألة في اليوم الذي اخترته ، والله يعين من يشاء » .

تذهب الفارسان للقتال ، فاستدار دون كيخوتي ليتخذ مسافة ، لأنه رأى خصمه يفعل نفس الشيء ، ثم ، وبدون إشارة البدء ، أطلق كل منهما العنان لفرسه . لكن لما كان فرس الفارس الغامض . . فارس القمر الأبيض أسرع من روثينانتي ، فإنه أخذ وحده ثلثي الميدان ، وانقض على دون كيخوتي باندفاع شديد جدا ، دون أن يستخدم رمحه ، بل رفعه عن



قصد ، حتى أن روثينانتي وصاحبه تجندلا على الأرض بقسوة في أسوأ حال . وهنا اقترب الفارس الغامض من دون كيخوتي ووضع سبيله رمحه في حافة خوذته ، وقال له : « انك مهزوم ، أيها الفارس ، ستموت ان لم تقر بما سألتك اياه » .

كان دون كيخوتي دائئاً محطماً من سقطته ، وليست لديه القوة لرفع حافة خوذته ، فأجاب بصوت ضعيف متكسر كأنه يخرج من قبر : « دولثينيا دل توبوسو هي أجمل النساء ، وأنا أشقى الفرسان » وشقائي لا يحملني على خيانة الحقيقة ، ادفع رمحك ، أيها الفارس ، وانتزع مني حياتي ، مادمت قد سلبتني الشرف » .

فأجاب فارس القمر الأبيض : « كلا ، لن أفعل » ليظل جمال السيدة دولثينيا ، ومجدك سـالمين ، ويكفيني أن يعتزل العظيم دون كيخوتي في بيته طوال عام ، أو طوال المدة التي أفرضاها عليه ، كما اتفقنا قبل العركة » .

فقال دون كيخوتي انه مادام لا يطلب منه شيئاً يضرب بدولثينيا فانه سيقبل كل ما يطلب منه بدقة الفارس الصادق الأمين .

لم يكن هذا الفارس الغامض غير سانسون كاراسكو حائز الاجازة ومن نفس قرية دون كيخوتي ، ونراه يقول : « ان أحوال دون كيخوتي الجنوبية تثير الرحمة في نفوس كل من يعرفونه » وأنا من أولئك الذين تأثروا لها أيما تأثر ، ولما كنت أعتقد أن الراحة وحدها هي التي يمكن أن ترد اليه عقله ، فقد بحثت عن الوسائل لاعادته الى بيته ، واستقراره فيه . ومنذ ثلاثة أشهر تقريبا ، قمت بجولة فارس جوال ، وأطلقت على نفسي اسم فارس المرايا ، بقصد منازلته وقهره دون الاضرار به . وقد وضعت شرطا للقتال أن يكون المهزوم تحت رحمة الظافر ، ولما كنت أظن أنني سأنتصر عليه بسهولة ، فقد أردت منه أن يعود الى بيته ولا يخرج منه لمدة عام ، مؤملاً أن يشفى في خلال هذه الفترة . لكن شاء القدر شيئاً آخر ، لأنه هو الذي انتصر على ، وهكذا تبدد مشروعي . وعدت خجلان محطماً من السقطة . وكانت شديدة . لكني لم أياس ، وأقسمت أن أعود وانتصر عليه ، وهب ما فعلته اليوم . ولما كنت أعلم دقته في مراعاة قواعد الفروسية ، فاني لا أشك أبداً في أنه سينفذ ما تعهد به » .

وتحاشى سانسون كاراسكو أن يعرف دون كيخوتي حقيقة ما حدث حتى لا تضيق جهوده ونواياه الحسنة سدى ، وحتى يستطيع هذا الرجل المسكين أن يسترد صوابه وعقله ، فدون كيخوتي عقله ممتاز حين لا تعكره تهاويل الفروسية الجواله .

وعند عودة دون كيخوتى يقع فريسة للحمى التى ألزمتة الفراش ستة أيام . وكان القسيس ، وحائز الاجازة ، والحلاق يعودونه مرارا . ولم يفارقه سانتشو ، السائس الطيب ، لحظة . وكان أصحابه مقتنعين بأن مرضه ناشىء عن ذكرى هزيمته وعن اغتمامه لعدم رفع السحر عن دولثينيا ، ولهذا اهتموا بالترويح عنه وتسليته وصرف الهموم عن خاطره . وحته كاراسكو أن يتشجع ، وينهض ليبدؤوا الحياة الرعوية .

بيد أن شيئا لم يفلح في تسرية الأحزان عن دون كيخوتى . ودعى طبيب ، فجس نبضه ، ولم يرض عنه . وقال ان على المريض أن يعنى بنجاة روحه ، لأن حياته في خطر شديد . تلقى دون كيخوتى النبأ بهدوء ، بينما انخرطت ابنة الأخت ومديرة المنزل ومعهم سانتشو في البكاء . فقال الطبيب : « هذه الدموع ، وهذا الحزن ، ستجهز عليه » . وطلب منهم دون كيخوتى أن يتركوه وحده ، لأنه يريد أن ينام قليلا . فنام نومه متصلة طوال ست ساعات ، وخشيت السيدتان ألا يفيق أبدا . ولكنه فتح عينيه ، وصاح بصوت قوى :

« تبارك الله العلى القدير على ما أنعم به على ! ان رحمته واسعة لا تحد . . . وخطايا الناس لا تضعفها ولا تطفئها » .

وأصغت بنت الأخت في صمت الى كلام خالها ، وقد بدا موثورا العقل أكثر من المعتاد ، فقالت له :

« ماذا تقصد يا خالى العزيز . وعن أية خطايا ، وأية رحمة تتكلم ؟ »

فأجابها دون كيخوتى : « عن الرحمة التى وهبني الله اياها منذ قليل ، ولم تمنعها خطاياى وذنوبى . ان تمييزي الآن حر سليم ، دون أية سحابة من ذلك الجهل الذى نُسرتة على قراءاتي المستديمة الخطرة لكتب الفروسية » . ثم استطرد قائلا : « انى أشعر باقتراب أجلى ، يا بنت أختي العزيزة ، وبودى أن اموت دون أن أحمل معي الى القبر لقب مجنون ، وان كنت كذلك طوال حياتي . نادى ، أى بنت أختي العزيزة ، أصدقائي : القسيس وحائز الاجازة ، والأسطى نيكولا الحلاق » . ولم تحثج ابنة الأخت الى السعى لاحضارهم ، لأن ثلاثتهم جاءوا .

ولم يكذ دون كيخوتى يلمحهم حتى صاح : « هنئونى يا أصدقائي ، على أنى لم أعد بعد دون كيخوتى دى لامانتشا ، بل ألونسو كيخانو الملقب بالطيب » . ثم قال . « انى أشعر بالحياة تفر منى ، انى في حاجة الى من يتلقى منى الاعتراف ، والى موثق لاملأ وصيتي . في الموقف الذى انا فيه ، ينبغى على المرء ألا يسخر من روحه . وهكذا أرجوكم أن يذهب أحد لاحضار موثق ، بينما يتلقى القسيس اعترافى » .



وراح الحاضرون يتطلعون الى بعضهم البعض ، وقد أخذتهم الدهشة من سلامة عقله ، واز كانوا لا يكادون يصدقون • ثم أنه أضاف الى كلامه الأول كلاما آخر كثيرا يبين عن عقل وتقوى ، حتى لم يعد ثم شك في شفاء عقله ، وطلب الفسييس من الجميع أن يخرجوا ، وبقي معه ليتلقى منه الاعتراف •

خرج حائز الاجازة ليبحت عن موثق • وأتى به بعد قليل مع سانتشو بانثا • ولما علم سانتشو المسكين من كاراسكو سوء حال مولاه ، ووجد المرأتين تبكيان ، أخذ يتنهد ويسفح العبرات • ولما انتهى الاعتراف خرج القسيس وهو يقول : « انه يموت فعلا ، وقد حان الوقت ليملى وصيته » • أطلقت هذه العبارات زفرات المرأتين وسانتشو ، وانهلت منهما ومنه دموع غزار ، فقد كان الرجل دائما رقيق المزاج حلو المعشر ، جميل الشمائل ولهذا أحبه أهل بيته ، وأحبه كل أهالى قريته •

وعندما انتهت الوصية ، أصيب بنوبة ، وتعدد فى قراشة ، فأسعفوه • • ولم تمض سوى ثلاثة أيام لفظ بعدها أنفاسه الأخيرة •

## — ٨ —

### يسمى تقرر ليموت

لقد كتب الكثير عن هذه الوفاة المفاجئة لدون كيخوتي الذى عاد الى رشده • فبالنسبة الى أصحاب المذهب الرومانتيكى كان طبيعيا أن يموت البطل وهو يحس بالعالم الحقيقى بعد أن تعذر عليه الحياة خارج عالمه المثالى •

ويذهب بعض النقاد الأكثر واقعية الى القول بأن ثريانتس أراد أن يموت بطله لتجنب سرقات أدبية جديدة ، ففضل أن ينهى حياته على أن يرى مؤلفا مزيفا • يحل محله ( وبصورة أردأ ) •

ويبدو أن ثريانتس أعطى سندا لذلك الرأى الذى طرحه بعض النقاد ، عندما طلب فى خاتمة الرواية من السارق أن يترك عظام دون كيخوتى تترقد فى سلام فى مثواها الأخير ، وألا يحاول ، ضد قرارات الموت ، أن يعرضه على قشتالة القديمة •

ان ثريانتس يشير هذا لما جاء في نهاية الجزء الثانى المزيف عن دون كيخوتى الذى ألفه مجهول باسم مستعار هو أبيانيدا وفيه يقول :  
 ان دون كيخوتى بعد أن خرج من بيت المندوب ، الذى حجز فيه مدة من جراء جنونه عاد الى قشتالة القديمة على ظهر فرس آخر اشتراه ، وخاض هناك مغامرات رائعة ليس لها نظير ، واتخذ لنفسه سائسا وجده عند قلعة لودونى . . ولم يكن الفارس الطيب يعلم أن سائسه امرأة فى زى الرجال الا بعد أن جاءتها آلام المخاض ، وولدت وهما فى الطريق . . فرحل بغير سائس الى شلمنقة وآبله ، وباليادوليد ، ولقب نفسه بلقب فارس الأعمال .

ومن المحتمل أيضا أن يكون ثريانتس ، وهو المسيحي التقي والمتمسك براحة نفس البطل الذى أبدعته مخيلته ، قد وجد أنه من الخير أن يدفن هذا البطل سليم العقل ومزودا بالأسرار المقدسة .



## الفصل الثانى

### شخصيات الرواية

اسما البشرية بأجمعها التى تدور بجوار الفارس دون كىخوتى  
وسائسه سانتشو ، بكل ما فيها من خيلاء وزهو وغرور وتفاهة ، وبما  
فيها من ثرثرة وقراغ وخواء ، وبما فيها من خيالات ويوتوبيات ( مدن  
فاضلة ) بمثالياتها .

- ١ -

#### الفارس النبيل

ان شخصية دون كىخوتى ، وسائر الشخصيات الأخرى ، ليس لها  
حقيقة تاريخية . ولم يوجد فارس باسم ألونسو كىخادا أو كىسادا ، أو  
على الأقل لم تكتشف حتى الآن ، أية وثيقة تثبت وجوده . لقد خلق  
ثريانتس شخصية بطله ، ولكنه رسمها كأنها قد عاشت حقا . بل انه يجزم  
أيضا أنه استعار هذه الشخصية من كتاب المؤرخ العربى سيدى حامد بن  
النجلى . ويؤكد أن سكان لامانتشا يعرفون الفارس ، وأن سانتشو بانثا  
والقسيس وحائز الاجازة وكثير من الشخصيات الأخرى كانوا موجودين  
فعلا .

وهناك بعض كتاب السير يقولون انهم اكتشفوا أن دون كىخوتى  
هو صورة طبق الأصل من دون ألونسو كينتانا عم كاتالينا زوجة ثريانتس  
، وربما لغرابة هذا الشخص استحق لقب « الفك » ، وكان يسكن أيضا  
في أحد منازل اسكويبياس . ولكن ليس هناك دليل على ذلك . ولا يستبعد  
أن يكون هناك تقارب في الوصف بين بعض الشخصيات التى قابلها  
ثريانتس في حياته في أثناء تجواله وبين شخصيات الرواية . وكان  
ثريانتس يمتاز بقوة الملاحظة فلم يترك مشهدا من المشاهد التى رآها .  
رحلات ، حروب ، اختطاف ووقوع في الأسر ، إقامة داخل السجن ،

معاشية فناني المسرح ، العمل في خدمة الملك ، جولات عديدة فوق الحصان ، مضايقات ، بؤس .. كل ذلك أعطاه فرص لقاء أغرب نماذج البشر .

صحيح أن دون كيخوتي بطل لكل العصور ولجميع الأقطار والامصار ، إلا أنه لا يخرج عن كونه سيد ريفي نبيل . ولا شك أن ثريانتس قد قابل شخصيات من هذا النوع تتجول في أراضيها عبر القرى التي تلحقها الحرارة ، ويمكن أن نتخيلهم بياقاتهم الكبيرة وأرديتهم وسيوفهم التي تتدلى دائما على جوانبهم ، وسيرهم البطيء ، ووقتهم الموزع بين القراءة والنزهة وسط قرويين يتملقونهم ، وخدم مخلصين ولكن جهلاء ثقلاء .

ويحاول السيد أن يكون نبيلًا كما تراه أسبانيا القرن السادس عشر .. إذ يتصف بعدد من صفات معينة .

يكون الشخص نبيلًا بال ميلاد والعقلية ونوع الحياة التي يحياها . ويجب أن يكون من سلالة مسيحية نقية ، وتكون النفسية ذات علو ورفعة لا يشغلها إلا الأفكار السامية ، وأن يزدري كل ما هو سوقي فظ مبتذل ، ونوع الحياة التي يحياها يجب أن تخلو من العمل ، وطبعًا هذا النوع صعب وغير منتج . ويجب ألا يعيش النبيل إلا من إنتاج أرضه . ولكن لسوء حظ صاحبنا فإن هذه الميزة لم تعد سائدة ، والأجزاء الصغيرة من حقوقه لا تكفي لكي يعيش حياة كريمة ، ومع ذلك لن يلجأ إلى العمل . ذلك الذي سيحمله تحت رحمة كرم الآخرين . وعليه أن يعيش من دخله المتواضع مهما كان الأمر .

رأى أحس ثريانتس أكثر من غيره بسخرية هذا الموقف عندما قدم لنا بحاله .

فالنبالة بالنسبة للنبيل لا تظهر عن طريق الحلوى أو سقاء المائدة أو امتلاك الأراضي والخدم والقصور الفخمة ، إنما النبيل هو ذلك الذي تجرى الفروسية في دمه وقلبه . ويجب أن يكون ، قبل كل شيء ، كبيرًا يعلو فوق التوافه والصغار والسوقية والفظاظة والابتذال والخساسة والدناءة ، أي أن يكون بحق نبيلًا . يقول دون كيخوتي لسائسه سانتشو « لتعلم أنه بإرادة الله ولدت في هذا العصر الحديدي لأبعث العصر الذهبي .. أنتى جئت للمخاطر والأعمال البطولية العظيمة » . ذلك هو قانون الايمان بالنسبة للفارس الذي يحلم بآفاق لانهاية لها . ولكي يبرز هذه المثل التي يصعب الوصول إليها ، وضع ثريانتس أمام بطله شخصية سانتشو وطريقة تفكيره المختلفة وهو يرد على سيده : « سيدي .. اننى لا أعرف لماذا تريد مواجهة هذه المغامرة الخطرة .. ان الوقت ليل ولا احد يرانا ، ويمكننا أن نسلك طريقا آخر يبعدنا عن الخطر . وما دمنا



لا يرانا أحد ، فلن يصفنا انسان بأننا جبناء » • تلك هي تفاهة الشخصية،  
فان رأى الآخرين هو بمثابة قانون لمثل هذا الرجل • وطالما أن الناس  
لن ينعته بالجبن فهو ليس جبانا • انه لا يحس بأخلاقيات القروسية ،  
ولن يتبادل مع دون كيخوتي الا الأحاديث الصماء التي يعوزها هذا  
الاحساس •

## - ٢ -

### سانتشو بانثا الذى ولد لينام

كيف نفهم هذه المثالية •• مثالية دون كيخوتي الاثيرية بروحيته،  
وشقوقها ونقائها اذا كنا مثل سانشو لا نهتم الا بأجسادنا ولا نشعر  
الا بالرغبة لسد حاجتنا الأساسية فى الحياة • انه وهو المتعب والجائع  
والذى يكاد يموت عطشا لا يمكنه أن يفهم الجنون الغريب الذى يدفع  
سيده الى الانطلاق بجواده نحو مخاطر جديدة ، فنراه يقول لسيده : « ألا  
تفضل النزول من فوق جوادك والاستلقاء على العشب طلبا للراحة والنوم  
بدلا من الجرى وراء المغامرات ؟ » •

ان ثريانتس لا يطيل فى وصف سانشو بل يتركه يعيش تحت  
بصرنا •

سانتشو يترك أحلام المجد والبطولة لدون كيخوتي ، أما السائس  
فلا يتمنى الا أحلاما هادئة ، وكل ما يأمله هو أن يحظى بفضل اخلاصه  
لسيده الفارس بمكان متواضع تحت الشمس • ولكى يفوز بالجزيرة التى  
وعده بها سيده فهو مستعد لمواجهة كل أنواع المخاطر والمتاعب والانقطاع  
عن الطعام والتعرض للسب والشتم وحتى الضرب • ومن بين هذه  
المتاعب يوجد شيء وحيد لا يتحمله هو تلك الليالى البيضاء العريضة  
على سيده والتى يقضيها فى مناجاة حبيبته وتأمل النجوم • ومنذ الليلة  
الاولى وبينما دون كيخوتي يسهر وأفكاره متجهة الى محبوبته نرى  
سانتشو يستغرق فى نوم عميق لا يوقظه منه الا نداء سيده •

ترى هل استمد ثريانتس شخصية سانشو من أنموذج حى ؟  
لا يمكننا معرفة ذلك ، غير أن العالم مليء بهذا النوع من الرجال الذين  
لا يهتمون الا بملء بطونهم ، ويتعطشون الى الفراش الوثير الذى يجعلهم

يستغرقون في النوم ، ان مثاليتهم عادية جدا ، أما مثالية دون كيخوتي .  
فقد كانت غريبة وتفوق كل حد .

## - ٣ -

### الدوافع الطيبة للجامعي كاراسكو

ان لقب جامعي أو حائز الاجازة كان يطلق في عهد ثريانتس على كل من تردد على الجامعة لدة لا تقل عن سنتين . . مستوى مشرف في بلد كانت معرفة القراءة والكتابة تعد أمرا فيه ترف . وكان سانسون كاراسكو صديق دون كيخوتي رجلا مثقفا سليم التفكير اعتاد أن يشحن ذكاهه بقراءة المؤلفات الفلسفية والأدبية الضخمة التي كانت تعتبر وقتئذ أهم ما يقتنيه الطلبة .

ولكن هذا العلم لن يساعد كاراسكو على فهم صديقه ، بل انه سيكون عذيفا في محاربة جنون دون كيخوتي بكل السبل . وهو الذي ينجح بحيلته في اعادة الفارس الى مخدعه . والخدمة التي سيؤديها له ستكون قاتلة : أولا لتخيلات الفارس المسكين ، وثانيا لجسده الذي لن يتحمل الصدمة . فليس سانتشو هو الشخص الوحيد الذي لم يفهم أحلام دون كيخوتي . وصحيح أن هذه الأحلام قد بهرت ، ولوانه لا يقاسمه متاعبه وهو أجسه الا وهو متأثر قليلا بجنونه وعظمته . ونحن نراه يتحدث عن دون كيخوتي فيقول : « سيدي روحه بسيطة ، ليس فيه أي شر ، وقلبه مفتوح ، لا يسعى الى أحد ، بل يصنع الخير لجميع الناس . ولا يعرف الخبث ، ويستطيع أي طفل أن يوهمه في رائعة النهار ان الوقت ليل . انني أحبه كإنسان عيني لبراءته ، ورغم كل تهويلاته فانني لا أقوى على النصميم على تركه » .

ولم يكن هذا رأي الجامعي كاراسكو الذي يرى في جنونه داء لابد من علاجه بأسرع مايمكن فهو القائل : « أعتقد أن الراحة التامة في قريته وفي منزله ستؤدي الى شفائه » . ولذلك تذكر في زى فارس المرايا ثم في زى فارس القمر الأبيض لمبارزة دون كيخوتي وارغامه على العودة الى المنزل

تري ماهي دوافع هذه الشخصية العنيدة ؟



ان ثربانتس يقدم لنا شخصية سانسون كاراسكو كشخص مأكبر  
واسع الحيلة ويتمتع بفكر ايجابي . . فهو لا يعتقد بصحة أى شىء الا  
اذا وجد له برهانا . وهو لا يشك لحظة واحدة فى أنه على حق عندما  
يريد انتزاع دون كيخوتى من هواجسه الجنونية . ان كاراسكو يعمل من  
أجل سبب وجيه ، ولا أحد يذكر أن نبيلًا يتجول على ظهر حصانه يدرع  
الفيافي والقفار ان هو الا مجنون يجب أن يوثق ويحبس .

ولا يمنع هذا من أن يأتى الظرف الذى ينزع غصن النصر من يد  
العاقل كاراسكو . . فالموت يعيد الى دون كيخوتى هذه الأبعاد الخيالية  
الخالدة التى تستحقها دون شك هذه النفس الكائنة فوق الوجود المادى  
والخارجة عن نطاق المألوف .

ويذكرنا هذا الانتصار بانتصار آخر أحرزته بطلة مسرحية « الأنسة  
جوليا » للكاتب المسرحى الروائى السويدي الشهير أوجست ستريندبرج  
( ١٨٤٩ - ١٩١٢ ) وفيها صراع اجتماعي بين خادم وفتاة أرسوقراطية  
متناولا ثورة الرجل على طغيان المرأة . ولكن رغم انتصار جان كرجل  
فى معركة الجنس عندما غرر بجوليا ، فقد انهزم كخادم . . فعندما  
انتزعت بطلة المسرحية الموسيقى من يده لتهنى حياتها أحسنا بها تقول  
له : « رأيت أيها الخادم أنك لا تستطيع أن تموت ! » . ومضت جوليا  
فى حزم وعزم لتلقى الموت فى حين كان جان يرتعد فى حقارة فوق السلم  
بجوار أحذية الكونت ( والد جرجيا ) ! وهكذا تنتضح لنا فى الخاتمة  
ثنائية المسرحية فقد ظل ستريندبرج طوالها يصور لنا رؤيته التى لا تخلو  
من غموض عن النبيل والخسة ، والروح والمادة . . وهو إذ يحاول أن يفر  
من الحياة الى آفاق النقاء الروحي لم يستطع أن يقاوم جاذبية الجسد  
التي تسده الى لحم العالم المادى !

ولكن الطريف فى رواية ثربانتس أن هذا الصراع بين المثالية  
والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين ، وانما يتداخل الأمر مما يجعله  
أقرب الى طبيعة الحياة والأحياء ، فدون كيخوتى المثال ، لا يحركه حب  
الخير وحده مجردا ، بل انه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة .  
وسسانتشو بانثا على واقعيته وأطماعه وجشعه يستفز حبه للعدالة  
والرغبة فى الخير أيضا . والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى  
والفكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة .

\*\*\*

## الملصق •• روك جينار

عرفت أسبانيا الكثير من اللصوص ذوى المواهب المتعددة • وقد ذاع صيت بعضهم وظلوا يتمتعون بشهرة كبيرة مثل ديجو كورينتس الملقب بالملص الكريم ، والشهير قرانشسكو ستيفانو وكذلك جوسيبى ماريا « ملك » السبييرا مورينا • وقد تناقل المغنون أعمال هؤلاء الرجال المشهورين الأقوياء •

وهذا لا يعنى أن أسبانيا كانت تحمى هؤلاء أو تعطف عليهم ، ولكن حياتهم فى الخفاء كان لها لون من الاثارة بالنسبة لشعب يعانى الكثير من ألوان الظلم والاضطهاد •

تجمع خدم والدها للعمل فى الحقل فصعدت فوق قمة الأجراس وصاحت وكان من السهل أن يجد ثربانتس فى الحياة نموذجا حيا للملص الشريف والمخلص •

لقد عاش روك جينار فعلا ، وكان لصا من كتالونيا ، الا أن ثربانتس يصوره لنا وفق الخيال الشعبى على أنه لص بطل وكريم ، ومن الصعب أن نتخيل لصا يتحلى بهذه الصفات • ويصبح روك أحد أبطال رواية سون كيخوتى ويتحدث اليه بكل احترام ويمنع رفاقه من تفتيش سائتشر بطريقة جافة ، ويهب لنجدة فتاة حتى نجده فى النهاية يبكى مموتا خطيبها • ثم نراه بعد أن يجرد بعض المسافرين من أموالهم يحتفظ بجزء من الغنيمة لرجالته ويرد الباقي حفاظا على المظاهر الأخلاقية •• وكان هذا العمل من النبيل بمكان حتى أن إحدى السيدات المسافرات بلغ من تأثرها أنها أرادت أن تنزل من العربة لتقبل يدي وقدمي روك العظيم ، ولكنه يأبى أن يسمح لها بذلك ، بل ويعتذر لها عما سببه لها من ازعاج •

وشخصية روك هذه فيها الكثير من التناقضات فتتأرجح بين الأدب والعنف ، والدمائة والتوحش • وقد عرف كيف يجذب اهتمام وصدقة دون كيخوتى •

وقد ذكر الكاتب والمفكر الاسباني الكبير ميغل دى أونامونز ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) أن هذين الرجلين يشتركان فى تعطشهما للعدالة فيدفع ذلك كلا منهما بطريقته الخاصة الى البحث عن السبل التى يغير بها وجه العالم •



## دولثينيا •• الفتاة القى لا وجود لها

ان دولثينيا شخصية غير حقيقية ، وهى لا تظهر على الاطلاق فى الرواية ، واذا ظهرت فتحت شكل مجسد آخر مثلاً لشخصية دونثا لورنثو التى جعل منها فارس دى لامانتشا فتاة أحلامه •

وهذه الفتاة ، وبالسخرية ، فتاة قوية البنية ، شديدة القوة ، سليطة اللسان تثير إعجاب سانتشو •• ويحكى أنها أرادت ذات يوم أن فيهم كالبوب •

وهكذا ليست هناك أية قرابة بين هذه الفتاة القوية المزعجة وسيدة توبوسو •• ففتاة الأحلام ليست الا فكرة عن المرأة نابعة فى خيال دون كيخوتى ولا نتعرف عليها الا من حركات المتيم الولهان •• فمن أجلها يندفع البطل نحو الصعاب ويخاطر بحياته ويتلقى الضربات ويهزم ويؤكد أنها هى التى تحارب وتنتصر بذراعة ويعيش ويتنفس فيها ويتلقى منها الحياة والوجود •

وقل أن يوجد فى الأغنية أو القصيدة مثل هذا المؤلف الذى يسمو بالمرأة حتى يجرداها تماما من الجسد ويجعل منها شبحا يقع فى سواه البطل •

وقد نجح ثربانتس فى أن يجعل جنون دون كيخوتى كبيراً ومؤثراً لدرجة تؤثر فىنا • فتصبح فتاة الأحلام هذه أكثر حياة من الأحياء لدرجة أننا نتخيلها ونتساءل عنها ونخلع عليها ملامح وصفات • ومن الممكن أن نرى هذه الفتاة التى لا وجود لها انما تمثل لنا مثالية المرأة وتمجيد الحب ، ذلك الحب الذى يعتبر الوسيلة الوحيدة للشعور بالحياة ، فالفارس المتجول ، كما يقول دون كيخوتى ، الذى تخلو حياته من الحب كالشجرة الخالية من الأوراق والثمار •• كالجسد بلا روح •• وبالنسبة لثربانتس فان دولثينيا هذه ليست امرأة بل هى صورة للحب ، ذلك الحب الذى يسيطر على الانسان ، وبه تصبح للحياة معنى ، فاذا شفى منه الانسان فإنه يموت كما مات دون كيخوتى •

- ٦ -

## تيريسا .. الحكمة التي تتكلم بالأمثال

« لكل داء دواء ماعدا الموت الذي ليس له دواء » بهذه الكلمات، ترد تيريسا على سانتشو الذي يفضل أن يموت من أن يتخلى عن إدارة الجزيرة .

انها تفكر في المحسوسات الواقعية وليس في الترهات ، وهما الأول تربية الأولاد . يبلغ ابنها سانتشيكو الخمس عشرة من عمره فتقول : « لقد أن له أن يذهب الى المدرسة اذا أراد خاله الكاهن أن يجعل منه قسيسا . وهنا أيضا سانتشيكو أو ماري سانتشا التي ينبغي أن تتزوج . » ليصبح سانتشو محافظا أو حتى ملكا اذا شاء ، ولكن لبيتعد عن فكرة أن تتزوج ابنته أحد الفرسان . ان مايلزمها هو رجل من مستواها ، . وكما تقول الحكمة تيريسا « نصبح عائلة واحدة : الوالدان والأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد ونعيش في سلام ببركة الله بيننا » .

ويبتسم ثريانتس من سذاجتها ، ولكنه يرسم لنا صورة جميلة كلها رقة ويجعلها تتحلى بالتواضع والبساطة .

وهنا تهب عاصفة من الضحك يثيرها جنون سانتشو الذي يرغب في اصطحاب الزوجة والابنة الى الجزيرة التي ينبغي حكمها فتجيبه تيريسا بطوفان من الأمثال للبرهنة على أن الفرغ النسائي في العائلة قادر على المقاومة .

وبعد هذا الهجوم بالالفاظ تلجأ أخيرا الى إحدى حكمها : « اقلع ماتشاء .. اننا معشر النساء نولد وعلينا التزام الطاعة لأزواجنا مهما كانوا حمقى بلهاء » .

- ٧ -

## ماريتورنس المسكينة ذات القلب الكبير

يبدو من الوهلة الأولى أن ماريتورنس تجسد بحزن عبث الحياة وتفاقتها . ان هذه الخادمة الشابة التي تتفجر أنوثة وحيوية موضع



اهتمام سائقى الدواب وطائفة كبيرة من الذين على شاكلتهم • ولولا الوصف القبيح الذى وصف به ثربانتس هذه الخادمة لكانت القصة منافية للآداب ، ولكنها واقعية •

أضف الى هذا الوصف أنها تعبر عن الجهل التام ، وربما شعرت هذه الخادمة بهذا التخلف فنراها لا تتكلم فى معظم الوقت وتتحمل مضايقات سائق البغال الذى ينظرها فى سريره ، وحركات دون كىخوتى الذى يرى فيها احدى آلهات الجمال ويعتقد أنها مغرمة به ، وتأنيب سيدها رغم أنه لايعبأ قط بما يبديه الزبائن من اهتمام نحو خادمته •

وهناك تناقض بين هيئة الخادمة الجسدية وبين وظيفتها مما يجعل موقفها غير طبيعى •

وهذا التناقض هو مبعث الكثير من المواقف الكوميديية لدرجة يشعر وأن فكرة التناقض والهزل مجرد الهزل تغلبت على التفاهة البشرية • وهناك الكثير من المواقف المضحكة فى هذه القصة ومنها مشهد الخادمة وهى تدخل بقميصها عارية القدمين الى العنبر الذى يرقد فيه النزلاء وهى تتحسس طريقها متسللة على أطراف أصابعها بحثا عن عشيقها فتقع على دون كىخوتى •

تلك هى شخصية ماريتورنس الغبية التى تبعث أعمالها على السخرية • • خادمة بائسة لا تتردد عن الانفاق من جيبها الخاص لتخفيف آلام الآخرين • وهذا العمل الجميل المفاجئ من ماريتورنس يصيبها بصبغة الانسانية •

## — ٨ —

### انطونيا •• الرقيقة الشعور أكثر منها قاسية

استوقفتنا انطونيا ابنة شقيقة دون كىخوتى حين قرأنا الفصل السادس من الجزء الثانى من الرواية رغم أنها شخصية عابرة مر بها المؤلف ثربانتس مرور الفرافير • فحين تعرفت هى والمربية على دلائل وعلامات أن خالها يريد استئناف مهنة الفارس الجوال التعيسة عليهما ،

حاولتا بكل الطرق الممكنة أن تثنياه عن عزمه ، إلا أن ذلك كان بمثابة طرق الحديد وهو بارد . وفى أثناء الحوار الذى دار بين دون كيخوتى وابنة أخته ومربيته انبرت أنطونيا تقول له : « اه ياسيدى ، لاحظ أن كل ما تقوله عن الفرسان الجواله ليس الا كذبا وخرافة ، وإذا لم تحرق هذه التواريخ ، فانها تستحق على الأقل أن تلبس لباس المحكوم عليه بالاعدام من الديوان المقدس ، وأية علامة أخرى تدل على أنها كتب شائنة تفسد الاخلاق » .

فإذا بفارسنا يقول لها وهو يتنهد متحسرا فى اكتئاب ، وقد أحزته أن صلة الرحم لم ترحمه من قسوة الفتاة الشابة : « بحق الله الذى يعيننى ! لو لم تكونى ابنة شقيقتى ، شقيقتى أنا مباشرة ، لعافيتك على التجديفات التى تفوهت بها عقابا تسمعه الدنيا بأسرها » .

ثم صاح ساخطا مغتاظا : « كيف يمكن لفتاة بلهاء لا تكاد تحسن إدارة اثنى عشر مغزلا لعمل شبكة ، أن تتدخل وتتكلم لتعيب تواريخ الفرسان الجواله ؟ » .

قالت الابنة الأخت : « كان الله فى عونى ! أعتقد ياخالى أنك تستطيع عند الحاجة أن ترقى منبرا أو تخطب فى الطرقات ، ولكن عماك عظيم ، وهذيانك وخطبك معروف بين ، حتى لتظن فى نفسك أنك شجاع قوى وأنت عجوز ، قوى البنية وأنت مريض ، مصحح للمظالم وأنت نفسك قد أخذى عليك الدهر ، وفوق هذا كله فارس مع أنك لست كذلك .. لأنه لو أن النبلاء يمكن أن يصيروا فرسانا ، فإن الفقراء منهم لا يمكن أن يصيروا كذلك » .

فقال دون كيخوتى : « أنت على صواب فيما قلت يا ابنة شقيقتى ، وفى وسعك فيما يتعلق بهذه الفوارق فى الأصول ، أن أعلمك أمورا تخبى لبك وتنتزع أعجابك » . ثم استطرد قائلا : « هناك جنس فى هذا العالم كان أوائلهم متواضعين ، ثم انتشروا وتزايدوا حتى بلغوا قمة العظمة »

وفى موضع آخر نراه يقول : « وثم طريقا للوصول الى العظمة والجاه : الآداب والأسلحة وأنا أكثر تضلعا فى الأسلحة منى فى الآداب . وقد ولدت ذا ميل فطرى الى الأسلحة ، تحت تأثير النجم المسسمى المشتري » .

وهكذا فأنى مضطر الى سلوك هذا الطريق ، وساتبعه على الرغم من كل العالم بأسره . فعبثا أذن تحاولان اقناعى بالسير ضد مشييده السماء ، وضد أمر القدر ، وأمل العقل ورغبة نفسى . وأنا أعلم أنه إذا كانت أعمال الفروسية الجواله لا تعد ولا تحصى ، فإن الخيرات التى تجلبها هى أيضا لا نهاية لها ، وإذا كان طريق الفضيلة ضيقا ، فإن طريق الرذيلة واسع رحب فسيح . وأن هذين الطريقين مختلفان كل الاختلاف ،



لأن طريق الرذيلة ، وهو مفتوح وميسور ، يفضى الى الموت ، وطريق الفضيلة ٠٠ القاسى الشاق يفضى بنا الى الحياة ، لا الى حياة فانية ، بل الى تلك التى لم تنفد أبدا وأنا أعلم ، كما قال أحد كبار شعرائنا الأسبان ( وهو جارتيلاسو دى لابيغا ١٥٠٣ - ١٥٣٦ ) ، أنه عن هذه الطرق الشاقة يذهب المرء الى عرش الخلود ، حيث لا يصل اليه أبدا من يتخذ طريقا آخر » .

فصاحت ابنة الأخت : « آه ! يا لشقاى ! ان خالى شاعر أيضا ٠٠ انه يعرف كل شىء ، ويفهم كل شىء ، وأراهن أنه لو شاء أن يكون ببناء لبنى منزلا كالقفص » .

وفي الحقيقة ان الفتاة الشابة ٠٠ أنطونيا كانت ذات فطرة سليمة، وممتلئة بالعفة والفضيلة وتخشى الله . ونحن لانلومها على اخلاصها .

بيد، أننا اذا أردنا أن نحلل هذه الشخصية علينا ألا نجزئ غضب دون كيوخوتى ، وذلك الذى تذهت به تلك الفتاة ، التى نعتها خالها بالبلهاء ، حتى لا نبدو أمامها أشخاصا سريعى التصديق .

ولاريب أنه فى هذه المرة أيضا قد تسلل اليها ذلك الجنون النبيل ٠٠ جنون دون كيوخوتى من طول معاشتنا له حتى أصابنا بالعدوى دون أن نعلم . ومن فرط ترددنا على عالمه حتى ألفناه وصادقناه ، جاءت اللحظة التى أصبح فيها الآخرون ، الذين كنا نعتقد أنهم من ذوى العقول السليمة والتفكير السوى، وقد بدوا لنا قصيرى النظر ، عاجزين عن أن يتأثروا بشىء غير خوابى النبيذ والفراش الوثير ( حلم سانتشو ) أو يهتزرون لغير مهنة تخريم الدانتلا ( تلك التى تلخص حياة أنطونيا ) .

ان هذه الفتاة الشابة التى ترهقها الأعمال المنزلية ، ورغم ظهورها العابر الذى لم يستغرق سوى لحظات خاطفة فى الرواية ، تجسد لونا رماديا رسسّمته فرشاة ثريانتس الفنان عن الحياة الرتيبة المملة التى تعيشها العديد من النساء ، غير أنهن بقدر ما يعانونه من تعب وسأم وملل وضجر بقدر ما يتمتعن بفطرة سليمة ، وعفة وفضيلة .

وهى أيضا صورة أصيلة ونموذج للكثيرين من ذوى الفكر الهزيل .

وهكذا نجد أن أنطونيا التى تمثل اللون الرمادى ، انما هى رمز لأولئك الذين يعيشون عيشة الكفاف ، ويحيون حياة خاملة .

## الفصل الثالث

### عرض لآراء الكتاب والنقاد في العمل

#### ( ١ ) تفوق ثريانتس في الميدان القصصى

كان ثريانتس شاعرا وكاتبا مسرحيا وقصصيا يكتب القصة القصيرة والرواية .

أما عن شعره فإن ثريانتس نفسه يعترف بأن مقدرته فيه متوسطة وفي خطاب مؤرخ في الرابع عشر من أغسطس عام ١٦٠٤ ذكر الكاتب المسرحي الكبير لوبي دى بيجا أنه لا يوجد في أسبانيا شاعر « سىء مثل ثريانتس » .

وقد كتب ثريانتس كمية وافرة من الشعر الذى شغف به طوال حياته . فمنذ كتب أولى قصائده بمناسبة وفاة الملكة ايزابيل دى فالوا عام ١٥٦٩ حتى نهاية حياته تعددت المناسبات التى نظم فيها شعرا فكتب القصائد عن الأحداث المعاصرة ، والحب ، ومدح الشعراء المعاصرين ، وكتب قصيدة عن القديس تريستا دى أبيلا ، وتغنى بالآرمادا . . الأسطول الأسباني الذى لا يقهر . وكثيرا ما تتضمن رواياته ومسرحياته أشعارا دينية . وقد تخللت رواية دون كيخوتى بعض المواقف الشعرية . وفي قصيدته الطويلة « رحلة الى بارناسو » التى تقرب من ثلاثة آلاف بيت امتدح ثريانتس شعراء عصره البارزين ، وعرض أعماله وانتاجه الأدبي فخورا بها ، وبعض النبذات عن تاريخ حياته .

وكان ثريانتس يعلق آمالا كبيرة على مؤلفاته المسرحية . ولكنها لم تلق حظا أكثر من شعره لأسباب عدة منها نظرتة التقليدية للممثل وخضوعه المبالغ فيه لقواعد أرسطو في التأليف المسرحي ، وعدم توفيقه في تطوير الحدث ، كل ذلك لم يسمح له بمنافسة الأعمال الخلاقة التى قام بها لوبي دى بيجا .



ومن أحسن مسرحيات ثريانتس « حصار نومانثيا » . مأسسة حدثت في أسبانيا في أثناء حصار الرومان انومانثيا عام ١٣٤ ق م . وفيها يشيد ثريانتس ببطولات الأسبان حيث فضل أربعة آلاف منهم الموت على الاستسلام ، وقاوموا ثمانين ألفا من جنود الرومان وعانوا حصاراً طويلاً انتهى بآبادة المحاصرين وافنائهم عن بكرة أبيهم . ومن مسرحياته أيضاً : « تجارة الجزائر » وقد استمد مادتها من أسره في الجزائر ، و « سجون الجزائر » و « الزوج العجوز الغيور » و « بدرو المحتال الماكر » و « كهف سالامانكا » .

ويشير ثريانتس في مقدمة كتابه « ثمان كوميديات وثمان فواصل كوميدية جديدة » الى أنه كتب من عشرين الى ثلاثين مسرحية في الفترة من ١٥٨١ الى ١٥٨٧ .

أما الميدان الذي تفوق فيه فهو ميدان القصص والروايات . وقد أثبتت رواية دون كيخوتي وجودها لكونها شيئاً جديداً . لم تخيب شهرتها منذ ذلك الحين .

الا أن رواية « لاجالاثيا » التي تتبع أسلوب الرواية الرعوية لم تعش طويلاً رغم أن هذا الانتاج كان أكثر أصالة في نوعه وفي زمنه ، فمنذ أن ألف الكاتب الايطالي جاكوبو سساناتزارو قصصته الرعوية « الأركاديا » أصبحت نموذجاً لكل القصص الرعوية من بعد . وامتلات السوق الأوروبية بهذا النوع من الروايات ، والذي لم يلبث أن انتشر في أسبانيا في العصر الذهبي ( القرن السادس عشر ) . ولم يكن هذا النوع من المؤلفات يروق لثريانتس . فبالرغم من أن قصة الحب الريفى التقليدية بية راعية الغنم الجميلة والراعى الشاب ايليثيو يقدمها مؤلفها كبداية لكتاب مقسم الى ستة أجزاء فإن هذه الرواية لم يكن لها بقية . وقد فسر ثريانتس سكوته هذا في قصته القصيرة : « حوار الكلاب » . ونحن نراه يدلنا برأيه محكما مقتضيا عن ذلك النوع الأدبى . ان يقول الكلب برجانسا الى صديقه الكلب ثيببون : « ان أصحابى الرعاة كانوا يمضون أحسن أوقاتهم في تنظيف شعر بعضهم البعض وفي ترقيع أحذيتهم » . وعن الأركاديا يقول الكلب الفيلسوف : « تلك أشياء ترى في الحلم وتقدم لتسلية العاطلين ممن ليس لهم عمل ولا تحمل أدنى ظل من الحقيقة » .

واذا كان ثريانتس قد زج بنفسه في هذا النوع فإنه كان يحلم بطبيعة مثالية . وكما عبر في « لاجالاثيا » عن أسفه للعصر الذهبى حيث كان الجميع يجهلون هاتين الكلمتين : « ما تملكه أنت وما أملكه أنا » . وفى هذه الكلمات نرى هجومه على الملكية الشخصية وبداية لمذهب روسو . فجان جاك روسو ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) نراه فيما بعد يعزو الشر والخطيئة الى المجتمع ، وينادى بالعودة الى الطبيعة والحياة الطبيعية البسيطة حيث يجد فيها الانسان سعادته .

وقد أصبحت مثالية ثريانتس ركنا أساسيا في أعماله التالية . ولما كانت رواية « لاجالاتيا » قد ارتبطت بالأسلوب الشائع في ذلك الحين ، لذا عاشت حياة قصيرة ولم تكن لها أصداء . بينما نجد أن مؤلفاته التي تعدت هذه الحدود مازالت تقدم للقراء ثروة لا ينضب معينها .

وتحتل القصص النموذجية مكانا خاصا في مؤلفات ثريانتس لما يتكشف فيها من عناية بالأسلوب ، وإبداع في فن التأليف . ولقد اعتبرت لمدة قرن من الزمان تحفة المؤلف ، وكثرت طبعاتها حتى فاقت في القرن السابع عشر طبعات دون كيخوتي . والقصص النموذجية معاصرة لرواية دون كيخوتي تحفة ثريانتس الرائعة ، والتي لو لم يكتبها أصلا لكانت قصصه القصيرة كافية ليتربع مؤلفها عرش عمالقة الأدب ، فكلها من إبداعه شأنها شأن رواية دون كيخوتي . وهو لم يأخذ سوى الشكل من القصص الإيطالية الرومانتيكية . وقد قال ثريانتس بحق في تقديمه لهذه الأثنى عشرة قصة أنه أول من كتب قصصا قصيرة في قشتالة ، ويعد ثريانتس المبدع الحقيقي للقصة السيكلوجية القصيرة في أسبانيا .

وبرغم أن ثريانتس قد أطلق على مجموعته القصصية : قصص نموذجية إلا أن نموذجيتها ليست مثل القصص التعليمية القديمة كتلك التي كان يكتبها خوان مانويل . ولكن ثريانتس قد أضاف صفة « نموذجية » إشارة الى أن قصصه القصيرة ليست من النوع اللا أخلاقي كما في القصص الإيطالية .

ولما كانت أسبانيا وطن القديس اجناثيو دي لويولا ، والقديسة تريسا دي آبيلا ، والقديس خوان دي لاكروث ثم لمحاكم التفتيش ، فتت كان لزاما على ثريانتس أن يسمى قصصه بالنموذجية أو المثالية ليبرهن على شرف مقصده . وهي تتكون من اثنتى عشرة قصة . وقد بنى بعضها على حبكة رومانتيكية معقدة . تلك التي تروق لثريانتس ككاتب مسرحي . والبعض الآخر منها استمد من خبراته الشخصية . ولما كان الأسبان يستمتعون بالقصص التي يسخر فيها الخدم الأوغاد من سيادهم ، فقد كتب ثريانتس قصصا تصور حياة الأفاقين والمتشردين واحداها كانت حوارا بين كلابين ينطقان بلسان هؤلاء الأفاقين وعنوانها : « حوار الكلاب » . ومن قصص المجموعة أيضا : « الغجرية » ، « الغيور الأكستريمادوراوى » ، « حائز الاجازة » ، « زجاج » وغيرها .

وقد أدخلت هذه المجموعة القصصية الواقع في الأدب ففيها صورة حقيقية لأخلاقيات العصر ، وأسلوب حى ، وقن عميق . وتبين عن مواهب عظيمة في الإبداع وعن ثراء في التعبير ، وتعد شيئا جديدا في ذلك العهد الذى كانوا يكتفون فيه بترجمة القصص التي تصل اليهم من ايطاليا ثم من فرنسا ، وكانت من النوع الذى يتميز بالاثارة واستغلال موضوعات تكاد تكون اباحية ، وترسم صورا واقعية لبعض المظاهر غير السليمة في أخلاقيات ذلك العهد .



وأصبح من المسلم به أن كل ما كتب من قصص منذ القصص النموذجية لثربانتس ينبع من هذه الأرض الفنية • وكل النقاد يجمعون على ذلك •

وقد خلع الكاتب المسرحي تيرسو دي مولينا ( ١٥٨٤ - ١٦٤٨ ) على ثربانتس لقب بوكاتشو الاسباني • وذلك اشارة الى الكاتب الايطالي جوفاني بوكاتشو ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ ) الذي احتل مكانة هامة في تاريخ الأدب ومن أهم أعماله الديكاميرون التي تشمل مائة قصة •

وقبل أن يغادر ثربانتس دنيانا بثلاثة أيام أنجز السطور الأخيرة من روايته « أعمال برسيلس وسيجسموندا » • وقد طبعت عام ١٦١٧ • وهذه الرواية زاخرة بمغامرات مختلفة من الخيال • وهي تحكى مغامرات عاشقين يهربان من بلادهما ، ويتعرضان لمغامرات مثيرة لينتهي بهما المقام في روما حيث يتزوجان • وهذه القصة لا يقرأها اليوم الا المتخصصون الذين تعجبهم صفات الرواية القديمة •

أما رواية دون كيخوتى فهي أعظم عمل فنى في الأدب الاسباني • وقد أفردنا لنقدنا بقية هذا الفصل الثالث من الباب الثانى •

## ( ب ) فيض حماسى من التفسيرات

ترتبط شهرة ثربانتس بالاستقبال الحافل ، والترحيب المنقطع النظير الذى لاقتة تحفته الأدبية دون كيخوتى منذ نشر الجزء الاول من هذه الرواية • وما زالت مغامرات « الفارس الحزين الطلعة » وسائسه الغليظ الحركة تلاقى الاعجاب والتقدير من قراء العالم أجمع لمدة ثلاثة قرون متصلة •

وكما يحدث بالنسبة للمؤلفات ذات الاهتمام العالمى صارت هذه التحفة موضع تفسيرات عديدة • وكانت كل حضارة تلتقى فيها بكل ما يتحدث عنه • وهذا الفيض الحماسى من التفسيرات لم يتوقف منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا • ومهما تغيرت الأذواق وتنوعت الأفكار فمن الحسير أن نجد فى التاريخ حقبة لم تهتم بهذه التحفة • بل تحوات أهم شخصياتها مع مر السنين وكر الأعوام الى خرافات عالمية وصمدت أمام تجربة التفسيرات العديدة المتضاربة •

حازت هذه الرواية نجاحا ساحقا في حياة مؤلفها ، وليس أدل على ذلك من تلك الطبعات الست عشرة التي ظهرت في ذلك الوقت . وقد اعتبر هذا العمل أطرف قصة في عصرها ، وأخذت شعبيتها تزداد في اضطراب مستمر .

ومن الأقوال الأسبانية الماثورة عن دون كيخوتي أنها قوبلت بالضحك في القرن السابع عشر ، ثم بالابتسامات في القرن الثامن عشر ، وبالدموع في القرن التاسع عشر ، ويحتوى هذا القول رغم اقتضابه على بعض الحقيقة . إذ أن مضمون هذه الرواية لم يزد عمقا الا بالتدريج ، ولم تظهر نفائس هذه الرواية الا مع مرور الزمن .

ويجدر بنا الآن أن نعضى في رحلة عبر المراحل المختلفة التي مرت بها هذه الرواية التي خرجت من يد المؤلف لتسلك طريقا غير متوقع .

## ٦

### ملهاة المكتئبين

لاحظ أول قراء هذه الرواية ما أعلنه ثربانتس نفسه عما كان يريد إدخاله في هذا العمل : نقد أدبي يسخر من هذا النوع الذى بدأ يأفل وهو روايات الفروسية ، وفي نفس الوقت أراد المؤلف أن تكون روايته ملهاة للمكتئبين والغاضبين وتمدهم بالتسلية الطريفة والبريئة . وقد سلك المؤلف المجهول ، الذى أكمل الجزء الأول من الرواية ، هذا الاتجاه . . . فرأيناه يعطى لأبطال ثربانتس تفسيرات كاريكاتورية ، وجعل من دون كيخوتي مجنونا مضحكا ومن سائسه مخلوقا بالغ الحقارة . أن ضيق العقلية البشرية في دون كيخوتي لمؤلفه آبيانيدا تبين لنا كم كانت قراءة دون كيخوتي ، تحفة ثربانتس ، سطحية . لقد بدت مغامرات الفارس الحزين الطلعة كوميدية ومسلية قبل كل شيء . والدليل على ذلك أعدادها العقيم للمسرح الذى قام به جويين دى كاسترو ( ١٥٦٩ - ١٦٣١ ) وهو من أبناء بالانثيا . ولم يستطع المثقفون في ذلك العصر ، ولا حتى الشعراء السمو والعلو والارتفاع عن هذا المستوى الظاهري . وقد كتب لوبي دى بيجا يقول : « الأحرق فقط هو الذى يمتدح دون كيخوتي » .

ولكن في مقابل ذلك نرى أن بساطة الرواية ووضوح أسلوبها



وتوازنها المنسق أشاع شعبينها بين الجماهير الأقل ثقافة . وفي هذا ما يفسر خلو الطباعات التي ظهرت من الحواشي والتعليقات . وقد تكون الأفكار والتعليقات التاريخية والعواطف واللغة التي تناولت كل ذلك من الوضوح بمكان بحيث لم تكن الرواية في حاجة الى تفسير في نظر قراء هذا العصر . ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للأجيال التالية التي لم تدرك بعض المصطلحات والاشارة الى عادات وتقاليدها أو شخصيات طواها النسيان . ولذلك أضحت هناك حاجة الى ضم ملحق تفسيري مناسب للرواية .

- ٢ -

## الثأر من شارل الخامس

ان مشكلة تفسير رواية دون كيخوتي تفجرت في أوروبا بمناسبة الترجمات الأولى لها .

وفي البلاد التي كانت اسبانيا على علاقة مباشرة بها عرفت رواية دون كيخوتي منذ الربع الأول من القرن السابع عشر . ويرجع الاستقبال الذي قوبلت به في فرنسا على أقل تقدير نتيجة للموقف المعادي لاسبانيا الناشئ عن ظروف سياسية . وقد اعتبرت شخصية دون كيخوتي تقليدا ساخرا حيا للمثاليات البطولية التي كانت سائدة في عهد الامبراطورية . فأشبعت قراءة مغامرات هذا الفارس النبيل رغبة الانتقام في نفوس أبناء عمومة هؤلاء الذين انتصر عليهم شارل الخامس . ان وجد القراء الفرنسيون في تفتت الأحلام التي تمجد الفروسية اشارة واضحة لنهاية فكرة العظمة والصمود الخرافية التي كانت سائدة منذ أكثر من قرن .

ومهما يكن من أمر فقد اعتبر ثربانتس في فرنسا منذ القرن السابع عشر أحسن من مثل الفن القصصي الاسباني .

## كهل وجندى ونبيل وفقير

وهناك قصة طريفة نقلها ماركس دى توريس ناقد رواية دون كيخوتي والذي كان كاهنا في حاشية كاردينال توليدو تبرهن عن المكانة التي حققها ثربانتس في فرنسا ، وفي حياته • كان ذلك في أثناء المفاوضات الجارية بمناسبة حفلات الزواج الاسبانية التي ستجمع بين لويس الثالث عشر وان دوتريش ( ابنة الملك فيليب الثالث ) وكذلك زواج ايزابيل ابنة هنري الرابع وفيليب الرابع • فقد توجه كاردينال ورئيس أساقفة توليدو مع حاشيته في الخامس والعشرين من فبراير عام ١٦١٥ لرد زيارة سفير فرنسا الذي حضر خصيصا لابرام الزواج • ويقول الناقد والكاهن : « لقد اقترب منى بعض النبلاء الفرنسيين الذين كانوا في حاشية السفير ومن أصدقائي يستفسرون عن الكتب التي كنا نوليها اهتماما خاصا • وما ان طرق مسامعهم اسم ثربانتس حتى أخذوا يذكرون المكانة المرموقة التي كانت تحظى بها مؤلفاته في فرنسا وفي الدول المجاورة لها • وكان أحدهم يحفظ لاجالاتيا عن ظهر قلب تقريبا ، والقصص النموذجية • وقد بلغ مديحهم حدا جعلني أعرض عليهم مصاحبتهم لمشاهدة مؤلف هذه الكتب ، فقبول هذا العرض بحماس شديد ، وراحوا يسألونني عن عمره ووظيفته وصفاته ومركزه ، فاضطرت أن أقول لهم انه عجوز وجندى ونبيل وفقير • فقال أحدهم كيف لا تمنح أسبانيا الثراء لهذا الرجل ، وتجزل له العطاء مفعقة عليه من المال العام ؟! وأنبرى آخر يقول : اذا كانت الحاجة قد دفعته الى الكتابة فقد شاعت الارادة الالهية الا يكون في رغد من العيش حتى يفدى وهو الفقير العالم أجمع بمؤلفاته » •

ترى هل تم اللقاء المنشود ؟ لم يدل ثربانتس بأية تفاصيل عن ذلك الا اذا أردنا تفسير ما ذكره ثربانتس في مقدمة الجزء الثاني من روايته كاشارة لهذا اللقاء عندما قال ان دون كيخوتي كانت موضع التقدير في الصين نفسها ان كتب مايلي : « والذي أظهر أكبر رغبة في مشاهدته هو امبراطور الصين العظيم ، ذلك انه بعث الى قبل أقل من شهر برسالة عاجلة مع رسول خاص ، مكتوبة باللغة الصينية ، يطلب منى فيها ، أو بالأحرى يتوسل الى ، أن أبعث به اليه ، لأنه يود أن ينشئ كلية تدرس فيها اللغة الاسبانية ، وأن يكون النص المستخدم في التعليم هو قصة دون كيخوتي » •



— ٤ —

## الفرنسيون يبهرون أسلوب الرواية

ان الأسلوب الروائي الذي كتبت به تحفة ثربانتس قد بهر الفرنسيين • وقد استعرض أونوريه دي أورفيه ( ١٥٦٧ - ١٦٢٥ ) هذا الأسلوب في روايته « آستريه » وهي رواية رعوية الا أن أهميتها ترجع الى أنها طورت تذوق التحليل الرقيق للمشاعر والأحاسيس الذي استوحاه مؤلفها من رواية «ون كيوخوتى • وكذلك شارل سوريل في روايته « الراعى الأخرق » التي ظهرت عام ١٦٢٧ •

وكان الكاتب المسرحي راسين ( ١٦٣٩ - ١٦٩٩ ) يحتفظ بالقصص النموذجية ، وبرواية دون كيوخوتى في مكتبته • وأبدى الشاعر الفرنسي لافونتين ( ١٦٢١ - ١٦٩٥ ) ، الذي اشتهر بخرافاته ذات المغزى ، إعجابه بهذه المؤلفات • كما أخذت الكاتبة الفرنسية مدام دي سيفينييه ( ١٦٢٦ - ١٦٩٦ ) تقص الرواية على أصدقائها في إحدى نزعاتها • وكان كثير من الفرنسيين قادرين على قراءة ثربانتس في النص الأصلي والحكم على مقدرة المترجمين • ومن الطريف أن أحسن ناقد في ذلك القرن ، وهو سان أفريمون ( ١٦١٦ - ١٧٠٣ ) كان يوقع على خطاباتة التي يرسلها الى مدام دي مازاران بهذه الكلمات : « الفارس الحزين الطلعة » وكانت الدوقة تجيبه برسائل مبهورة بتوقعيها : « دولثينيا » • وكان سان أفريمون يقول : « من يين الكتب التي قراتها تمنيت أن أكون مؤلف كتاب دون كيوخوتى » •

وبوسط هذا المديح سنتوقف أمام الكاتب الفرنسي لى سباح ( ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ) مؤلف رواية « الشيطان الأعرج » ، والذي يدين بالكثير الى ثربانتس ، اجترأ على وضع دون كيوخوتى المزيف ، والذي ترجمه للقارئ الفرنسي ( ١٧٠٤ - ١٧٠٧ ) قبل دون كيوخوتى الحقيقي • الا أن فولتير ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) وهو من أعظم كتّاب فرنسا ومن زعماء الفكر الحر ، أعاد التوازن لميزان النقد عندما قارن رواية دون كيوخوتى الأخيرة بالأوديسا •

— ٥ —

## الإنجليز والرواية

بينما وجد قراء الدول اللاتينية في رواية « دون كيخوتى » ملهات لطيفة ، نجد أن النقاد الانجليز في القرن الثامن عشر ، وكذلك نقاد الماديا قد نظروا الى الرواية نظرة أكثر جدية .

لقد انفعّل الجمهور الانجليزى بهذه الرواية بحساسية أكبر حيث كانت هناك ظروف ملائمة في الثقافة الانجليزية لتقبل رسالة ثريانتس . ولكن هناك أسباب أخرى أسهمت في الحكم السليم على هذه الرواية لاسيما حب التدقيق والبحث السيكولوجى الذى يتصف بالواقعية . وانجلترا هي أول دولة تقوم بترجمة « دون كيخوتى » منذ عام ١٦١٢ . كما يعود اليها الفضل في محاولة التفسير الحرفى الدقيق لهذه الرواية

وفي عام ١٨٧١ قام كاتب انجليزى يدعى ج . بول بتأليف كتاب قيم عن ثقافة ثريانتس الواسعة ، واستخرج منها تفسيراً علمياً ذا صبغة أدبية وتاريخية ولغوية ، ولكن بقدر أقل لا يرقى الى مستوى رواية « دون كيخوتى » للمؤلف الأسباني .

١. نشاط العلماء اللغويين في القرن السابع عشر هو الذى دفع النقاد الأسبان الى وضع مذكرات تفسيرية . كما تأثر كتاب الرواية الانجليز في ذلك العصر بأسلوب ثريانتس . فقد وجد دانييل ديفو ، مؤلف رواية روبنسون كروزو ، في رواية دون كيخوتى نية مقصودة في النقد الاجتماعى اللاذع . كما نرى في رواية « تريسترام شاندى » لمؤلفها لورنس ستيرن الكثير من الآثار الكيخوتية : الاجتماعات التى لا تنتهى ، ورحلات الفروسية ، والتخيلات الروكامبولية والوصف الدقيق للمشروعات الجنونية . ولم يكن ستيرن هو الوحيد الذى أعاد شخصية « دون كيخوتى الشمال » بل قام قوبياس سموليت بتقليد الرواية في روايته « رودريك راندوم » التى نشرت في عام ١٧٤٨ . كما أن له رواية بعنوان : « مغمرات السير لونسيلوت جريفز » وهى قصة دون كيخوتى من القرن الثامن عشر .

وأخيراً قام هنرى فيلدنج بكتابة نص ساخر عنوانه : « دون كيخوتى في انجلترا » .



## الركض وراء النوايا الخفية والمقاصد السرية

ظلت رواية دون كيخوتي هي القراءة المفضلة لدى جمهور أسباني كبير طوال القرن الثامن عشر . ولكن بتأثير فلسفة التنوير التي جاءتهم من فرنسا فسرت الرواية على أنها نقد لاذع وأن مؤلفها كانت له نوايا خفية ومقاصد سرية ذات صبغة سياسية واجتماعية .

وكلما أتاحت ظروف النشر كانوا يحاولون الكشف عن الأسباب الحقيقية التي دفعت ثريانتس الى كتابة الرواية . ومن هنا بدأت الحقبة الطويلة التي يمكن تسميتها بالمجرى وراء نوايا المؤلف الخفية . فنحو عام ١٧٨٠ قام الناقد بيثنتي دي لوس ريوس بالسير في هذا الاتجاه ، وحول الصورة الانسانية الواسعة التي تتضمنها الرواية الى مجموعة من التلميحات والاشارات الى شخصيات وأحداث وقعت في القرن السادس عشر . ولم يتردد في ذكر تلميحات دقيقة تشير الى الامبراطور شارل الخامس والدوق دي ليرما والى عظماء آخرين عاشوا في هذا العصر . ولأثبت رؤيته هذه يؤكد الناقد وجود تكملة لدون كيخوتي هي البوسكابييه ( أو بالون التجربة ) أضاف فيها المؤلف ( يقصد ثريانتس ) في أواخر حياته اللثام عن مفاتيح هذه الايام القديمة ، مزيحا النقاب عن خفايا روايته .

ومن أغرب ما حدث عام ١٨٤٨ أن أدولفو دي كاسترو ادعى أنه عثر على البوسكابييه فأثار عندما نشره معركة نقدية عنيفة ظلت حامية الوطيس حتى اللحظة التي افتضح فيها هذا التلاعب والادعاء .

وظل أتباع ثريانتس في أسبانيا ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يسيرون طويلاً في هذا الطريق الذي اختطه النقد الرمزي وسسّمته رواية دون كيخوتي سيرة ذاتية عن حياة ثريانتس متسربة بالرمزية قصد هجاء وفضح العديد من مختلف الشخصيات . وقد شعر أحد النقاد عن مساعد الجذ والاجتهاد بحثاً عن العلاقة بين حياة المؤلف وبعض مغامرات الفارس الحزين الطلعة . وكذلك تناول أسسماء الشخصيات سسعياً وراء التغييرات التي أجريت في ترتيب أحرف تلك الأسماء لعله يكتشف اسماً مستتراً ومحجوباً . وراح تابع آخر من أتباع ثريانتس يحاول اثبات أن المؤلف عندما كتب دون كيخوتي كان مدفوعاً برؤية لتخليص مجتمعه في ذلك العصر من عيوبه وآفاته ونقائصه محاولاً تصحيح مساوئه وأخطائه ، وأن يبني مجتمعا آخر .

وهناك رؤية أخرى كاثوليكية لهذه القضية بطلها هيجل كورتاثيرو

في كتابه « ثريانتس والانجيل » وفيه يريد أن يرى في بطل لامانتشا صورة تحيط بها هالة من القداسة ، ويختتم كتابه معلنا ضرورة تفسير دون كيخوتي من منطلق الانجيل .

وكان رد الفعل لكل هذه التفسيرات والاتجاهات أن تكونت في إسبانيا ذاتها مجموعة قوية من الشراح المدققين المتمكنين راسخي الأقدام وقد فضل هؤلاء السلاماء البحث من النواحي التاريخية والسيرة الذاتية واللغوية بدلا من التفسيرات الاعتبارية التي قد لا تخلو من تعسف وجموح في الخيال .

— ٧ —

### هوميروس الجديد كما يراه الرومانتيكيون

يرجع الفضل الى الرومانتيكيين الألمان في ايجاد التفسير الجاد لتحفة ثريانتس التي راوا فيها أنموذجا للرواية الحديثة أو على الأقل مؤلفا يفي بالتزامات الفن القصصى في القرن التاسع عشر . فقد اكتشفوا فيها مرضا مكتملا ومتوازنا للاتجاهات المتعارضة التي تشغل العقل البشري ، وبهذا تصبح مغامرات فارس دي لامانتشا ذات مغزى عميق .

ويعود الفضل الى الفيلسوف الألماني شيلينج ( ١٧٧٥ — ١٨٥٤ ) الذي وجد أن ثريانتس قد نجح في تحويل رواية الى صورة عامة وجميلة للحياة . ولولا عبقريته هذه لأصبحت هذه الرواية مدعاة للنقد الساخر لنوع معين من الجنون . ولذلك فهو يعتبر دون كيخوتي النموذج الكامل للرواية ويدعو الى ضرورة اتباع قواعد تأليفها على أن نأخذ في الاعتبار فيما يختص بالموضوع حقيقة القرن التاسع عشر .

ويعتبر شيلينج أن ثريانتس أكبر عبقرية أنجبتها الحضارة الأوروبية . وأن تأثير تحفته الشعرية لا يمكن أن تقارن الا بتأثير هوميروس بالنسبة للحضارة الكلاسيكية . فرواية دون كيخوتي في نظره تجمع أفضل ما فيها من حساسية فنية حديثة ، بين النوع الملحمي والنوع الدرامي فدون كيخوتي ليست نقط رواية عظيمة فحسب ، انما هي الرواية بمعنى الكلمة في براعتها وشفوفها .

ويؤكد الكاتب فيلهلم فون شليجل ( ١٧٦٧ — ١٨٤٥ ) على المعنى الرمزي للرواية التي تعبر عن الصراع الأزلي بين الشعر والنثر في الوجود الانساني .



## ادخال الشعب في الرواية

وقد رأى الشاعر الألماني هينريش هايني ( ١٧٩٧ - ١٨٥٦ ) أن رواية دون كيخوتي قد أدخلت الشعب وقدمته في ثناياها ، وكان هذا بالتالي بدء الأدب الحديث .

ومن ثم نجد أنه في القرن التاسع عشر استرعت الرواية انتباه أكبر شعراء وكتاب أوروبا واستلقت أنظارهم . وبالمثل يتغلغل تأثيرها في فرنسا . وقد أصر شاتوبريان . . أحد رواد الحركة الرومانتيكية الفرنسية عند زيارته لاسبانيا أن يتجول في إقليم المانتشا الشهير ، وكان دون كيخوتي بالنسبة إليه « آخر الفرسان » . ونراه يقول « لقد بلغت الموهبة حدا أن جعلت من النقد اللاذع للفروسية اطراء ومدحا خالدا لأخلاقيات وفضائل وآداب الفروسية في العصور الوسطى » .

أما الروائي الفرنسي ستندال ( ١٧٨٣ - ١٨٤٢ ) فقد قرأ دون كيخوتي وهو في العاشرة من عمره ، وكان يكتم ضحكاته خوفا من أن ينتزع والده المتزمت الرواية منه . وفي سن الثالثة والخمسين كان يريد أن ينسى ، في كل شهر ، كبرى أعمال ثريانتس حتى يجد لذة في إعادة اكتشافها .

وعرف الناقد الفرنسي الكبير سانت بيف ( ١٨٠٤ - ١٨٦٩ ) كيف يستخرج ما أتى به الكاتب من جديد وأساسى . فأشار الى الفكر المحصن الحر الذي أوحى به المؤلف الأسباني ، والذي نجده منعكسا في نفسية البطل الرئيسي .

ويقول فيكتور هيجو ( ١٨٠٢ - ١٨٨٥ ) : « يجب معرفة قراءة كتب القرن السادس عشر . ففي أغلبها ، بسبب ما تتعرض له حرية الفكر في ثناياها من تحذيرات وتهديدات ، يوجد سر يجب الكشف عنه ومفتاحه غالبا ما يكون مفقودا » .

ويعلق الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير ( ١٨٢١ - ١٨٨٠ ) على رواية دون كيخوتي بهذه الكلمات : « ياللاكتب الضخمة أنها تكبر كلما تأملناها مثل جبال البرانس وينتهي بنا الأمر بأن نخشاها » .

وكتب الشاعر والروائي والناقد تيوفيل جوتييه ( ١٨١١ - ١٨٧٢ ) عندعودته من إحدى الرحلات : « لا يمكن أن نخطو خطوة في اسبانيا دون أن نجد ذكرى دون كيخوتي ، فرواية ثريانتس قومية بصورة عميقة ،

وشخصيتها دون كيخوتى وسائسه يلخصان السمات الأسبانية : تعظيم وتمجيد الفروسية وروح المغامرة التى يجمعها رهاقة الحس والذكاء والفكر العملى السليم ونوع من البساطة والبشاشة التى تفيض رقة ولطفا مع القدرة على القول اللاذع » .

وقد حاول جوتييه والناقد جيوم دى هامبولت أن يبيننا قيمة الرواية من الوجهة التاريخية فقد وجدوا فيها قمة السمات الاسبانية فى عصر النهضة التى تتصف بحب المغامرة والفروسية ، ولكنها سمات تتحلى بالفكر العملى وبالسخرية الخصبة .

وبالنسبة لاميل مونتيجو ( ١٨٢٥ - ١٨٩٥ ) وهو ناقد آخر فى ذلك العصر ، نجده يرى أن ثريانتس يمتاز بالرمزية التى تسيطر عليه . فقد رسم صورة لاسبانيا فى عصره . أسبانيا بايمانها الرهيب . التى تطغى عليها محاسن التفتيش والتى هزمها البحارة الانجليز ، والهولنديون .

وقد اوجت رواية ثريانتس للفيلسوف الفرنسى أوجست كونت مؤسس الايجابية الفرنسية بعض الانعكاسات الهامة عن أهمية الفكر والروح البطولية فى كل مجتمع . وعند ملاحظته للأوجه الايجابية لظاهرة الفروسية تمنى كونت بناء ما أسماه « الفروسية الصناعية » لكى نعلى لعصرنا قيما بدونها لا يمكن للبشرية أن يكون لها أبعاد ذات قيمة .

ومن ديكنز الى فلوبيير ، ومن تولستوى الى ستندال ودوستويفسكى كثر روائيو القرن الماضى الذين وجدوا فى دون كيخوتى منبعاً للوحى .

- ٩ -

دون كيخوتى فى ملابس نسائية ، وملامح الأسطورة فى أشكال أخرى

وقصة « مدام بوفارى » التى كتبها فلوبيير هى أحد البراهين على مدى تأثير رواية « دون كيخوتى » فى الأدب كما ذكرنا سابقاً . وقد اعتبرها خوسيه أورتيجا جاسدت تجسيدا نسائيا للأسطورة الكيخوتية فى العصور الحديثة .



وقد عثرت على رواية بعنوان : « الكيخوتي الأنثى أو مغامرات آرابيلا » حيث كتبها مؤلفتها شارلوت ليندوكس عام ١٧٥٢ كتقليد لرواية دون كيخوتي .

كما أن هناك ملامح لنفس هذه الأسطورة في أشكال متعددة في رواية « تارتاران التاراسكونى » للكاتب الفرنسى ألفونس دوديه ( ١٨٤٠ - ١٨٩٧ ) أو في رواية « بيكويك » لديكنز ، كما لا ننسى رواية « العبيط » لدستويفسكى ( ١٨٢١ - ١٨٨١ ) وهى الصورة الأكثر تجسيدا للأسطورة فى الأدب الروسى كله . وقد أعطت الملتخولية أو الانقباضية الملحمية لدون كيخوتي الفرصة للروائيين الروس للتأملات العميقة .

وقد حاول الكاتب ذو الاحساس المرهف تورجنيف ( ١٨١٨ - ١٨٨٣ ) أن يرسم بكل دقة الملامح الانسانية لبطل دى لامانتشا فى مقال بعنوان : « هاملت ودون كيخوتى » حيث يضع هاتين الشخصيتين اللتين عاصرتا نهاية عصر النهضة الأوروبية وجها لوجه فيخرج من هذا الى ما تحتويه شخصية دون كيخوتى من ثروة انسانية .

فدون كيخوتى يجسد بالنسبة لتورجنيف مشكلة الايمان . . الايمان بشيء أزلى لا يتغير ، ووجودها مرتبط بالصراع الكريم فى سبيل نصرة الحق والعدل على وجه الأرض . وعلى خلاف هاملت الذى يضع نفسه فى مركز العالم لا نجد فى شخصية دون كيخوتى أى أثر للأناذية والغرور ، فالشخصية كلها عامرة بانكار الذات والتضحية .

ومن الأشياء المؤثرة فى هذا المقال الفريد هو إعادة تقييم شخصية سانتشو بجانب البطل الرئيسى . ان القيمة الأساسية لهذا السائس هى اخلاصه المطلق وهذا الاخلاص نابع من الصفة العظيمة التى يتصف بها الشعب باصتناف كل هدف نبيل وسام .

وقبل أن نترك هؤلاء الكتاب الروس الكبار يجدر بنا أن نتذكر أنه عندما طالب بوشكين ( ١٧٩٩ - ١٨٣٧ ) من جوجول ( ١٨٠٩ - ١٨٥٢ ) أن يكتب « النفوس الميتة » اقترح عليه أن يخلق دون كيخوتى روسى . وقبل أن يمسه جوجول بالقلم أخذ يعيد قراءة الأوديسا بصوت عال ودون كيخوتى فى نص مترجم الى الفرنسية . ليس بطل قصة « المعطف » انما هو دون كيخوتى بأسلوبه وتصرفاته أكثر انسحاقا .

ومن بين المؤثرات التى أثرت بها رواية ثريانتس فى القرن الماضى يجدر بنا أن نذكر تأثيرها على الفنون التشكيلية ذلك الذى سنفرد له كتاباً بأكمله . وتحتل فرنسا فى هذا المجال مكانا مرموقا بأعمال جوستاف دوريه وأونوريه دوميهيه . وقد زار الأول أسبانيا لفترة طويلة قبل أن يبدأ عمله .

كما أعدت الموسيقى تبعاً للعصور المختلفة الموضوعات المستوحاة من رواية ثريانتس التي يتطلبها التأليف الموسيقى كالمؤلف المتكامل الماسينييه ، والقصيد السيمفوني لريتشارد شتراوس ، ورقصات الباليه الرقيقة التي صممها مانويل دي فاي .

وقد توالى العروض الأوبرالية في مختلف العواصم العالمية ومنها :  
\* أوبرا ألمانية عن دون كيخوتي وضع موسيقاها جان فيليب فروتش عام ١٦٩٠ .

\* أوبرا انجليزية عن دون كيخوتي وضع موسيقاها بورسيل عام ١٦٩٤ .

\* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته في بلاط الدوقة » وضع موسيقاها كالدارا عام ١٧٢٧ وعرضت في فيينا .

\* كوميديا من فصل واحد بعنوان : « سانتشو باثنا في جزيرته » وضع موسيقاها فيليدور عام ١٧٦٢ وعرضت في ايطاليا .

\* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها بيتشيني وعرضت في نابولي .

\* أوبرا ايطالية بعنوان : دون كيشوته « وضع موسيقاها تاركى عام ١٧٩١ وعرضت في باريس .

\* أوبرا بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها جارثيا عام ١٨٢٧ وعرضت في نيويورك .

ونود أن نشير أيضا الى تأثير رواية دون كيخوتي في الأدب المسرحي حيث استلهمها العديد من الكتاب في أعمالهم ، ومنهم الكاتب الأسباني خائنثو بنابنتي في مسرحية « خالقو المصالح » التي عرضت في القاهرة عام ١٩٧٤ . وقد استمد مؤلفها فكرتها الى حد ما من رواية دون كيخوتي لثريانتس حيث نجد صراعا بين المثالية التي يمثلها لياندرو والواقعية التي يمثلها تابعه كريستين . بيد أننا نجد التابع يتألق نجمه ويتفوق على الفارس . فلياندرو فارس عصرى، ليست رومانسية الفروسية بالنسبة اليه الا أصداء باهتة من الماضي ، ولا تمثل حقائق حية كما كان الحال بالنسبة الى دون كيخوتي . الفارس الحزين الطلعة . وكذلك كريستين فهو أيضا سانتشو بانثا عصرى فقد كثيرا من بشره ومرجه في ثنايا العنف والقلق والتمزق والضيق الذى يعيشه الانسان وسط حضارة القرن العشرين . ولكن طموحه فاق طموح سيده .

وهناك مسرحية غنائية « خرافة » لمؤلفها بويرو بايخو وفيها أيضا فكرة الصراع بين المثالية والواقعية مستلهما شخصية دون كيخوتي وتابعه سانتشو . وقد عرضت في القاهرة عام ١٩٧٥ بعنوان « دون كيشوت » .



وقصبتها تدور عن مغن مغمور في فرقة أوبرا يدعى ايلوى يشعر بالظلم وأنه لم يأخذ حقه مثل رودولفو المغنى الأول للفرقة الذى منحه الدولة وسامين عن تمثيله الغنائى ، فيختبل عقل ايلوى ويعيش في أوهام وخيالات تصور له أن أهل المريخ سيزورون كوكبنا الأرضى فى أطباقهم الطائرة ليرفعوا الظلم ويقيموا العدل والحرية بين الناس . ويسخر باقى الممثلين منه ولايتعاطف معه سوى الممثل « سيمون » الذى يتقمص شخصية سانتشو بانثا . غير أن ايلوى انسان سلبى يقف مكتوف اليدين مستسلما لأوهامه وخيالاته منتظرا زيارة رجال كوكب المريخ لاقامة العدل ورفع الظلم . فأين هذا من دون كيخوتى لثريانتس الذى حمل رمحه وترسسه ومضى على صهوة جواده يدافع عن الحق بقوة ذراعه .



وبينما لم ينقطع تأثير رواية « دون كيخوتى » عن الانتشار في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، فإن النقد العلمى استمر في تحقيقاته الدقيقة حولها . فقد تناولت الأبحاث الرواية ومؤلفها من زاوية علم اللاهوت ، والموسيقى ، وعلم الاجتماع ، والطب . ويستوقفنا في هذا المجال الأخير أن الطب وصل الى استنتاج أن الشخصية كان يعترىها جنون زائف . وبعض الأبحاث نراها في تحليلها تعتبر أن ثريانتس كان متدينا ، وتارة أخرى تعتبره معارضا للاكليروس . وبالنسبة للبعض تحتوى الرواية على بذور ليبرالية ، وبالنسبة للبعض الآخر تحتوى على ميول رجعية .

- ١٠ -

### قلق باروكى تحت ستار المرح

تحتل رواية ثريانتس منذ بداية القرن العشرين مكانا مرموقا في النشاط النقدي والأدبى في العالم أجمع .

ان الذين ينتمون الى ماسمى فيما بعد بجيل ٩٨ ( وهو جيل عميق الاحساس بكارثة عام ١٨٩٨ الذى انهزمت فيه الامبراطورية الأسبانية أمام الولايات المتحدة وفقدت ماتبقى لها من مستعمرات ) والذين كانوا من أشهر شعراء ومفكرى أسبانيا الحديثة احتفلوا بدون كيخوتى بحماس متجدد مكتشفين في الرواية أساس وحيهم والهامهم .

لقد بين أونا مونو في كتابه الشهير عن « حياة دون كيخوتي وسانتشو » البطلين وهما يتماسكان مع الحقيقة ، يدفع أحدهما التعطش الأبدي للمجد والخلود الذي يسكن في داخله ، ويدفع الآخر الاخلاص البسيط ، الذي يكاد يكون حيوانيا نحو المثالي الكبير .

ويرى أونا مونو أن موت دون كيخوتي هو تتويج للرواية ، ويعبر عن الانتقال النهائي من المثالية البطولية الى الايمان بحياة فوق أرضية . انه ليس استسلاما ولكنه احلال مثالية أكثر دواما محل مثالية خيالية وهمية . وبقلم الكاتب العصري الكبير تأخذ صورة الفارس المتجول وسائسه أبعادا خرافية كبيرة . وينطلق الاثنان يتجولان على غرار أبطال العهد القديم الى نبع لا ينضب من السلوى ومن التجدد الأخلاقي .

ويقول الكاتب الصحفي راميرو دي مائثو ان تحليل دون كيخوتي وتحليل ثريانتس ورفاقه يدل على أن التعاليم التي يستقيها الشعب من هذا الكتاب ليست غير معقولة ، لأن قراءة دون كيخوتي تعزى أسبانيا في مصائبها وتغسل رءوسها من الأوهام ، ولأن ماهدف اليه ثريانتس في كتابه أن يعزى نفسه ويضحكنا من ويلاته التي كان يعتبرها قد تولدت من أجلام فاقته الحد ، ولأن أسبانيا في تلك الساعة كانت متعبة بسبب الأعمال البطولية الفذة والشاقة في القرن السابق ، فقد كانت الشعوب الأسبانية تحارب في جميع أنحاء العالم ، فكان صراعا يفوق قواها لم ننتصر فيه الا نصف انتصار ، وقد وجدت أسبانيا في دون كيخوتي الأيحاء الذي تحتاج اليه للشفاء والراحة اللازمين لروحها ولجسدها . ويصف ثريانتس لنا هذه الخاتمة للحمة أسبانيا بطريقة رمزية بوساطة شبحين كان ينبض فيهما قلب ذلك العصر الذي فك عنه السحر ، ويجب أن ننظر الى دون كيخوتي بمنظار القرن السادس عشر لرؤية عظمته الحماسية ولنجنب أنفسنا إيحاء يأس الكتاب وقنوطه .

ويقول الكاتب والفيلسوف الأسباني خوسيه أورتيجا جاسيت ان ثريانتس يؤكد أنه ألف كتابه ضد الفروسية ، ولكن في الأزمنة الحديثة لم يعد يلتفت في مجال النقد الى ما قاله ثريانتس والى هدفه من وراء هذا القول . وقد يظن أن كلامه هذا ما هو الا أسلوب من أساليب الكلام ، وما هو الا مقدمة معادة مقلدة يقدم بها كتابه . وهذا هو ما حدث عندما أطلق على مجموعة قصصه القصيرة لفظ نموذجية أو مثالية .

من هو دون كيخوتي ؟ وماذا نعلم عما يرغب أن يوحيه اليها من الحياة ؟ فالأنوار الضئيلة التي سلطت عليه جاءت من أقوام من الخارج أمثال شيلينج ، وهايني ، وتورجنيف ، وتلك كانت أضواء وقتية وغير كافية ، إذ لم يكونوا ينظرون الى دون كيخوتي كمسألة مصيرية كما هي في نظرنا .



ولا يوجد أى كتاب له قوة التلميح الرمزي للمعنى الشامل للحياة أعظم من هذا الكتاب . . وعندما يجتمع بعض الأسباب المتأثرين من بؤس ماضيهم تحل بينهم روح دون كيخوتي فتوحد الحرارة المذابة في شخصيته الغريبة بين تلك القلوب المتفرقة وتدخلها في خيط روحى كحبات عقد وتسكب فيها مشاعر الوطنية ، وتضع وراء مرارة شخصياتها الما وطنيا مشتركا .

ان الواقع في حد ذاته مناقض للشعر ، وإذا لم توفق جولات دون كيخوتي وتحركاته الكثيرة الى ارشادنا الى أى من الجهتين نضع الفارس فاننا نجانب الصواب اذا ملنا الى ناحية دون الأخرى ، اذ أن دون كيخوتي هو الخط الفاصل بين هذين العالمين .

ولا يجب أن نغضب اذا قيل لنا ان دون كيخوتي واقعى اذ علينا فقط ان نأخذ بعين الاعتبار أن ارادة دون كيخوتي التى لا تتزعزع أصبحت تشكل معه قسما من الواقع . وهذه الارادة كان يملؤها عزم ثابت أكيد وهو أنه لابد من المغامرة . فدون كيخوتي الواقعى يرغب رغبة أكيدة في المغامرات ، كما يقول بنفسه : « قد يستطيع الرقاة والسحرة أن يحولوا بينى وبين المغامرة ، ولكن يستحيل عليهم أن ينتزعوا منى القدرة الفائقة ورباطة الجأش » .

وهكذا فان الواقعية نفذت في مضمون الشعر لكى تسمى بالمغامرة الى مقدرة جمالية أكثر سموا من الشعر خاليا من الواقعية . فالواقعية تتفتح لكى تستوعب العالم الوهمى ولكى تكون لهذا العالم سندا ومرتكزا .

وقد ذكر الكاتب والروائى خوسيه مارتينيث رويث الشهير باسمه المستعار آثورين أن قيمة هذه الرواية قد تزايدت بسبب الاضافات المتتالية من تعليقات القراء عليها لدرجة أنها مازالت تقدم امكانية تكوين رأى يتفق مع التزامات كل عصر وكل ثقافة .

وفي بحث رئيسى وهام لجيلنا الحاضر وعنوانه « فكر ثريانتس » ( ١٩٢٥ ) درس أمريكو كاسترو بتعمق الوجه الايديولوجى للرواية يعتبر اعلانا عن الحساسية الاسبانية ورقة شعورها في عصرنا .

وهكذا احتلت رواية دون كيخوتي مكانها في الواقع الثقافى الحديث ، وهى منتج من نتاج صهر جميع التقاليد القشتالية ، واتخذت مكانها عند تلاقى التيسارين الواقعى والمثالى ، وظهرت في الفترة الدرامية للتدهور السياسى والعسكرى الذى عانت منه اسبانيا .

ويبدو أن ثريانتس قد عرف ببصره الثاقب الازمة الحقيقية التى

كان المجتمع يمر بها في عصره ، وعرف كيف يعبر عن القلق النفسى تحت ستار المرح الذى يسبق القلق الباروكى .

وبفضل ما قام به الكتاب والمؤرخون والنقاد من اعادة تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى اكتسبت الرواية ابعادا واضحة ، وأصبح القارئ الحديث يستطيع أن يقدر الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

## - ١١ -

### دون كيخوتى كما نراه اليوم

ما أقل الشخصيات التى جسدت دراما مجتمع قلق خائف غير مستقر ، ودائم البحث عن القيم مثل بطل ثريانتس .

لقد وجدت عصور بدا للانسانية ، فى الطبقات المثقفة على الأقل ، أنها وجدت حلا للصرع الأبدى بين المثالية والواقعية ، بين الخبز والورود ، بين ما يلمس بالأصبع وما يكتب له الخلود بعد الفناء .

وقد وجدت العصور الوسطى وعلى طريقتها الخاصة حلا للمشكلة بايمانها . فيما وراء الطبيعة ، وأما الباقي فهو الشر أو الخطيئة دون أدنى تمييز . .

ووجد المذهب الانسانى فيما بعد حولا أخرى فى طريق مضاد يصبح فيه الانسان محور ومقياس كل شئ .

واعتقدت بعد ذلك فلسفة التنوير أنها وجدت سر التوازن فى ممارسة الفكر .

ثم جاءت الفلسفة الايجابية المتفائلة التى وجدت فى العلم سلاحا لا يخطئ لضمان الحرية الذاتية للانسان الذى تخلص أخيرا من هذه الثنائية المزعجة : النفس والجسد أو المثالية والواقعية . وكما نرى هناك عصور بنيت على تأكيدات أو على الأقل على اعتقاد بأنها تمتلك أو هاما .



وقبل هذه الفترات المضيئة وبعدها نكتشف مناطق ظلال يملؤها القلق من كل نوع ، يقع فيها الضمير الانساني فريسة للشك ، ويعتبر عصرنا الحالي عصر الأزمة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان • ومن بين المتناقضات المتعددة التي تحاصر العالم الحديث تظهر مرة أخرى تلك الثنائية : المثالية والواقعية • ونتساءل كل يوم : الى أى حد حضارة حياة الرفاهية الرغدة تكفى انسان اليوم ؟ وإلى أى مدى تظل عنده الحاجة الى اللامحدودية والخلود الأبدى ؟ يبدو أننا نعود دائماً الى هذا الموضوع الأساسى : موضوع الانسان وحدود الانسان وأسباب صراعه •

ان الأحاديث التى يتبادلها دون كيخوتى وسانتشو توضح جيداً تمردنا على الذين يريدون احتجازنا داخل واقعية تحددها أبعاد الأشياء المادية •

وها هو ذا دون كيخوتى يصيح دائماً أمام طواحين الهواء أنها عمالقة صانعا منها أعداء كما صورتها له مثاليته ، ولكن سانتشو ، وهو الرجل الذى يرى الأشياء كما هى يؤكد له أنها طواحين هواء • فهو أذن على حق ، ومع ذلك فأننا نفضل عليه الآخر • الشاعر المجنون الذى يواجه العمالقة طالباً فى السر مساعدة حبيبته دولثينيا • انه دون كيخوتى الذى يلازمنا كلما وجدنا الواقع هزيعاً أمام أحلامنا • وهو الذى ينعكس فيه تعطشنا الى الجمال فى عالم يبدو أنه يجهل هذا التعطش وهذه الرغبة الكامنة فينا • وهو الذى يصاحبنا عندما تراودنا الفكرة بأن آبار البتروئ وأحواض السباحة الرخامية لا تكفى لصنع الانسان • وهو أيضاً الذى يحول لنا أصحاب الفنادق المتراضعة الى ساكنى قصور ، والفنادق نفسها الى قصور ، والأراضى الجرداء الى واحات تكسوها الخضرة الياضعة •

ان الفارس وسائسه هما مرايا حية لصراعنا اليومى أمام عالم يزداد اضطراباً يوماً بعد يوم • وهناك فى رواية دون كيخوتى موضوع آخر عزيز على انسان الجيل الحاضر وهو الاعتراض •

ولما كان ثريانتس يعتقد مذهب تحطيم التماثيل الدينية أو مقاومة تقديسها ، فإنه كان يهدف الى هدم الأصنام والنظم الاجتماعية التى لا فائدة منها ، والتى تقيد الانسان أو تثقل كاهله • ان سخريته اللاذعة تتناول بقايا عالم فروسى كان عظيماً فيما مضى ثم أصبح الآن مجرد خيال ، وتفردت عبقرية ثريانتس فى أنه جمع فى شخصية واحدة تبحث عن العظمة الحقيقية كل الهواجس العصرية ، وكل التطلعات نحو هدم الأيديولوجيات القديمة التى عفا عليها الزمن ، والعرف والمظاهر والأمجاد الزائفة ، حتى يبنى مكانها عالماً يسود فيه الحب والشعر والنبالة الساعية فى خير الانسانية •

فاذا نزعنا من دون كيخوتى كل مايتحلى به من ملابس القسرن السادس عشر ، فلن يتبقى من الفارس الدامى الجسد مما أصابه من ضربات على طرق لامانتشا الا صرخة اعتراض حية ومؤلة ضد تفاهة العالم وعبثه .

ومهما بحثنا فى ماتنتهى اليه هذه الاعتراضات ، وهذه الأحلام ، فلن نجد حكمة أو خاتمة محددة أو نوعا من الحلول . ويجتهد ثربانتس بكل السبل الممكنة أن يعيد بناء الانسان من الأجزاء المتألمة من بطله الذى أثخنه الجراح .

ولكن ليست هناك تذكرة طبية تحوى تركيبات معينة لمثل هذه العملية التى تشبه العمليات الكيميائية . ويبدو أن المؤلف كان مقتنعا بذلك لدرجة أنه يفضل أن يقذف بفارسه من الحلم الى النوم الأبدى بدلا من أن يرغمه على الحياة فى عالم يريد أن يسود فيه هؤلاء الذين يدعون أن عندهم حلولا حسب المقاس لكل التساؤلات . فدون كيخوتى لا يعرف الا ألمه الشخصى ، وطريقه الخاص . وهو يجهل أين يتجه حتى أنه عندما تسلم وامتطى ظهر جواده روسينانتى ترك له العنان فلم يكن يعرف الى أين يمضى . وحيث أن ثربانتس ليست لديه حلولا فلم يستطع أن يقترح حلولاً . وربما جاءت صفة العصرية هذه من أعراض تلك الأزمة .

فهو مؤلف عبرى ، ليس فقط بموضوعيته المجردة ، ولكن أيضا بأسلوبه . فليس من المعتاد أن نجد أنفسنا دفعة واحدة وعلى مستوى واحد مع مؤلف من القرن السادس عشر ، لاتبعدنا عنه لا اللغة ولا الأسلوب ولاحذلقه فى استعمال التعبيرات المتقكرة والكلمات المهجورة من التى كانت مستخدمة عند القدماء رغم جمالها ورسوخها التقليدى فنراه مثلا يكتب : « أشسرت الشمس » بدلا من الجملة التقليدية المعتادة : « جذب فيبو عنان جواد مركبته النارية » . ( وفيبو فى الاسسبانية هو الاسم الخرافى للشمس ) .

أضف الى ذلك أن القارئ الحديث متعود على نغمة معينة ، ونوع معين من السخرية ، والصدق فى التعبير عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجربة بلا اسراف ، ورفض أساليب البلاغة والكلام المزخرف المتصنع المنمق، والمصطلحات الرنانة . ان هذا النوع من العرض أفضى الى استبعاد عدد لا يستهان به من الأعمال القديمة .

ومن النادر ، حتى فى أيامنا هذه ، أن نجد نثرا يمثل هذا الصدق ، وهذه اللغة التى تخضع دائما لسيطرة المؤلف ، واستعمال هذا الأسلوب الهزلى المرح يمثل هذا الحذق والتفرد الذى جعل من ثربانتس ، مؤلف دون كيخوتى ، عصريا الى الأبد .



« كان ضامر الجسم ، نحيف الوجه ، يصحو مبكرا ، مولعاً بالصيد » . تلك هي الصورة المقتضبة التي رسمها المؤلف في بدء روايته لبطله دون كيخوتي والتي تمكنا من تخيله .

ان تجريد الملامح ورقة اللمسات من شأنها التقريب بينها وبين أفضل الأعمال الابداعية الحالية . وماذا نقول عن اللوحات التي تجمع بين الملحمية والكوميديا لبطلنا . . انها لوحات باقية في جميع الأذهان ، ولن تبلى من ذاكرة الأجيال .

بعض الناس الذين ولدوا بالأمس يبدون لنا وكأن عمرهم خمسة قرون ، أما دون كيخوتي فإنه يحتفظ بالشباب لدرجة أنه بمجرد ظهوره نبتسم ونتأثر حتى يخيّل إلينا كأننا نحن الذين خلقناه ، مع اعتذارنا لشربانتس .

وفي ختام هذا نترك الكلمة لأحد كبار المتخصصين الفرنسيين في الثقافة الأسبانية ، فقد قال جان كاسو في مقدمة طبعة لابلياد : « أن دون كيخوتي لا يهم فقط أسبانيا والذين يبحثون فيه عن أساس العقلية الأسبانية فحسب ، بل انه يعتبر أحد التواريخ الهامة بالنسبة للعالم الغربي : أصل الفكر المعاصر ، والتمرد في عالم منظم ومقاطعته ، وتجريد العالم من الأساطير الخرافية » بيد أنه بعد نشر ما كتبه مونتاني وعنوانه : « مقالات مونتاني » ظهرت عزلة الانسان . الا أنه من خلال مقالات مونتاني هذه يبدو الأمر أكثر وضوحا ، فهذه العزلة تسمح بتجميع أحسن المواهب وأكثرها كفاءة اجتماعية التي يذبض بها القلب البشري . فمهما كانت هذه الرواية محزنة ومؤلمة ، فإنها تفيض بالمحبة ، وتشع ضوءا قدسيا ، فطية قلب دون كيخوتي ، والانسانية التي تنبعث من أحاديثه مع سانتشو ، والحركة الجميلة التي تقوم بها مارييتورنس وهي تقدم جرة الماء لهذا الأخير ، واللمسات المؤثرة ، والحكمة المستمدة من آيات الانجيل ، والنبالة القشتالية ، والضحكة التي تحتفظ دائما بوقارها ، وأخيرا الطريقة التي يسمو بها سانتشو ودون كيخوتي شيئا فشيئا تحت بصير مؤلفهما . كل ذلك يخلق جوا حول هذه الرواية لا تكف الأجيال عن استنشاق عبيره الزكي .





## خاتمة

لعل من الواجب علينا في ختام بحثنا أن نوجز في شمول ما عسى أن يكون قد أسهم في الإلماح إليه :

١ - عاش ميغل دي ثربانتس حياة كانت عبارة عن سلسلة من التشرد والتجوال والتعاسة والعذاب .. امتحنه فيها الأيام .. ويا لها من أيام طويلة مملوءة بالشقاء ، حافلة بالآلام ، تجرع فيها مرارة الحزن الى أقصاها ، واصطلى نار الألم الى أشدها ، فصمد للمحن والخطوب . والرواية لا نلمح فيها أشخاص عصره ومن قابلهم من شتى صنوف البشر فحسب ، بل ذكريات حياته الخاصة وطموحه وأحلامه وما عاناه من شقاء وشظف العيش . وربما أعانته كثرة أحلامه على احتمال آلامه .

ومن داخل أسوار السجن عندما بدأ يكتب رواية « دون كيخوتي » تذكر كل ذلك .. مع ما خاضه في حياته من معارك ، فقد كان ثربانتس وطنيا متأجج الوطنية ، وفقد في معركة ليبانتو البحرية استعمال يده اليسرى ، كما طاف بذهنه مامر به من مدن ، ووقوع في أسر القراصنة ذائقا ذل العبودية والاسترقاق ، ثم مرارة الفشل في حياته الزوجية ، وما لقيه من متاعب عائلية ومالية ، ومن حسد أبناء مهنته من الكتاب ( مثل لوبي دي بيجا ، وآبيانيدا ) وكيدهم مما نغص عليه بعض حياته .

وكأنى بميغل دي ثربانتس من خلال حياته المثيرة يقول لنا ينبغي أن نحتمل حياتنا في شجاعة واصطبار لأن الحياة نفسها كالموت قدر محتوم .

٢ - يرى البعض رواية « دون كيخوتي » قصة ساذجة ممتعة فيستمتع بها ، بينما يراها آخرون لغزا محيرا رغم اعتراف مؤلفها أنه إنما أراد أن يهاجم قصص الفروسية التي فتنت مواطنيه حتى أفقدتهم الاحساس بالواقع . بيد أن قصص الفروسية كانت قد دالت دولتها من

قبل أن يؤلف ميجل دي ثربانتس رواية « دون كيخوتي » بل نشعر بها تحيي عصر الفروسية وتمجده رغم السخرية الظاهرية من عالم الفرسان، وجعلتنا نتعاطف مع دون كيخوتي ونتجاوب مع آماله وأهدافه النبيلة رغم قسوة ثربانتس عليه . . مما دعانا الى البحث عن سبب آخر أكثر عمقا دفع ثربانتس الى تأليف روايته .

ان ملامح الفارس تشبه الى حد كبير ملامح المؤلف الذي خلق هذه الشخصية ، فقد كان دون كيخوتي كما جاء في بداية الرواية كهلا من نفس سن ميجل دي ثربانتس ، وكان له نفس المظهر والهيئة . وكذلك كان مثاليا متفائلا الى على نفسه في عناد واصرار أن يصلح العالم بقوة ذراعه ولكنه أخفق . ألم يكن ذلك معبرا عن وجهة نظر ثربانتس كما رأينا في تاريخ حياته في الباب الأول ؟ ولكن مهلا فان أوجه التشابه هذه تصاحبها أوجه اختلاف كثيرة . غير أن هذا هو ما ننتظره من الروائي حين يجعل بطله يتقمص شخصيته . . فعندما يخلق الروائيون شخصا تمثل أشياء عميقة في نفوسهم فانهم يبدأون بتصوير شيء مختلف كثيرا . فالكاتب حين يرتدي الأقنعة يجد حرية في التعبير عن نفسه ولا يستبعد أن رواية « دون كيخوتي » بجانب إنسانياتها الأسيرة ، استمدت روعتها من تبع آخر يكمن فيه سر قوتها هو ذلك الاسقاط الذي طرحه علينا ثربانتس كجزء من نفسه ، أي بعبارة أخرى ما أسقطه على بطله من نواياه وأهدافه النبيلة ، وما لاقاه من معاناة وفشل واحباط في حياته . ولهذا السبب فان السخرية اللاذعة في هذه الرواية لها وقع سخرية المؤلف من نفسه . وهي تفسر لنا أيضا ذلك العداء العجيب ضد بطله ، فهو كلما فكر في الأذى الذي لحقه من جراء أوهامه ومثالياته ونباله أهدافه كلما أحس بمرارة العلقم فيتحامل على الشخصية التي تمثلها ويهاجمها .

والرواية بهذا تعالج التصر من الوهم . . وهو من الموضوعات والأفكار الكلاسيكية في الأدب الأسباني . . فأمال الأسبان وطموحاتهم فاقت إمكانياتهم فصدمتهم الحياة . وهكذا كان ثربانتس وبطله فتخلي كلاهما في النهاية عن أوهامه .

ويبدو أنه كما أراد شكسبير أن يشعر الانجليز يانجليزيتهم بما ألفه عن تاريخهم من سلسلة مسرحياته عن ريتشارد الثاني والثالث ، وهنري الرابع والخامس والسادس ، فكذلك استطاع ثربانتس أن يشعر الأسبان بأسبانييتهم عن طريق « دون كيخوتي » . . ذلك الفارس العبقرى النبيل الذي انفصل عن الواقع بخياله . . فتتعالى نفسه وتتسامى الى الآفاق ثم يردّها الواقع المتمثل في سسانتشو حيث يرتطم بالأرض ، ولكنه في اصرار على المقاومة ، غير عابىء بالآلام والمصائب ، يعاود التحليق عاليا في سماء المثالية ليعود فيرتطم من جديد بأرض الواقع الذي حجب عنه الخيال رؤية حدوده وطاقاته .



وهكذا استطاع المؤلف في براعة أن يقيم توازنا رائعا بين شخصيتي بطليه الرئيسيين فاستقامت له بذلك واقعية رائعة كان يحرص عليها .

وهذا التناقض الذى يظهر بين البطلين في بداية الرواية يأخذ في التلاشى ويحدث ما أسماه الأديب والمفكر الاسباني المعروف سالبادور دى مادارياجا بتسنشيب دون كيخوتى وتكوخت سانتشو وذلك يؤدى الى لحظات يكاد البطلان يبدوان فيها وقد تبادلا موقعيهما . وهذا من أبدع ما وصل اليه قنان في رسم شخصوه .

٣ - دون كيخوتى سيد نبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا ، مولع بالصيد . لا يعمل شيئا طوال العام تقريبا . انكب على قراءة كتب الفروسية ، فلم يقنع بحياته الرتيبة ، وانطلق متحمسا ، كفارس جوال ، يعيش حياة مخالفة لتلك التى يحياها .

ويرجع خطأ دون كيخوتى ، اذا كان مافعله خطأ ، الى أنه اعتبر قصص الفروسية تاريخا أكثر منها خيالا روائيا ، فكان يعتقد مثلا أن أماديس الغالى قد عاش كما كان يوليوس قيصر أو الاسكندر عائشا . ان كل شخص في أسبانيا قرأ روايات الفروسية ، ولكن أحدا لم يعتقد ما اعتقده دون كيخوتى ، بل كانوا يرون أنها كتبت للتسلية ، وأنها تقرأ للاستمتاع بما فيها من هزل ، ولكن منطق صاحبنا افترض شيئا آخر . . . فقد وصل الى نتيجة مختلفة . . . ان حياة الفارس يجب أن تبعث وتعاش مرة أخرى ، فالعالم الآن قد أصبح من السوء كما كان في زمن أماديس .

وهو لم يعتقد أنه فارس ، ولكنه فكر في أنه يمكن أن يصبح أحد هؤلاء الفرسان . فألى على نفسه أن يقوم بأعباء الفروسية ومتاعبها مجابهة الأخطار لأصلاح الأخطا . وسار في ذلك السبيل بخطى واعية عامدا متعمدا في اصرار وعزم . فسلح نفسه ببعض أسلحة قديمة ، وأطلق على حصانه اسم روثينانتى ، وسمى نفسه باسم دون كيخوتى . ولم يكن له محبوبة فاخترق في خياله واحدة أسماها دولثينيا . ولو أنها لم تكن كلية من صنع الخيال ، فقد سبق أن راقى له ذات مرة فتاة من جيرانه تدعى الدونثا لورينثو . وعلى أية حال فإنها كانت تفى بالغرض ، كما كفاه حصانه الأعرج الهزيل ، والأسلحة التى علاها الصدا وكانت ملكا لأجداده . وهكذا أصبح على أهبة الاستعداد لتقليد قدامى الفرسان .

خرج ثلاث خرجات ، ورجع مرة من تلقاء نفسه ، ولكنه في الثانية والثالثة أعاده الى منزله أشخاص من قريته اقتفوا أثره لهذا الغرض . وكان في كل مرة يرجع متعبا مكبودا منهوك القوى مثخنا بالجراح ، ان ما يقوم به الفارس الجوال من مغامرات يكبده جهدا عنيقا . وسرعان ما لزم الفراش بعد عودته الثالثة الى بيته ، وكتب وصيته ، واعترف بخطاياہ ، وسلم بأن كل ما أقدم عليه كان ضلالا ثم مات .

وقد اعتقد كل شخص ،سواء من أهل بيته أو من خارجه ، أنه أما أن يكون غريب الأطوار أو مجنونا • وهذا يقودنا الى التساؤل هل كان دون كيخوتي مجنونا أم عاقلا ؟!

لقد زادنا ثريانتس حيرة وشكاً في الجزء الثاني من الرواية في الفصل الثالث والأربعين عن تلاوة نصائح دون كيخوتي لسانتشو بانثا أن يقول المؤلف :

« من ذا الذي يسمع أقوال دون كيخوتي هذا ولا يظنه امرءاً حكيماً مزوداً بعقل كبير ؟ والواقع أنه لم يكن يخرف ، كما رأينا مراراً في هذا التاريخ الكبير ، الا حين يتعلق الأمر بالفروسية • وفيما عدا ذلك كان يكشف عن عقل سليم ، وفكر نير • • حتى أن أفعاله كانت في كل لحظة تكذب أقواله ، وأقواله تكذب أفعاله • وفي تلاوة النصائح التي أسداها الى سانتشو كشف عن استقامة في الحكم ووفرة في العقل » •

ولنعاول قراءة الرواية علنا نجد اجابة عن سؤالنا • من النادر أن نجد دون كيخوتي وحده معنا ، لنرى ماذا سيكون عليه حاله اذا لم يكن محاطاً بجماعة من النظارة • وهو اذا لم يكن معه أحد ، فاننا سوف نجد سانتشو ملازماً له • ولكن هاهو ذا سانتشو يتركه في جبل « سسييرا مورينا » ويمضي برسالته الى دولثينيا دل توبوسو • ما أشد دهشتنا عندما نكتشف ذلك الهدوء والسكون الواضح الذي حط على بطلنا ، واتسمت به تصرفاته وسلوكه ! انه لم يعد يتصرف كرجل مجنون • • فعندما اختلى بنفسه ، أصبح رصينا منضبطاً مسيطراً على نفسه يتحلى بالهدوء والصفاء ، مستقلاً بذاته •

ودون كيخوتي كفرد له أسرارته الخاصة ، وصفاته المميزة ، فمثلاً انه متواضع ، ولم يدع أياً من وصيقات وخدمات الدوقة تعاونه في خلع ملابسه • لا أحد غير سانتشي يفعل ذلك • وعندما رحل الأخير ليحكم جزيرته رأى دون كيخوتي من واجبه أن يتولى ذلك بنفسه •

الا نستشف بعد هذا أننا أمام شخص سليم العقل يمضي معظم أيامه مستخفياً متنكراً في أهاب رجل مخبول ؟!

نحن لا نسمعنا الا القول بأن الرواية وشخصية دون كيخوتي قد أثارت فيضاً من التعليقات والتفسيرات طوال ما يقرب من أربعة قرون • ومازالت رغم ذلك تحيرنا ، وتحفز تفكيرنا وتدفعنا الى التساؤل حتى الآن • وهذا يدلنا على مدى عبقرية كاتبها • وقد زاد الغموض الذي يكتنف الرواية من ثرائها ، وأكسبها تلك الهالة من المجد والخواود • • وكلما قرأناها استمتعنا بها • ولا أجد هنا أبلغ مما قاله الكاتب الفرنسي الكبير أندريه جيد من أن العمل الذي يستمتع به هو ما يحتاج الى تفكير ، ويعاود قراءته عدة مرات •



٤ - عندما انطلق دون كيخوتى فوق صهوة جواده شاهرا رمسه في يده ليقوم ما أعوج ، وليملا الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا ، كان يهتف باسم دولثينيا دل توبوسو ، فقد كان يرى ضرورة أن يكون للفرسان الجواله عرائس يقدمون لهن الحب . لقد عشقها عشقا عفيفا ، ولعله ارتجف فرقا من أن يقتل بين ذراعيه طهارة دولثينيا . لم يختلس النظر اليها سوى أربع مرات فقط طوال اثنا عشر عاما دون أن تلمح مرة واحدة أنه كان يتطلع اليها . وهأنذا قد تجاوزت الخمسين من عمرك وظللت أسير سحرها ، ولم تستطع التغلب على حيائك النبيل ، فمزق هذا الحب المسكين ، الذى لم تدر هى به ، نفسك ، وكان ينبوع حنانك البطولى . وهكذا لم تعد دولثينيا امرأة بالنسبة اليك ، بل أضحت صورة للحب . . ذلك الحب الذى يجعل لحياة العائشين في هذه الدنيا معنى .

٥ - لما كانت ملاهى شكسبير تكاد كلها تنتهى بالزواج ، فان الاعتقاد السائد أن هدف الملهاة هو تشجيع روح التفاؤل ، أو على الأقل بث المرح كما يقول ل . ج . بوتس في كتابه عن الملهاة فى المسرحية والقصة . ولكننا نجد أن ثريانتس رغم انتهاء روايته بموت بطله استطاع أن يثير ضحكنا دون أن تسف فكاهته الى التماس الاضحاك ، بل تقف عند الحد الذى يسيغه الذوق السليم ، فكانت الضحكة التى تحتفظ بوقارها . ولم يخرج كاتب مثل هذا القدر من البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثريانتس . وقصد من رواية « دون كيخوتى » أن تكون مرآة للمجتمع بكل عيوبه الاجتماعية والسياسية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعاوى زائفة فى الآداب والأخلاق ، معالجا كل ذلك فى سخرية ليست حـزينة ، بل بهجة ، تنظر الى العيوب والنقائص بترفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات .

٦ - عندما تخفى سانسون كاراسكو أحد جيران دون كيخوتى فى زى فارس المرايا ثم فارس القمر الأبيض ، وانتصر على دون كيخوتى حكم عليه بأن يتخلى عن الفرسان الجواله والعودة الى المنزل . وهناك مات دون كيخوتى معلنا أن الفرسان الجواله هراء ، دون أن يدرك قط أنه شخصيا كان فارسا حقيقيا وسيدا نبيلًا شهما شجاعا . وكأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسى : « نحن أمواج أن تسترح تمت » .

مات دون كيخوتى بعد كفاح تعزى بنبل غايته عما لقيه من مصائب وآلام . مات بعد أن باء كفاحه بالفشل ولم يعد بقادر على استئناف حياة بليدة رتيبة كالتى يحياها الملايين من الخاملين . وسيبقى دون كيخوتى فى عقولنا رمزا للنبالة الساعية فى خير الانسانية والفناء فى سبيلها . . وستظل حياته درسا نتعلم منه أنه ليس من الضرورى أن نلقى نجاحا ماديا واقعيا لاصقا بالطين لنجاهد فى سبيل مثل عليا نؤمن بها ونفنى دونها .

٧ - لقد ضحكت أسبانيا مع كاتبها ثريانتس من ذاتها حتى لا تجهش بالبكاء في ساعات الازلال والاندحار ، شاعرة بضرورة بعث الوطن من كبوته ، وأن ذلك لا يتم الا باقتباس مثالية دون كيخوتى وعطائه . واذ كان ميغل دى ثريانتس قد شجب الهوس الخيالى فى قصص الفروسية فى رواية « دون كيخوتى » ، الا أنه كما يقول الناقد الأسباني الشهير آثورين لم يشجب أبدا ذلك الحب . حب ماهو مثالى ، ولا ذلك الأمل ولا تلك البساطة ولا ذلك الاحترام ، ولا هذه الثقة بالنفس ولا تلك الأحلام التى يعجب بها عند فارسنا النبيل ، فكلها لازمة لانجاز المشاريع الجبارة للشعوب والأفراد .

وثريانتس يهاجم كتب الفروسية لأن أسلوبها مفتعل وكله تكلف وتعقيد ، وهو يرى أن يكون الأسلوب بسيطا وخاليا من الصنعة . كما أنه يأخذ على مادة هذه الكتب ما تحفل به من كذب وزيف ، وما فيها من خيال جامح ، ومواقف غير معقولة . وثريانتس يهتم بالصدق الأدبى ، والبعد عن الخوارق والتهاويل ، وأن يكون الأدب واقعيا قدر الامكان . فقصص الفروسية فيها من المغامرات مالا يخطر على بال ، فهناك بطل يدعى أماديس دى جاولا كان يضرب القلعة الهائلة بسيفه فتنهال ترابا ، وآخر يدعى فيليثيانو دى سلفا حمل بيديه تلا وضرب به سفينة فى عرض البحر ، وثالث هو دون بليانس حارب وحده جيشا من عشرة آلاف مقاتل وهزمه اذ قتل خمسة آلاف منهم بسيفه ، فلما بلى السيف من كثرة الضرب حتى لم يبق فى يده الا مقبضه ، أمسك بشجرة ضخمة فانتزعها وقتل بها الخمسة آلاف الباقين !

وثريانتس يتطلع من خلال شخصية دون كيخوتى نحو هدم الايديولوجيات القديمة والعرف والمظاهر والأمجاد الزائفة حتى يبني عالما يسود فيه الحب والشعر وانكار الذات ، والتحلل بالأخلاق الفاضلة ، والطهر والنقاء ، والنبالة التى تمد يد المساعدة للإنسانية المعذبة . وثريانتس ليست لديه حلول فلم يستطع أن يقترح حولا ، حتى أن دون كيخوتى عندما تسليح وامتطى صهوة روثينانتى ترك له العنان اذ لم يكن يعرف الى أين يمضى .

وقد كتب ميغل دى ثريانتس روايته « دون كيخوتى » فى بساطة آخاذه ، ووضوح يمتاز بشقوقه وصدق الهزان ، مبتعدا عن الحذلق فى استعمال التعبيرات المتقكرة والكلمات المهجورة ، معبرا عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجربة . وجعل شخصيته يتكلمون ويعملون بالطريقة التى يعمل ويتحدث بها الناس . وقد وصف كل شخصية بنفس الاهتمام الموضوعى دون أن يحفل بالطبقة أو المركز والجاه . كل هذا كان يشكل علامة نحو التغير الثورى الذى حدث من اتجاهات الفنان ازاء العالم اذ لم يسبقه كاتب صور الناس كما هم فى الواقع .



كما لا ننسى أنه عرف المونولوج الداخلى وعلى سبيل المثال تلك الخواطر التي مرت في رأس دون كيخوتى وهو ينظر الى جواربه المخروقة في الفصل الرابع والأربعين من الجزء الثانى من الرواية .

ودون كيخوتى رواية ايجابية فهى أول كتاب يحتضن كل مسالك الحياة وطرقها المتشعبة . . وهكذا جاء مرآة للعصر وعاداته وتقاليده . ولكن ميجل ترك القارئ يكون رأيه فجاءت روايته نادرة زمانها ، وفريدة عصرها وأوانها . فنحن أمام رواية حديثة إذ أنه تحت الفكاهة ، وتحت قصة التجول والجرى والركض ، وتحت ما قدمته من انعكاس للحياة كما هى نجد أنها درست أيضا شيئا آخر : كل طبيعة الواقع والوهم . وهذا بشكل أو بآخر هو ما تعنى بدراسته كل رواية حديثة . واستعماله للأسلوب الهزلى المرح بحق وتفرد جعل من ثربانتس ، مؤلف دون كيخوتى ، عصريا الى الأبد .

٨ - غير أننا نأخذ على ثربانتس في روايته « دون كيخوتى » وجود بعض المصادقات المفتعلة ، والسهو والخطأ الذى ينشأ عنه أحيانا خلط بين الوقائع والأحداث كحادث سرقة حمار سانتشوشو ثم نراه رغم ذلك يظل يتحدث عن الحمار في مواضع أخرى وكأنه لا يزال في حوزة سانتشوشو . . ومثل قوله في الفصل الثانى والأربعين من الجزء الأول من الرواية : « بدأ النهار ينحدر والليل يقبل » . « ناسيا أن الليل قد أقبل من زمن طويل ، وأنهم تناولوا العشاء ، وأن الأسير قضى زمنا طويلا وهو يروى تاريخه الحافل » .

وكذلك المواقف المتناثرة في الرواية كان من الأوفق احترام نكاه القارئ ، وترك الحدث يتكلم عن نفسه .

وفي أحيان أخرى نرى المؤلف يتدخل شخصيا في بعض مواضع الرواية ، وكان الأجدر أن يفصل شخصيته عن العمل الفنى .

كما أن استباقه مقدما لما تسبق عنه بعض الأحداث يفقدها عنصر التشويق ، وذلك كقوله في الفصل الثانى عشر من الجزء الثانى من الرواية عن دون كيخوتى وفارس المرايا : « كان الحديث يجرى بينهما هكذا وهما جالسان الى جوار بعض على الأرض ، في تفاهم جميل ، دون أن يقدرا أنه حين ينقشع الظلام سيكسر كل منهما رأس الآخر » .

وقد راقنا ما جاء على لسان دون كيخوتى في الفصل الثامن والخمسين من الجزء الثانى للرواية عندما قال : « أن ما يسمىه العامة باسم الفأل والطيرة ، هو أمر لا يقوم على النظام الطبيعى للأشياء » حتى خلنا أن ثربانتس كان يفكر بالأسلوب العلمى ، إذ ربما اطلع على آراء جاليليو وأسلوبه التجريبي في البحث ، بيد أننا رأينا في مواضع أخرى يتحدث عن

الجنيات والسحرة والسحر ، ويبدو أن ثربانتس قد اقتبس ذلك من قولكلور العصور الوسطى .

ومع ذلك نعود فننتدرك ما ذكرناه من مآخذ . فمن التعسف أن ننظر إلى ذلك العمل نظرة عصرية بعين رجل العلم الذي يعيش في عصر الفضاء ، وإنما يجب أن نعزل العمل الفني ونقيمه في حدود عصره ومقاييسه . وعلى سبيل المثال فالحديث عن السحر والسحرة وحكايات الجن كان مألوفا لدى الناس في عصر شكسبير ، وحتى الشعراء مثل سبنسر احتفوا بالجنيات في أشعارهم .

أما انتقاد ثربانتس لنفسه كقوله ان البعض يتهمه بفقدان الذاكرة ( بخصوص حمار «سانتشو الذي سرق » فقلنا على أنه لا يعيد قراءة ما سبق أن كتبه .

وعلى أية حال اننا لم نسق تلك المآخذ لنشوه صفاء السماء ، ولكن لأننا أحسبنا رغم ذلك أن فن ثربانتس شيء يفوق الواقع يذكرنا بذلك التشكيل المجسم الذي يمثل الماريشال ناي للمثال فرانسوا ريد . فقد استخرج المثال العالمي رودان ما لا يقل عن عشرة أخطاء في هذا التمثال ، ولكنه مع ذلك يمتاز بصدقه الفني المستمد من تلك الأخطاء نفسها ، بل ويبدو لنا طبيعيا أكثر من تلك الصورة الفوتوغرافية التي تلتقطها آلة تصوير شديدة الدقة والسرعة لضابط يقفز على قدم واحدة في وضعية سخيف يبدو خاطئا مبتورا رغم أنه وضع حقيقى . وهذا يؤيد قول أرسطو : « ان الشعر أصدق من التاريخ » ، وبالتالي النحت أصدق من الصب القالبى ، والرسم أصدق من التصوير الفوتوغرافى .

وإذا انتقلنا إلى ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى في ترجمته لرواية « دون كيخوتى » من أن الاضطرابات في التواريخ كثيرة ، فإننا نرى أن ثربانتس لا تثريب عليه فهو فنان وليس مؤرخا ملتزما بوقائع التاريخ بأدق تفاصيلها .

٩ - تأثر كثير من الكتاب برواية « دون كيخوتى » مثل هنرى فيلدنج ، وتوبياس جورج سموليت ، ووالتر سكوت ، وتشارلز ديكنز فقد خرجوا من معطف ثربانتس .

١٠ - لم تؤثر رواية « دون كيخوتى » على الأدب فحسب ، ولكنها أثرت أيضا في الفنون التشكيلية ، بل وأثرت كثيرا من المؤلفين الموسيقيين من مختلف القرون فوضعوا موسيقى موضوعات مستوحاة من تلك الرواية في مختلف الأشكال الموسيقية من القصيد السيمفونى ( ريتشارد شتراوس ) إلى موسيقى الباليه ( مانويل فاي ، وبوامورتيير ، ولودفيج مينكوس وغيرهم ) ، كما توالى العروض الأوبرالية التي شهدتها مختلف العواصم العالمية .



١١ - لفت أنظارنا ما قاله ثربانتس على لسان دون كيخوتى في الفصل السادس عشر من الجزء الثانى للرواية : « ان الشاعر المطبوع ، الذى يستعين بالصنعة يفوق كثيرا من لا يعرف الا الصنعة ، لان الصنعة لا تفوق الطبيعة ، وهكذا بمزج الطبيعة بالصنعة ، والصنعة بالطبيعة يخرج الشاعر كاملا » . وكأنى هنا أسمع ما قاله الشاعر اللاتينى الكبير هوراس في كتابه « فن الشعر » عن الصناعة والالهام : « لست أتبين ما يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل » . ان أحدهما ليلح في طلب الآخر ويعاهده على صداقة باقية . فمن كان مطمعه بلوغ الهدف المنشود فقد عانى الكثير في صباه ، وارتعد وتصيب عرقه ، وحرم نفسه الحب والخمر » .

وهذا ينطبق على ميغيل دى ثربانتس الذى لم يكتف بموهبته الشخصية فقبح ساكنا منتظرا الالهام يسقط عليه من ربات الشعر ، بل لقد عانى الكثير في صباه وتصيب عرقه كى يصقل مواهبه وهو الذى حدثنا أنه منذ صغره لم يكن يعثر على قصاصة ورق الا ويقرأ ما فيها ، وقد بذل ثربانتس جهدا شخسيا متصلا في تثقيف نفسه ، وفي الاطلاع على مختلف الآثار الأدبية واغترف من الحضارتين الاغريقية والرومانية الكثير ، وحصل على ثقافة عريضة تطل علينا بوضوح من روايته « دون كيخوتى » فقد أشار على سبيل المثال ، الى هوميروس ، وفرجيليوس ، وبلوتارخس ، وسيزيف ، وبروميثيوس ، وميديا ، ونيتون ، وهكتور ، وأخيليس ، وطروادة التى يرجع فضل شهرتها الى هيلانة الجميلة التى اختطفها الضيف الجسور من منيلاوس ، وأفلاطون ورأيه في الشعراء . ولم يقصر اطلاعه على الآثار الأدبية فحسب ، بل تجاوزها الى شتى أنواع المعارف كما نتبين ذلك من ذكره لكتاب « الحشائش » الذى ترجمه الدكتور لاجونا من اليونانية الى الاسبانية . كما اطلع على مؤلفات توماس الأكوينى في الفلسفة والأخلاق والدين وماوراء الطبيعة ، وهو راهب زاهد متقشف ، كان يجوب ايطاليا على صهوة بغله ، ذائدا عن الدين بقوة براهينه الفلسفية ، مدافعا عن القيم والمثل السوامق ، وربما كانت لهذه الشخصية اثرها كأحد المنابع التى أسهمت في الهام ثربانتس عندما أبدع شخصية دون كيخوتى .

\*\*\*





## المراجع

### أولا : النص

#### ( أ ) النص باللغة الأسبانية

- \* Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha; Edición y Notas De Francisco Rodríguez, Marin, Madrid, 1950.
- \* Saavedra, Miguel de Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha, con la Vida de Cervantes por D.M.F. Navarrete. Paris, 1845 (Colección de los mejores autores españoles vol. I).

#### ( ب ) النص باللغة الانجليزية

- \* Cervantes, Miguel de ; Don Quixote, translation by Peter Motteux, introduction by Herschel Brickell, New York, 1930.
- \* Cervantes, Miguel de : The History of Don Quixote de la Mancha, translated by John Ormsby, Chicago, London, Toronto, 1952.

#### ( ج ) النص باللغة الفرنسية

- \* Cervantes, Michel de : Histoire de Don Quichotte De La Manche, Traduite de l'espagnol par Filleau de Saint-Martin, Paris, 1947.

- \* Saavedra, Miguel de Cervantes : L'ingenieux Hidalgo Don Quichotte de la Manche, traduite et annotée par Louis Viardot, Paris.

### ( د ) النص مترجم

- \* ميجل دي ثريانتس : دون كيخوتي • جزءان • ترجمة : د • عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٥ •
- \* ميجل دي ثريانتس سافدرا : السيد العبقري دون كيخوته دي لامانتشا — ترجمة : د • عبد العزيز الأهواني ، القاهرة ١٩٥٧ •

### ثانيا : الدراسات

#### ( ١ ) دراسات باللغة الإسبانية

- \* Cervantes, M. De : El Licenciado Vidriera y El Coloquio de Los Perros, Edición, estudio y notas por Francisco Esteve Barba, Zaragoza, 1964.
- \* Cervantes, M. De : Los Trabajos de Persiles y Sigismunda, Selección, estudio y notas por Nicolas Gonzales Ruiz, Zaragoza, 1962.
- \* López, Jose García : Literaturas Hispánicas, Barcelona, 1965.
- \* Prat, Angel Valbuena : Historia De La Literatura Española, Tomo 3, Barcelona, 1963.
- \* Rueda, Lope de y Cervantes, M. De : Pasos y Entremeses. Edición, estudio y notas por Jose Manuel Blacua, Zaragoza, 1963.
- \* Vega, Garcilaso De la : Poesías, Madrid — Barcelona.
- \* ESPANA 81, Año IX, Marzo 1981.



## ( ب ) دراسات باللغة الانجليزية

- \* Altamira, Rafael : A history of Spain, translated by Muna Lee, New York, 1949.
- \* Busoni, Rafaello : The Man who was Don Quixote, U.S.A , 1958.
- \* Castiglioni, Arturo : A History of Medicine, translated from the Italian by E.B. Krumbhaar, New York, 1947.
- \* Clark, H. Barrett : World Drama, Vol. 2 (20 Unabridged Plays) New York, 1933.
- \* Creasy, Edward S. : History of the Ottoman Turks. Beirut, 1961.
- \* Davies, R. Trevor : The Golden century of Spain 1501 — 1621.
- \* Doren, Mark van :Don Quixote's profession, New York, 1958.
- \* Eagle, Dorothy : The concise Oxford Dictionary of English Literature, Oxford, 1977.
- \* Encyclopedia Americana.
- \* Encyclopedia Britannica.
- \* Ewen, David : Encyclopedia of the Opera, New York, 1955.
- \* Garland, Joseph : The Story of Medicine, Boston, 1949.
- \* Harvey, Sir Paul : The Oxford Companion to English Literature, London, 1953.
- \* Heiney, Donald and Downs, H. Lenthel : Continental European Literature, New York, 1974.

- \* Josephson, Leonard and others : Encyclopedia of World Drama, New York 1972, Vol. 1.
- \* Kirkpatrick, F.A. : The Spanish conquistadors, London, 1946.
- \* Magill, Frank N. : Cyclopedia of Literary Characters, New York, 1963.
- \* Montross, Lynn : War through the Ages, New York, 1960.
- \* Nelson, Lowry : Cervantes, A Collection of Critical Essays, New Jersey, 1969.
- \* Scotte, George Ryley : The History of Torture throughout the ages, London, 1949.
- \* Smith, Horatio : A Dictionary of Modern European Literature, New York, 1947.
- \* Steinberg, S.H. : Cassell's Encyclopedia of Literature, London, 1953.
- \* Thomas, Henry and Thomas, Dana Lee : Living Biographies of Famous Novelists, New York, 1946.
- \* World Book Encyclopedia.

#### ( ج ) دراسات باللغة الفرنسية

- \* Grand Larousse encyclopédique.
- \* Rochel, Clément : Cervantes inédit, Paris, 1903.

#### ( د ) دراسات باللغة الألمانية

- \* Krywalski, Diether : Knaurs Lexikon der Welt-Literatur, München/Zürich, 1979.



### ( هـ ) دراسات أجنبية مترجمة

- \* برتون راسكو : عمالقة الأدب ٣ أجزاء - ترجمة : درينى خشبة ، القاهرة ١٩٦١ .
- \* جورج كروتز : حول مائدة المعرفة ، النساء في الأدب ، ترجمة : جلال مظهر ، القاهرة - نيويورك ١٩٦١ .
- \* خوليو كورتيس : دون كيخوتى في القرن العشرين - مختارات من مقالات إسبانية - ترجمة : د . خوليو كورتيس ود . محمد صبح ، مدريد ١٩٦٨ .
- \* روبرت بروسناين : المسرح الثورى - ترجمة عبد السلام البشلاوى ( بلا تاريخ ) .
- \* ل . ج . بوتس : الملهاة في المسرحية والقصة - ترجمة : ادوار حليم ، القاهرة ١٩٦٥ .
- \* هوارس : فن الشعر - ترجمة : د . لويس عوض ، القاهرة ١٩٧٠ .

### ( و ) دراسات باللغة العربية

- \* د . حسين مؤنس : كتب وكتاب - الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٩ .
- \* د . عبد العزيز الأهوانى : دون كيخوته ( لسرفنتيس ) العدد ٢ من المجلد الثالث من سلسلة تراث الانسانية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- \* د . محمد مندور : نماذج بشرية ، القاهرة ١٩٦١ .
- \* الموسوعة العربية الميسرة .





## للمؤلف

- ١ - الكيمياء في خدمة المجتمع  
لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .
- ٢ - الطاقة الذرية  
لجنة البيان العربى ١٩٥٦
- ٣ - طرائف ومداعبات علمية  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧
- ٤ - دنيا الدم  
لجنة البيان العربى ١٩٥٨ .
- ٥ - الأصبع أو الزمن يتصرم  
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٦٨ .
- ٦ - أيها الخادم الطيب المخلص  
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٦٨ .
- ٧ - ستأخذ بئارى  
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٦٩
- ٨ - الدوامة  
الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة ) ١٩٧٠ .  
وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون  
والآداب .
- ٩ - العاصفة  
العدد ٢٩٩ من روايات الهلال نوفمبر ١٩٧٣ .

- ١٠ - ليال لا تنسى  
العدد ٣١٧ من روايات الهلال مايو ١٩٧٥
- ١١ - المسحوق السحري ومسرحيات أخرى  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .
- ١٢ - جسر بنات يعقوب  
من سلسلة الابداع العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة ) ١٩٨٥ .
- ١٣ - دانتي والكوميديا الالهية  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧
- ١٤ - أثر الكوميديا الالهية لدانتي في الفن التشكيلي  
من الألف كتاب ( الثانى ) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة الثقافة ) ١٩٨٧ .
- ١٥ - الزوجة الأولى  
من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة الثقافة ) ١٩٨٧ .
- ١٦ - الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء  
مسرحيتان علميتان - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- ١٧ - دون كيشوت بين الوهم والحقيقة  
من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة ) ١٩٨٩ .



## الفهرس

مقدمة . . . . . ٥

### الباب الأول

شخصية دون كيخوتي

من خلال حياة مؤلفها

تمهيد . . . . . ١١

### الفصل الأول :

- ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية  
والدينية . . . . . ١٢
- ١ - أسبانيا في القرن الذهبي . . . . . ١٢
- ٢ - فيض من النبلاء وسيل من البذخ . . . . . ١٣
- ٣ - ايمان رهيب . . . . . ١٤
- ٤ - الملك حاكما مطلقا . . . . . ١٤
- ٥ - الحضارة الاسبانية . . . . . ١٧
- ٦ - أحداث قرن ثربانتس . . . . . ١٨

### الفصل الثاني :

- حياة ميغل دي ثربانتس المغامر كإنموذج لبطل روايته دون  
كيخوتي . . . . . ٢٢
- ١ - حياة التشرد والتجوال في سلالة دون كيخوتي أو دون  
كيخوتي ابنا عن أب . . . . . ٢٢
- ٢ - ميغل في روما . . . . . ٣٢٠٠
- ٣ - ميغل في معركة ليبانتو . . . . . ٣٧
- ٤ - ميغل في قلعة نابولي . . . . . ٤١
- ٥ - ميغل أسيرا في الجزائر . . . . . ٤٤

- ٦ - ميغل يجرب حظه مع المرأة والقلم . . . . ٥٣  
 ٧ - الكارثة . . . . . ٦٢  
 ٨ - ميغل فى السجن . . . . . ٦٧  
 ٩ - ميغل يفلت من طوفان الزمن . . . . . ٧٠

### الفصل الثالث :

- سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ فى حياة ثريانتش . . ٧٥

## الباب الثانى

### دراسة تحليلية لنص الرواية

- تمهيد . . . . . ٨١  
 الفصل الأول : العناصر الرئيسية للرواية . . . . . ٨٣  
 ١ - هذه الرواية . . . . . ٨٣  
 ٢ - مولد فارس . . . . . ٨٥  
 ٣ - عالم الطواحين الهوائية . . . . . ٨٩  
 ٤ - فى الطريق الى الفندق المسحور . . . . . ٩٣  
 ٥ - الاميرة المزيفة . . . . . ٩٨  
 ٦ - قـدية دولثينيا . . . . . ١٠١  
 ٧ - هزيمة دون كيخوتى على يد فارس القمر الابيض . . ١٠٥  
 ٨ - يستقر ليموت . . . . . ١١١  
 الفصل الثانى : شخصيات الرواية . . . . . ١١٣  
 ١ - الفارس النبيل . . . . . ١١٣  
 ٢ - سافتشو بانثا الذى ولد لينا . . . . . ١١٥  
 ٣ - الدوافع الطيبة للجامعى كاراسمكو . . . . . ١١٦  
 ٤ - اللص . . . . . ١١٨  
 ٥ - دولثينيا . . . . . ١١٩



٦ -	تيريسا	٠٠	الحكيمة التي تتكلم بالامثال	٠	٠	٠	١٢٠
٧ -	ماريتورنس	المسكينة ذات القلب الكبير	٠	٠	٠	٠	١٢٠
٨ -	أنطونيا	الرقيقة	الشعور أكثر عنها قاسية	٠	٠	٠	١٢١
<b>الفصل الثالث : عرض لآراء الكتاب والنقاد في العمل</b>							
١٢٤	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٤
(أ)	تفوق ثريانتس في الميدان القصصى	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٤
(ب)	فيض حماسى من التفسيرات	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٧
١ -	ملهاة للمكتئبين	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٨
٢ -	الثار من شارل الخامس	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٩
٣ -	كهل وجندى ونبيل وفقير	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٠
٤ -	الفرنسيون يبهرهم أسلوب الرواية	٠	٠	٠	٠	٠	١٣١
٥ -	الانجليز والرواية	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٢
٦ -	الركض وراء النوايا الخفية والمقاصد السرية	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٣
٧ -	هوميروس الجديد كما يراه الرومانتيكيون	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٤
٨ -	ادخال الشعب فى الرواية	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٥
٩ -	دون كيخوتى فى ملابس نسائية وملامح الاسطورة فى اشكال أخرى	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٦
١٠ -	قلق باروكى تحت ستار المرح	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٩
١١ -	دون كيخوتى كما نراه اليوم	٠	٠	٠	٠	٠	١٤٢
١٤٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٤٧
١٥٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٥٧

رقم الايداع ٨٩/٧٠٣٨

---

الترقيم الدولى ٧ - ٢٢٢٩ - ٠١ - ٩٧٧

---

الهيئة المصرية العامة للكتاب





● ● لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتي التي أبدعها ميغل دي ثربانتس ، نابغة إسبانيا وبديعها .  
ويقدم هذا الكتاب دراسة تحليلية نقدية لنص الرواية متناولاً العناصر الرئيسية لها ، وشخصياتها حتى يعيد تنظيم الجو النفسي والروحي الذي صيغ فيه هذا العمل ليكتسب أبعاداً واضحة ، ويصبح في الإمكان تقدير الأوجه التي لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

كما يتناول البحث مؤلف هذا العمل الفريد وعصره وظروفه إذ لم يكتب في مصر عن حياة ميغل دي ثربانتس إلا النزر اليسير .. بضع صفحات هنا وهناك مع أننا ندين له بامتع روايتين اتحفنا بهما في تاريخ الأدب .

أولاهما .. حياة دون كيخوتي الغريبة العجيبة ، وثانيتها .. حياة مؤلفها التي تضارع حياة بطله دون كيخوتي إن لم تكن قد فاقتة في غرابتها . ولكن لماذا طغت عليه شخصية بطله ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ ويستمر البحث لاكتشاف سر دون كيخوتي المحير ! هل هو شخصية لا وجود لها إلا في خيال مؤلفه ؟ أم تراه قد صادف دون كيخوتي وعرفه في الحياة الواقعية في مكان ما ؟ هذا ما سيمضي فيه البحث قدماً لإمطة اللثام عنه .